رسالة المسترشدين

للحارث المحاسبي

أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري

توفي ببغداد سنة ٢٤٣ هـ

رحمه الله تعالى

حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه

عبد الفتاح أبو غدة

الطبعة الثانية مزيدة من التحقيق والتعليق

الناشر

مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب

باب الحديد - مكتبة النهضة - ت ٣٥٢٩١

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع

حلب - ص ب ١٨٩٣ - هاتف ١٧٧٦٤

الطبعة الأولى حلب ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤ م
الطبعة الثانية بيروت ١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م
الطبعة الثالثة بيروت ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م
الطبعة الرابعة القاهرة ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله وليّ كل حمدٍ وثناء ، والصلاة والسلام على رسوله سيدنا محمد خاتمِ الرسل والأنبياء ، وعلى آله وصحبه وأتباعه نجوم الاهتداء والاقتداء .

أما بعد فهذه الطبعة الثانية من « رسالة المسترشدين » للإمام أبي عبد الله المحاسبي رحمه الله تعالى ، بعد أن نفدت الطبعة الأولى ، ولاقت الرضا والقبول والحمد لله على فضله وتوفيقه . وجاءت هذه الطبعة أوفى تحقيقاً ، وأكثر تعليقاً ، فقد أكثرتُ فيها من الشواهد والوقائع والحكايات عن السلف ، تأييداً لما تضمّنَتْه « الرسالة » من الإرشاد والتوجيه ، أو النهي والتحذير ، ليكون ذلك أرجى قبولاً في النفوس ، وأدفعَ إلى العمل والامتثال ، وأطيبَ على القلب والفكر ، من الأمر أو النهي الصريح المباشر ، وقد حسَّن القرآن الكريمُ هذه الطريقة وقرَّرها فقال : ﴿ ولقد جاءهم من الأنباءِ ما فيه مُزْدَجَر ﴾ .

قال بعض العلماء : الحكاياتُ جندٌ من جنود الله تعالى ، يُثَبِّتُ الله بها قلوبَ أوليائه ، قال : وشاهدُه قولُه تعالى : ﴿ وكلاً نَقُصُّ عليك من أنباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ به فؤادَكَ ﴾ . وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى : الحكاياتُ عن العلماء ومَحاسِنِهم أحبُّ إليّ من كثير من الفقه ، لأنها آدابُ

القوم . وشاهِدُه قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين هَدَى اللهُ فبِهُداهُم اقْتَدِهْ ﴾ وقولُه سبحانه : ﴿لقد كان في قَصَصِهم عِبرةٌ لأولي الألباب ﴾ .

وقال سفيان بن عُيَيْنة رحمه الله تعالى: عند ذكر الصالحين تَنزلُ الرحمة[1] . ومن أجل هذا التزمتُ غالباً عَزْوَ الأقوال والوقائع إلى أهلها استنزالاً للرحمة بذكرهم ، كما التزمتُ غالباً إنشاءَ الترحُّم والترضي عليهم ، لكريمِ سِيَرِهم وطيِّبِ عِطرِهم ، فقد قال الإمام أبو محمد التميمي : يَقبُحُ بكم أن تستفيدوا منا ، ثم تذكرونا ولا تترحَّموا علينا[2] . وقد كان كِبارُ الأئمة من السلف ، إذا ذُكِر الصالحون في مجلسهم تأدَّبوا في هيئة جلوسهم ، رعايةً لمقام الصالحين ولو كانوا غائبين . فلا أقَلَّ من أن نترحَّمَ عليهم — نحن الخَلَف — إن فاتنا التأدُّبُ عند ذكرهم .

قال الإمام ابن مفلح الحنبلي في كتابه « الفروع » ١ : ١٩٥ والحافظ ابن

(١) نقل جل تلك الكلمات القاضي عياض في « ترتيب المدارك » ١ : ٢٣ .

(٢) من مقال (كتب برامج العلماء في الأندلس) للدكتور عبد العزيز الأهواني ، في « مجلة معهد المخطوطات العربية » في المجلد الأول .

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في مقدمة شرحه لكتاب « صحيح مسلم » ١ : ٣٩ « فصل : يستحب لكاتب الحديث إذا مر بذكر الله عز وجل أن يكتب (عز وجل) أو (تعالى) أو (سبحانه وتعالى) أو (تبارك وتعالى) أو (جل ذكره) أو (تبارك اسمه)أو (جلت عظمته) أو ما أشبه ذلك .

وكذلك يكتب عند ذكر النبي صلى الله عليه وسلم : (صلى الله عليه وسلم) بكما لهما ، لا رامزاً إليهما ولا مقتصراً على أحدهما .

وكذلك يقول في الصحابي : (رضي الله عنه) ، فان كان صحابياً ابن صحابي قال : (رضي الله عنهما) . وكذلك يترضى ويترحم على سائر العلماء والأخيار – أي يستحب ذلك أيضاً– ويكتب كل هذا وإن لم يكن مكتوبا في الأصل الذي ينقل منه،فان هذا ليس رواية وإنما هو دعاء .

وينبغي أن يقرأ كل ما ذكرناه وإن لم يكن مذكوراً في الأصل الذي يقرأ منه ، ولا يسأم من تكرر ذلك ، ومن أغفل هذا حرم خيراً عظيماً ، وفوت فضلا جسيما » .

حجر في « تهذيب التهذيب » ١ : ١٣٠ « قال أبو زُرعة الرازي : سمعتُ أحمد ابن حنبل– وذُكر عنده إبراهيم بن طَهْمان ، وكان أحمد متكئاً من علّة ، فاستوى جالساً وقال – : لا ينبغي أن يُذكَر الصالحون فنَتّكي . وذكَرَ أبو الوفاء بن عقيل في « الفنون » أنه كان مستنِداً ، فأزال ظهرَه وقال : لا ينبغي أن يَجري ذكرُ الصالحين ونحن مستندون » .

وقد جُبِلَتْ القلوب على حُبّ تقليدِ الصالحين والسيرِ على منوالهم ، وعلى الرغبةِ في التأسي بهم والاقتداء بأفعالهم وأقوالهم ، فلذا تراني أوردتُ في تعليقاتي من أقوال ووقائع العلماء والصالحين ، والعابدين والمجاهدين ، والزهاد والصابرين : ما يَدفع بالمؤمن الموصولِ بإيمانه إلى أن يتأسّى بهم ، ويتشبّه بسيرتهم ، ويعمل بعملهم ، وأن يزداد قوةً وشكيمةً في دينه وجهاده وصبره وبلائه ، وأن يكون خيرَ خلف لخير سلف ، وكما قيل :

وتَشبّهوا إن لم تكونوا مِثلَهُم إنّ التشبُّه بالكرام فَلاحُ

ومجالسةُ الصالحين ، أو سماعُ أخبارهم ، أو قراءةُ وقائعهم وسِيَرِهِم : من أهمّ مقاصد الحياة عند العقلاء الصُّلَحاء ، فما تُحبِّبُ الدنيا للعاقل إلا لتكميلِ صفاته ، وتكثيرِ حسناته ، وتزوُّدِه منها لآخرته ، وفي هذا يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لولا ثلاثٌ في الدنيا لما أحببتُ البقاء فيها : ١ – لولا أن أَحمِلَ أو أُجهِّزَ جيشاً في سبيل الله . ٢ – ولولا مُكابدةُ الليل . يعني قيامَ الليل والعبادةَ فيه لتحصيل ما فيه من جزيل الثواب . ٣ – ولولا مجالسةُ أقوام يَنتقون أطايبَ الكلام كما يُنتَقَى أطايِبُ التمر . انتهى .

وقد حَرِصتُ أن تتضمن تلك الوقائعُ والشواهدُ والأخبار ، كثيراً من الأمور الهادفة التي يحتاجها شبابُنا وبناتُنا في البيت والمجتمع ، من التوجيهات الغالية ، والأفكار الهادية ، والأخلاق الواعية ، لتكون لهم عوناً في حَضَرهم ، وزاداً معهم في سَفَرهم ، فما أحوج الطالبَ الشابَّ الأعزل الغريب ، المُحارَبَ بالمغريات من كل جانب ، مع دفع تيار المجتمع الذي يعيش فيه إلى الانسياق

والانخراط في كل شيء !

ما أحوجه أن تُغذّى فيه العقيدة المؤمنة ، ويُذْكَى فيه الخُلُق المسلم ، ويُشَبّ فيه العملُ الصالح في الجوّ الفاسد ، ويُذكّرَ بسِيرة السلف الأبرار ، ليَحفظ نفسَه بتقدير الله تعالى مما يُحيط به . فما أشدّ حاجةَ الشابِّ المؤمن في غربته ، إلى مثل هذا الزاد الروحي السليم ، ليتغذّى به كلّ يوم غُدوةً أو عَشِيّاً ، فيَبقى محافظاً على شخصيته المؤمنة من أن تُذيبها بَهْرَجةُ الحضارة الفاتنة الخلاّبة ، ويَسلَمَ من التردّي في مَساوىء أخلاق أهلِها ، التي تبدو زِينتُها ، وتَخفى مِحنتُها ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .

واللهَ الكريمَ أسأل أن ينفع بها ، ويَكتبَ لها القبول ، ويَجعلَها في كفّة الحسناتِ عنده ﴿يومَ لا يُخزِي اللهُ النبيَّ والذين آمنوا معه ، نُورُهم يَسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربَّنا أتمِمْ لنا نُورَنا ، واغفِرْ لنا، إنك على كل شيء قدير . يومَ تَرى المؤمنين والمؤمنات يَسعى نُورُهم بين أيديهم وبأيمانهم ، بُشراكم اليومَ جنّاتٌ تَجري من تحتِها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوزُ العظيم﴾ . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وكتبه

بيروت ١٩ / من جمادى الأولى سنة ١٣٩١ **عبد الفتاح أبو غدة**

غفر الله له

تقريظ الكتاب للطبعة الأولى من إمام من أئمة العصر العلامة المحقق الكبير سماحة مفتي الديار المصرية السابق الشيخ حسنين محمد مخلوف ، حفظه الله تعالى ورعاه وأمتع به .

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أخي وصديقي الأستاذ العلامة المحقق الشيخ عبد الفتاح أبي غدة أدام الله توفيقه .

وبعد فقد وصل كتابكم المبارك ، يحمل أسمى المعاني الكريمة الصادقة ، فجزاكم الله خيراً ولا حرمني من هذه المودة السابغة .

أما « رسالة المسترشدين » فكلما قرأتها أجد فيها لذة واستمتاعاً ، وكلما قرأت تعليقكم عليها أجده من الضرورة بمكان ، لكمال النفع بـ « الرسالة » ، فلله الحمد على ما وفق وأتاح .

ومع هذا كلمة جرى بها القلم ، أضعها بين يدي « الرسالة » لتطلعوا عليها ، فان شئتم نشرها فلكم ذلك ...

نص الكلمة المشار إليها :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد فإني أحمد الله تعالى إليكم ، إذ وفقكم لنشر « رسالة المسترشدين » للإمام أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي ، بتحقيقكم القيم الذي ألممتم فيه بما ينبىء عن غزير علمكم ودقيق

بحثكم ، وازدانتْ به « الرسالة » رُواءً وجمالاً ، وازدادتْ به نفعاً وكمالاً ، فجزاكم الله خير الجزاء عن العلم وأهله ، وعن هذا الإمام الجليل الذي وصفه حجة الإسلام الغزالي بأنه حَبْرُ الأمّة في علم المعاملة ، وله السبقُ على جميع الباحثين عن عيوب النفوس ، وآفات الأعمال ، وأغوار العبادات .

كان الإمام المحاسبي من الرعيل الأول من الصوفية الصادقين ، وكان إماماً في الحديث والفقه والكلام ، وله في علومها عِدّةُ كتبٍ ومصنّفات ، وأكثرُها في التصوف وتهذيب النفس والزهد وآداب السلوك .

والتصوفُ الإسلامي تربيةٌ عِلميةٌ وعَمَلية للنفوس ، وعلاجٌ لأمراض القلوب ، وغَرْسٌ للفضائل ، واقتلاعٌ للرذائل ، وقمعٌ للشهوات ، وتدريبٌ على الصبر والرضا والطاعات .

وهو مجاهدة للنفوس ومكابدة لنزعاتها ، ومحاسبة دقيقة لها على أعمالها وتُروكها ، وحفظٌ للقلوب عن طوارق الغَفَلات وهواجس الخطرات ، وانقطاعٌ عما يعوق السالك في سَيْره إلى الله ، وزهادةٌ في كل ما يُلهي عن ذكر الله ويَعلَقُ بالقلوب سواه .

وهو معرفة لله ويقين ، وتوحيد لله وتمجيد ، وتوجُّه إلى الله وإقبال عليه وإعراض عما سواه ، وعكوف على عبادته وطاعته ، ووقوف عند حدوده ، وتعبُّدٌ بشريعته ، وتعرُّضٌ لنفحاته وهِباته التي يَخصُّ بها أولياءه وأحبابه فضلاً منه وكرما .

وجملةُ القول فيه قبْلَ تدوينه كفنّ إسلامي وبعْدَه : أنه عِلمٌ وحكمة ، وتبصرة وهداية ، وتربية وتهذيب ، وعلاج ووقاية ، وتقوى واستقامة ، وصبر وجهاد ، وفِرارٌ من فتنة الدنيا وزينتِها وابتعاد .

وقد أشار إلى طَرَفٍ من ذلك أبو محمد الجَرِيري بقوله في وصفه :

إنه الدخولُ في كل خُلُق سَنِيّ ، والخروجُ من كل خُلُق دَنِيّ . وقولِه : التصوفُ مراقبةُ الأحوال ولزومُ الأدب .

والأدَبُ — كما أشار إليه القُشَيري في « الرسالة » — : جِماعُ خصال الخير . وحاصلُها : التفقه في الدين ، والزهد في الدنيا ، والمعرفة بما لله عزّ وجلّ من حقوق .

وعن أبي نصر السرّاج : الناسُ في الأدب على ثلاث طبقات :

أما أهلُ الدنيا فأكثرُ آدابهم الفصاحة والبلاغة ، وحفظُ العلوم والمنظوم .

وأما أهلُ الدين فأكثرُ آدابهم في رياضة النفوس ، وتأديبِ الجوارح ، وحفظِ الحدود ، وتركِ الشهوات .

وأما أهلُ الخصوصية (يعني الصوفية) فأكثرُ آدابهم في طهارة القلوب ، ومراعاةِ الأسرار ، والوفاءِ بالعهود (التي بين العبد وربّه) ، وحفظِ الوقت ، وقلّةِ الالتفات إلى الخواطر ، وحُسنِ الأدب في مواقف الطلب وأوقاتِ الحضور ومقاماتِ القُرْب . انتهى .

فالتصوّفُ كما ترَى : لُبُّ الشريعة ورُوحُها ، وثمرتُها وحكمتُها . وقد قال سيد الطائفة الجُنَيد : عِلمُنا هذا مقيّدٌ بالكتاب والسنة ، ومن لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديثَ لا يُقتَدَى به في هذا الأمر ، والطُّرُقُ كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتَفى أثرَ الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد اختَصّ هذا النوعُ من العلم الشرعي في عصر التدوين — كما أشار إليه ابن خلدون في « مقدمته » — باسم (التصوف أو عِلْم الحقيقة) ، كما اختَصّ النوعُ الآخَرُ منه الخاصُّ بالأحكام الفرعية في العبادات والمعاملات باسم (الفِقْه أو عِلْم الشريعة) .

وقال بعض الصوفية في بيان ترابط هذين العِلمين وتعاونهما في تكوين

شخصية المسلم الكامل ظاهراً وباطناً ، حِسّاً ومعنى ، مادّةً ورُوحاً : « حقيقةٌ بلا شريعة باطلة ، وشريعةٌ بلا حقيقة عاطلة » . فهما للمسلم كجناحي الطائر ، لا يَستقلُّ بأحدهما دون الآخر .

ذلك هو التصوُّفُ النقيُّ من الشوائب ، الذي لم يخالطه زَيغٌ ولا شطط ، ولا جهل ولا ابتداع . وهو تصوُّفُ العلماءِ والنُّسّاكِ العارفين بالله ، القائمين على حدوده ، المتمسكين بشريعته ، أمثالِ أبي سعيد الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠ ، وأبي إسحاق إبراهيم بن أدهم البلخي المتوفى سنة ١١٦ ، وأبي سليمان داود بن نُصَير الطائي المتوفى سنة ١٦٥ ، وأبي علي الفُضَيل بن عِياض الخراساني المتوفى بمكة سنة ١٨٧ ، وأبي محفوظ معروف بن فيروز الكرخي المتوفى ببغداد سنة ٢٠١ .

وأمثالِ أبي نصر بِشْر بن الحارث الحافي المَرْوَزي ، ثم البغدادي المتوفى سنة ٢٢٧ ، وأبي عبد الله الحارث بن أسَد المحاسبي البصري ، صاحب هذه الرسالة « رسالة المسترشدين » ، المتوفى سنة ٢٤٣ ، وأبي الفيض ذي النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥ ، وأبي الحسن سَرِيّ بن المُغَلِّس السَّقَطي المتوفى سنة ٢٥٧ ، وأبي زكريا يحيى بن معاذ الرازي الواعظ ، المتوفى بنيسابور سنة ٢٥٨ ، وأبي سعيدٍ أحمد بن عيسى الخرّاز البغدادي ، المتوفى سنة ٢٧٧ ، وأبي محمد سهل بن عبد الله التُسْتَري ، المتوفى سنة ٢٨٣ ، وأبي القاسم الجُنَيد البغدادي شيخ الطائفة المقدَّم ، المتوفى سنة ٢٩٧ .

وأمثالِ أبي محمد رُوَيم بن أحمد البغدادي ، المتوفى سنة ٣٠٣ ، وأبي العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء المتوفى سنة ٣٠٩ ، وأبي محمد أحمد بن محمد الجَرِيري ، المتوفى سنة ٣١١ ، وأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القُشيري صاحب « الرسالة » المشهورة ، المتوفى سنة ٤٦٥ ، وحجةِ الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، صاحب « الإحياء » المتوفى سنة ٥٠٥ .

وأمثالِ أبي محمد عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ ، وأبي حفص

عمر بن محمد السُّهْرَوَرْدِي ، صاحب « عوارف المعارف » المتوفى سنة ٦٣٢ ، والإمام أبي الحسن الشاذلي علي بن عبد الله ، المتوفى سنة ٦٥٦ ، وأبي العباس أحمد بن عمر المُرْسِي ، المتوفى بالإسكندرية سنة ٦٨٦ ، وأبي الفضل أحمد بن محمد بن عطاء الله الإسكندري ، المتوفى سنة ٧٠٩ ، والإمام ابن القيِّم المتوفى سنة ٧٥١ .

وأمثالِ السيد عبد الله بن علوي الحدَّاد الحضرمي ، المتوفى بحضرموت سنة ١١٣٢ ، وشمس الدين الإمام محمد بن سالم الحِفْني ، المتوفى بمصر سنة ١١٨١ ، وأبي البركات أحمد الدَّرْدِير العَدَوِي المالكي المتوفى بمصر سنة ١٢٠١ ، وغيرِهم ممن لا يُحصيهم العدّ ، من المتقدمين والمتأخرين من أعلام أئمة التصوف العارفين ، في مختلِف العصور رضي الله عنهم أجمعين .

ولهؤلاء الأئمة وأضرابهم كلام جيد رصين ، وحِكَم شافية ، ومؤلفاتٌ قيِّمة في الأصول والفروع ، والأعمال النفسية وأحوالِ القلوب وخطراتِها ، وأخطارِها وعلاجها ، وفي الآداب والأذواق والمواجيد ، والأحوالِ النفسية والمجاهدات ، على تشدُّدٍ من بعضهم في السلوك وتفاوتٍ حسبَ تفاوتِ أقدارهم في العلم والذوق والعِرفان .

وجميعُهم إنما يَصدُرون في ذلك عن كتاب الله وهَدْي النبوة ، وما رُوي عن العارفين من أئمة الإسلام من أقوال وأعمال وأحوال .

هذا هو التصوف الصادق الذي ملأ سَمْعَ الدنيا وأعيُنَها قبلَ عصرِ التدوين وبعْدَه ، وهؤلاء وأمثالُهم هم الصوفية حقاً ، الصادقون قولاً وفعلاً ، ومنهم المحاسبيُّ رضي الله عنه .

التصوُّفُ المنتَحَل :

وهناك تصوف زائف انتحله قديماً فِئامٌ من الناس ، أُشرِبُوا تعاليمَ الباطنية الحُلُولِيّة ، وتدثّروا بدثار الصوفية ، اجتذاباً للعامّة ، وتغريرِ وخِداعاً وتلبيساً ، ودَسُّوا في التصوف إلحادَهم ومقالاتِهم الشنيعةَ في الدين

إضلالاً للمسلمين ، هؤلاء ليسوا من الصوفية ولا التصوف في شيء ، ويُنكرهم كلَّ الإنكار أولئك الأعلام الذين ذكرناهم وأضرابُهم ، ويحسبونهم أدعياء في نَسَبهِ مُزَوِّرين ، وزنادقةً مُلحِدين .

وقد كشَفَ خبيثَهم ، وفنّدَ مزاعمَهم ، وأبطلَ تصوفهم كثيرٌ من الأئمة ، ومنهم شيخ الإسلام ابنُ تيمية والإمامُ ابن القيِّم رضي الله عنهما .

وهنالك آخرون انتسبوا إلى الصوفية زُوراً ، واتخذوها سِمَةً وحِرْفة ، وتوارثوا فيما بينهم بِدَعاً وشعاراتٍ زائفة ، وتقاليد منكرة ، يتبرأ منها التصوُّفُ وأعلامُه من أولي العلم واليقين .

وهؤلاء كذلك أدعياءُ في التصوف ، دُخَلاء في الصوفية ، مبتدِعون آثمون .

وإحقاقاً للحق ، وإنصافاً للصادقين : يجب أن لا يُحمَّلوا أوزارَ أولئك الأدعياء المبطلين ، وأن لا يُطلَق القول في ذمِّ التصوف والصوفية ، بل يُعطَى كلُّ فريق حقَّه من المدح أو الذم ، ومن الترغيب أو التحذير ، دون تعصُّب أو تحيُّف .

وإنما أفضنا في هذا البيان ليتعرَّف القارىء أن الإمام المحاسبي صاحب « الرسالة » وأمثالَه من الصوفية : إنما هم من أولئك الصوفية الصادقين في نهجِهم وأقوالِهم وعلومِهم .

وفي « رسالة المحاسبي » : دليل على ما ذكرنا ، وفيها : تربية للنفوس ، وتهذيب للطباع ، وعلم صحيح لمن يطالعونها بدقّة وعناية ، مع تعليقات الأستاذ المحقّق ، الذي له الفضلُ في نَشْرِ هذا التراث العظيم وشَرْحِه ، نفعَ الله بهما ، وأجزَل مثوبتَهما آمين .

القاهرة في ٣ / جمادى الآخرة سنة ١٣٨٩ — كتبه

حسنين محمد مخلوف

مفتي الديار المصرية السابق وعضو جماعة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمة الطبعة الأولى :

الحمد لله وليّ كل خيرٍ وهداية ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الداعي إلى أفضل طريقٍ وغاية ، ورضي الله عن أصحابه مصابيح الهدى والدين ، وتابعيهم السالكين نهجهم القويم بإحسان .

أما بعد : فمِن أشدّ ما يحتاجه الناسُ في هذا العصر : العنايةُ بالروح ، والفهمُ للدين ، والعملُ به ، وقد تهيّأ هذا للسّلفِ الصالح على الوجه الأوفى ، فطاب مجتمعُهم ، وصلَح سلوكُهم، وكثر خيرُهم ، وقلّ شرُّهم ، وكسَبوا لأنفسهم في دنياهم وأخراهم خيرا .

وقد ترك أولئك السّلفُ الصالحون آثارَ خيرٍ وعلمٍ تُرشد التائهين ، وترُدُّهم إلى الجادّة إذا ضلّوا الطريق ، فألّفوا الكتب والرسائل في فضائل الأعمال وتزكيتها ، وفي إصلاح النفس وتنقيتها ، ترغيباً وترهيباً ، حتى قيل فيهم لكثرة ما قاموا به من تأليف وتصنيف ، وتحذيرٍ وتعريف : « ما ترك الأوّلُ للآخِر » .

ومِن أطيبِ ما ترَك الأوّلُ للآخِرِ آثارُ الإمام الشيخ أبي عبد الله الحارث ابن أسَد المُحاسِبِي الزاهد ، الواعظ الفقيه ، المحدث المتكلم ، الناصح الأمين ، الداعي إلى الله بقلبه وقالبه ، ولسانه وقلمه .

ولقد أوتي أبو عبد الله إخلاصاً ناصعاً ، وقلباً مُشرِقاً ، وبياناً ناطقاً ، مع التقوى والخوف من الله تعالى . وهاتانِ الكلمتانِ جزْلتانِ في النطقِ والسمع ، ولكنهما كانتا في قلب أبي عبد الله أوسعَ من الدنيا وأيقظَ من الحياة ، وقد فرغ قلبُ أبي عبد الله من الدنيا فراغَ من أيقن أن ليس بينه وبين القبر إلا ساعة ، فلذلك قام يُذكّرُ الناسَ بلسانه وبيانه ، كأنه يَرى الجنة ونعيمَها ،

والنارَ وجحيمها ، حتى كان كما قال مالك بنُ دينار رحمه الله تعالى : « لو وجدتُ أعواناً لفرّقتُهم ينادون في سائرِ الدنيا كلها : يا أيها الناس النارَ ! النارَ ! » .

وقد سلك أبو عبد الله — أجزل الله مَثُوبتَه — في بعض كتبه مسلك الإطناب والإسهاب حتى لم يدع زيادةً لمستزيد ، وسلك في بعضها مسلك الجزالة والإيجاز ، مكتفياً بقصير الكلام عن طويله ، وبقليله عن كثيره ، اعتماداً منه على توجّهِ نَفْس المسترشِدِ المستوصِف ، المستهدي المتلهّف .

فألّف هذه الرسالة التي سمّاها : « رسالة المسترشدين » ، وأودعها غاليَ النُّصح ، وأطيبَ الإرشاد ، وأوفى الموعظة ، وأجلى التنبيه والإيقاظ ، وأخلصَ القولِ والبيانِ والترجيه ، في جُمَلٍ مكنوزةٍ بالعلم والمعاني ، تُفهَم سريعاً ، وتُقرأ سريعاً ، ولكن لا يستفيدُ منها قارئُها تمامَ الفائدة إلا إذا قرأها في أناةٍ وتدبُّرٍ تام ، جملةً جملة ، كالذي يكرِّرُ الشيء ويتأنّى به ليحفظه ويستظهره ويتدبّره .

هذه الرسالة كانت « مخطوطة » عندي ، تيسّرَ لي اقتناؤها من سنوات بعيدة ، فلما قرأتُها من قريب رأيتُها حاويةً جامعة ، وافيةً بإرشاد السالكِ للخيرِ والباحثِ عنه . فألزمتُ نفسي نشرَها ، وإخراجَها للناس ، إشاعةً للنفع بها والاستفادةِ من إخلاص مؤلِّفِها وصلاحه ، وبالغِ ورَعه وعلمه ، وصِدقِ تذكيره بالله تعالى ، رحمه الله تعالى ورضي عنه .

والمخطوطةُ التي عندي منها واضحةُ الخطّ ، بيِّنةُ الكلمات ، يندُرُ فيها الغلطُ جداً ، وعليها آثارُ المقابلة والتصحيح في غير موطن ، تبلغ صفحاتها ٣٣ صفحة من القطع الصغير ، ولا تاريخ لكتابتها ، وقد كُتِبتْ في زمنٍ متأخر ، أقدّر أنها كُتِبت بعد الألف من الهجرة ، ولم يُذكرَ منها اسمُ كاتبها ، إلا أنه جاء في الصفحة الثالثة منها بخط منقوطٍ برأس القلم نُقَطاً صغيرةً متتابعة ، تألّف منها الجملةُ التالية : « كتبها أحمد ابن الحاج إسماعيل » .

وعلمتُ أنَّ في « معهد المخطوطات العربية » بالقاهرة نسخةً مخطوطة من هذه الرسالة ، مصوَّرة عن نسخة في مكتبة البلدية في الإسكندرية ورقمها فيها : (٣٠٢٤ / ١٣ . ج) ، فصوَّرتُها ، فاذا هي نسخةٌ مغربية الخط ، تقع في ١٤ صفحة من القطع الصغير الناعمِ الكلمات المتراصّة ، مضبوطةٌ بالشكل في كثير من كلماتها ، غير أنها كنسختي لا تاريخَ عليها لكتابتها ، ولا ذِكرَ لاسم كاتبها أيضاً ، وقد جاء في « فهرس المخطوطات المصوَّرة » لمعهد إحياء المخطوطات العربية ١ : ١٦٤ أنها « كتبت في القرن الثاني عشر » .

فقابلتُ بينها وبين نسختي بمعاونة ابن أخي الشابّ الناهض المجدّ النابه الأستاذ الشيخ عبد الستار أبو غدة ، أدام الله عليه توفيقه ، وزاده في العلم بسطة وقوة . واستفدتُ منها كثيراً في استكمال بعض الجُمَل وتصويبها ، وأشرتُ في بعض المواطن إلى المخالفات الواقعة بين النسختين في الحاشية ، وهذه النسخة عند الإشارة إليها أسمّيها : النسخة المغربية . كما أسمّي نسختي : الأصل . وإذا اتفقتا قلتُ : في الأصلين .

واستكمالاً للإفادة منها علّقتُ عليها ما يزيدها بياناً ونفعاً ، ووضوحاً وفهماً ، وعزوتُ الآيات الكريمة إلى سُوَرِها وموقعِها منها ، وخرَّجتُ الأحاديث الشريفة ، وترجمتُ للمؤلّف ترجمةً مستوفاة ، تُعرِّفُ بمكانة الإمام المحاسبي الذي غُمِط حقّه من التعريف عند طَبْع كتابيه : « التوهم » و « الرعاية » ، وقدَّمتُها بالإهداء إلى رُوح ابن أخي الشابّ النقي عبد الهادي أبو غدة الذي أدركه أجلُه في ريعان شبابه وما تمَّ له عشرون ربيعا .

اللهم عوّضْهُ من شبابِه في الجنة ، واختم لنا وله بالحسنى وزيادة ، وتقبّلْ عملي هذا ، واجعله خالصاً لوجهك ، محفوظاً عندك ، أنتفعُ به يومَ القدوم عليك ، ﴿يومَ لا ينفع مالٌ ولا بنون ، إلا من أتَى اللهَ بقلبٍ سليم﴾ .

حلب ١ / من جمادى الأولى سنة ١٣٨٤ وكتبه

عبد الفتاح أبو غدة

ترجمة المؤلف

هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المُحاسبي ، البصري المولد ، البغدادي المنزل والوفاة ، الإمام العارف الناطق بالحكمة ، عديمُ النظير في زمانه ورعاً وعلماً ومعاملةً وحالا ، أحدُ الزهاد المتكلّمين في العبادة والزهد والمواعظ . وعُرِف بالمُحاسبي لكثرة مُحاسبتِه لنفسه، ولم يُعرَف تاريخُ ولادته، وكانت وفاته ببغداد سنة ٢٤٣ رحمه الله تعالى .

رَوَى الحديث عن يزيد بن هارون وطبقته ، وأخَذَ عن الإمام الشافعي ، كما ذكره أبو منصور البغدادي في « أصول الدين » ص ٣٠٨ . ورَوَى عنه أبو العباس بن مسروق ، وأحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي ، والشيخ الإمام الجُنَيد ، وله معه حكايات مشهورة ، وإسماعيل بن إسحاق السرَّاج ، وأبو علي الحسين بن خيْرَان ، وأحمد بن القاسم بن نصر ، وأحمد بن عبد الله ابن ميمون وغيرُهم .

كان رحمه الله تعالى ناسكاً عابداً ، وصوفياً زاهداً ، وفقهياً ومتكلّماً ، وواعظاً مُبكياً ، ومحدِّثاً راوياً ، أوتي فصاحةَ لسان ، وبراعةَ بيان، ونصاعةَ جَنان ، حتى إذا حدَّثك عن الشيء ترغيباً أو ترهيباً جَعَلك كأنك تراه رأيَ العين ، وتُحسُّ به إحساسَ المباشِر له ، ولا يَنْفَصِمُ عنك حديثُه إلا

وقد أقنعك بالحُجّة ، وألبَسَك اليقينَ بما يقول، وما يقول أبو عبد الله إلا خيراً ونُصحاً .

تَشهدُه فيما يكتبُ مستوفياً الخطراتِ والخلجات ، وقائماً بالنّذارة قيامَ صدقٍ ويقينٍ ومشاهدة ، وكثيراً ما أبكاك فيما ناجاك ، يتبدّى لك إشفاقُه عليكَ من النارِ وأهوالِها ، فيما يُوليك من نُصحٍ ويُخلِصُك من موعظة . وربما يُطيل إليك النَّفَسَ في الإقناع بما يدعوك إلى فعله أو تركه ، إطالةَ الأب الرحيم الخائفِ الوجِل على ولده مِن شديدِ العذاب (١) .

ولقد كان أبو عبد الله — رحمه الله — يَستنفد كلَّ وقته في الخير ، إما تذكيراً ، وإما تأليفاً ، وإما عبادةً بين يدي الله عزّ وجل ، حتى لا يفوت نَفَسٌ من أنفاسه إلا وقد أدَّى وظيفته من الخير والطاعة التي يرجو ثوابها عند الله تعالى .

ولذلك كثُرَتْ تصانيفُه وكتبه ، نقل الشيخ تاج الدين ابن السُّبْكي في ترجمته في « طبقات الشافعية الكبرى » ٢ : ٣٧ عن بعضهم « أنها تبلغ مائتي مصنّف » . وأغلبُها في الزهد والسلوك والتصوف ، وكثيرٌ منها في أصول الدين والردّ على المعتزلة والرافضة والقدرية وغيرهم من المخالفين ، وبعضُها في الفقه والأحكام . وكتبُه — على كثرتها — كثيرة الفوائد جمّةُ المنافع ، وخاصّةً كتبه في علوم التصوفِ وتزكيةِ النفس والروح تُعدُّ أصولاً لكلّ من صنّف فيها بعده حتى الإمام أبي حامدٍ الغزالي رضي الله عنه .

قال شيخنا الإمام محمد زاهد الكوثري رحمه الله تعالى : لقد كان أثرُ الإمام المحاسبي على الإمام الغزالي كبيراً ، لقد تبطّنَ الغزاليُّ كتابَ « الرعاية » في كتابه : « الإحياء » .

---

(١) تجد مصداق هذا في كتابيه : « الرعاية » و « التوهم » ، فعليك بقراءتهما ليلين قلبك وتدمع عينك ، وتدرك من أحوال نفسك وآخرتك ما لم تكن تعلم .

وقال العلامة المُناوي في ترجمة المحاسبي في « الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية » ١ : ٢١٨ : « قال التميمي : هو إمام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث والكلام . وقال غيره : له المصنّفات النافعة الجمّة بحيث تبلغ نحو مائتي مؤلَّف ، وناهيك بكتابه : « الرعاية » ، وكتُبهُ في هذه العلوم أصولٌ لمن صنّف فيها . قال في « الإحياء » : المحاسبيُّ حَبْرُ الأمّة في علم المعاملة ، وله السّبْقُ على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأغوار العبادات ، وكلامُهُ جديرٌ بأن يُحكى على وجهه »[1]. وقال الحافظ ابن حجر في «نكته على ابن الصلاح» : «والمحاسبي من أئمة الحديث والكلام » .

وكان له في تدوين علمه وإنشاء تآليفه طريقةٌ غريبة ، حكاها الحافظ أبو نُعَيم في ترجمته في « الحلية » ١٠ : ٧٤ فقال : « قال الجُنَيد : كان الحارث المحاسبي يجيء إلى منزلنا ويقول : اخرُجْ معنا نُصْحِر — أي إلى الصحراء — فأقول له : تُخرجني من عُزْلتي وأمْني على نفسي إلى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات ؟! . فيقول : اخرُجْ معي ولا خوف عليك ، فأخرج معه فكأنّ الطريق فارغ من كل شيء ؟ لا نرى شيئاً نكرهه ، فاذا حصَلتُ في المكان الذي يَجلسُ فيه قال لي : سَلْني ، فأقول له : ما عندي سؤال أسألك ، فيقول لي : سَلْني عما يقع في نفسك ، فتنثال عليّ السؤالات فأسأله عنها ، فيجيبني عنها للوقت ، ثم يمضي إلى منزله فيَعْمَلُها كتباً » .

نهض الشيخ المحاسبي في تدوين أحوال النفس وتزكيتها وبيان عيوبها في وقت مبكّر : في ختام القرن الثاني وأوائل القرن الثالث للهجرة ، وكان هذا العهد يزخر بالاشتغال بالحديث روايةً وحفظاً وكتابةً وارتحالاً في طلبه وتحصيله . وكان لأولئك المحدثين والرواة نظرةٌ ناقدة حادّة ، لكلّ من تحوّل عن طريقتهم ، وسلك مسلكاً آخر في العلم ، فقيهاً كان أو مذكّراً أو متكلّماً .

---

(١) نقل كلام الإمام الغزالي وثناءه على المحاسبي : الشيخ ابن عباد النفزي في « شرح الحكم » لابن عطاء الله الإسكندري ، ص ٣٢ عند قوله : « أصل كل معصية وغفلة وشهوة : الرضا عن النفس » .

ولهذا لقي الشيخُ أبو عبد الله المحاسبي انتقاداً شديداً من معاصريه الرُواة والمحدثين ، الذين يَرَوْن العلمَ كلَّ العلم روايةَ الحديث سنداً ومتناً لا بحثاً وفقها ، ويَرون إعمالَ الرأي في فهم الأثر خروجاً عليه ، فاذا بَلَغهم عن عالِمٍ أنه تكلّم في مسئلة باحثاً مجتهداً ، أو متكلّم قال في صفة من صفات الله قولاً ، أو مذكِّرٍ تحدّث عن حال النفس كاشفاً منقبّاً : ثارَتْ لذلك حفيظتُهم ، ونقموا عليه ما صَنع . وقالوا فيه ما يرونه مُلاقياً للجارح الذي اتّصَف به في نظرهم (١) ، وفي كتب الجرح والتعديل وقائعُ غيرُ قليلة من هذا النمط (٢) .

ولذا قال الحافظ الذهبي في ترجمة المحاسبي في « ميزان الاعتدال » ١ : ١٩٩ — ٢٠٠ : « والمحاسبيُّ العارفُ صاحبُ التواليف: صدوقٌ في نفسه ، وقد نقموا عليه بعضَ تصوُّفه وتصانيفه » . انتهى.

فلا غرابة أن نجد الحافظ أبا زُرعةَ الرازيَّ رحمه الله تعالى ينتقدُ الشيخَ المحاسبيَّ وكتبَهُ وطريقتَهُ أشدَّ انتقاد ، تمشياً منه مع بيئته الحديثيّة التي يحياها وتموجُ مِن حولِهِ موجاً ، رَوَى الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » ٨ : ٢١٥ بسنده إلى سعيد بن عمرو البَرْذَعي قال : « شهدتُ أبا زُرْعة — وقد سُئِل عن الحارث المحاسبي وكتبه — فقال للسائل: إياك وهذه الكتب! هذه

---

(١) في « معجم الأدباء » لياقوت في ترجمة الإمام الشافعي رضي الله عنه ١٧ : ٢٩٩ « عن مصعب الزبيري قال : كان أبي والشافعي يتناشدان ، فأتى الشافعي على شعر هذيل حفظاً ، وقال : لا تعلم بهذا أحداً من أهل الحديث ، فانهم لايحتملون هذا ! » .

وقال التاج السبكي في « قاعدة في الجرح والتعديل » ص ٢٤ « ومما ينبغي تفقده عند الجرح : الخلاف الواقع بين كثير من الصوفية وأصحاب الحديث ، فقد أوجب كلام بعضهم في بعض ، كما تكلم بعضهم في حق الحارث المحاسبي وغيره ». أي وكلامَ من تكلم فيه مردود لأنه بباعث المنافرة الواقعة بين المحدثين والصوفية .

(٢) انظر شواهد ذلك وأمثلته في رسالتي : « مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين وكتب الجرح والتعديل » .

كتبُ بدعٍ وضلالات !! عليك بالأثر ، فانك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب .

قيل له : في هذه الكتب عبرة ، قال : من لم يكن له في كتاب الله عبرةٌ ، فليس له في هذه الكتب عبرة ، بلغكم أنّ مالك بن أنس ، وسفيان الثوريَّ ، والأوزاعي ، والأئمة المتقدّمين : صنّفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء ؟! هؤلاء قوم خالفوا أهلَ العلم — أي أهلَ الحديث — . يأتونا مرةً بالحارث المحاسبي ، ومرةً بعبد الرحيم الدَّيبُلي ، ومرةً بحاتمٍ الأصم ، ومرةً بشَقيق ! ثم قال : ما أسرَعَ الناسَ إلى البدع ؟! » . انتهى .

ويُعلّلُ الحافظ ابن رجب الحنبلي نَهْيَ أبي زرعة وأحمد وغيرهما عن مسلك الحارث المحاسبي تعليلاً آخر غير الذي أسلفتُه ، فيقول رحمه الله تعالى في كتابه : « جامع العلوم والحكم » ص ٢٢٣ عند حديث « استفت قلبك وإن أفتاك المفتون » : « وإنما ذمَّ أحمدُ وغيرُه المتكلّمين على الوساوس والخطرات من الصوفية ، حيث كان كلامُهم في ذلك لا يَستندُ إلى دليل شرعي ، بل إلى مجرَّد رأي وذوق ، كما كان يُنكِرُ الكلامَ في مسائل الحلال والحرام بمجرَّد الرأي من غير دليل شرعي » . انتهى .

وقال الحافظ ابن رجب في « المناقب » : ومن البدع التي أنكرها أحمد في القرآن : قولُ من قال : إن الله تكلم بغير صوت ، فأنكر هذا القولَ وبدَّع قائلَه . وقد قيل : إن الحارث المحاسبي إنما هجره أحمد لأجل ذلك . انتهى . قال أبو العباس ابن تيمية : وهذا سبَبُ تحذير أحمد من الحارث المحاسبي . فذكروا أن الحارث المحاسبي تاب من ذلك ، واشتهَر علماً وفضلاً ، وحقائقَ وزهداً » . انتهى من كتاب « شرح الكوكب المنير » في أصول الفقه الحنبلي ، لتقي الدين الفتوحي ، من ضميمته المتممة له ص ١٩٦ .

قال عبد الفتاح : وهذا يفيد أن انتقاد الإمام أحمد للمحاسبي ، إنما كان بسبب دخوله في مسائل من (علم الكلام) فحسب ، ويشهد لذلك ويعززه

ما قاله الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى في « تاريخ بغداد » ٨ : ٢١٤ : « وكان أحمد بن حنبل يكره للحارث نظرَهُ في (الكلام) وتصانيفَه الكتبَ فيه ، ويَصُدُّ الناسَ عنه » .

وما قاله الشيخ تاج الدين ابن السبكي رحمه الله تعالى في « طبقات الشافعية » ٢ : ٣٩ : « اعلم أن الإمام أحمد رضي الله عنه كان شديدَ النكير على من يتكلم في علم الكلام ، خوفاً أن يَجُرَّ ذلك إلى ما لا ينبغي ، ولا شك أن السكوت عنه ما لم تَدْعُ إليه الحاجةُ أولى . والكلامُ فيه عند فَقْدِ الحاجة بدعة [1] ، وكان الحارث المحاسبي قد تكلّم في شيء من مسائل الكلام . قال أبو القاسم النصر آبادي : بلغني أن أحمد بن حنبل هجره بهذا السبب » .

قلتُ : وهذا قد يقع بين العلماء في كلّ عصرٍ ومصر ، اجتهاداً منهم في تصحيح ما يراه أحدُهم خطأً مِن صاحبه ، وله بذلك أجر أو أجران . أما ما رواه الخطيب وغيره من أنّ الحارث المحاسبي تكلم في شيء من علم الكلام فهجره الإمام أحمد بسببه ، فاختفى الحارث — لتعصُّب العامّة للإمام أحمد — في دارٍ ببغداد ومات فيها ، ولم يُصَلِّ عليه إلا أربعةُ نفرٍ : فمستبعَدٌ ثبوتُه وصِحّتُه ، وقد أشار إلى ذلك الحافظُ الذهبي في « الميزان » ١ : ١٩٩ فقال : « هذه حكايةٌ منقطعة » .

على أنَّ التاج ابن السبكي قد قال كلمةً من أطيب الكلمات وأعدلِها حين تعرَّض لما قيل فيما جرَى بين الإمام المحاسبي والإمام أحمد ، حتى لقد جَعَلَها الإمامُ عبد الحي اللكنوي قاعدةً من قواعد الجرح والتعديل ، وخَتَمَ بها كتابه : « الرفع والتكميل في الجرح والتعديل » .

---

(١) قال المناوي في « فيض القدير » ٤ : ٤٣١ : « قال ابن عربي : علم الكلام مع شرفه لا يحتاج إليه أكثر الناس ، بل رجل واحد يكفي منه في البلد ، بخلاف العلماء بفروع الدين فان الناس يحتاجون إلى الكثرة من علماء الشريعة ، ولو مات الإنسان وهو لا يعلم اصطلاح القائلين بعلم النظر كالجوهر والعرض والجسم والجسماني والروح والروحاني : لم يسأله الله عن ذلك ، فانما يسأل الناس عما وجب عليهم من التكليف بالفروع ونحوها ».

وتلك الكلمةُ قولُه رحمه الله تعالى في كتابه « طبقات الشافعية » ٢ : ٣٩ في ترجمة (المحاسبي) بعد أن ذكر التنافر بين أحمد والمحاسبي : « ينبغي لك أيها المسترشد أن تَسلك سبيلَ الأدب مع الأئمة الماضين ، وأن لا تَنْظُرَ إلى كلام بعضِهم في بعض ، إلا إذا أتى ببرهان واضح ، ثم إنْ قدرتَ على التأويل وتحسين الظنّ فدُونَك ، وإلاّ فاضربْ صفحاً عمّا جرى بينهم ، فانك لم تُخلَق لهذا ، فاشتغِلْ بما يَعنيك ودَعْ ما لا يَعنيك . ولا يزال طالبُ العلم عندي نبيلاً حتى يخوضَ فيما جرى بين السلف الماضين ، ويقضيَ لبعضهم على بعض .

فإياك ثم إياك أن تصغي إلى ما اتَّفق بين أبي حنيفة وسفيان الثوري ، أو بين مالك وابن أبي ذئب ، أو بين أحمد بن صالح والنّسائي ، أو بين أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي ، وهلمّ جرّاً إلى زمان الشيخ عز الدين ابن عبد السلام والشيخ تقي الدين ابن الصلاح ، فانك إن اشتغلتَ بذلك خشيتُ عليك الهلاك ، فالقومُ أئمةٌ أعلام ، ولأقوالهم مَحامِلُ ربما لم يُفهم بعضُها ، فليس لنا إلا الترضي عنهم والسكوتُ عما جرى بينهم ، كما يُفعلُ فيما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم » . انتهى .

وروى الخطيب أيضاً ٨ : ٢١٤ بسنده إلى إسماعيل بن إسحاق السرّاج قال : « قال لي أحمد بن حنبل يوماً : يبلغني أن الحارث — يعني المحاسبي — يُكثر الكونَ عندك ، فلو أحضرته منزلك ، وأجلستني من حيث لا يراني فأسمع كلامه ؟ فقلتُ : السمعُ والطاعة لك يا أبا عبد الله ، وسرّني هذا الابتداءُ من أبي عبد الله ، فقصدتُ الحارث وسألته أن يحضرنا تلك الليلة ، فقلتُ : وتسألُ أصحابك أن يحضروا معك ، فقال : يا إسماعيل فيهم كثرة ، فلا تَزدهم على الكُسْب — عُصارةِ الدُّهن — والتمر ، وأكثِر منهما ما استطعت ، ففعلتُ ما أمرَني به .

وانصرفتُ إلى أبي عبد الله فأخبرته ، فحضر بعد المغرب ، وصَعِدَ

غرفة في الدار ، فاجتهد في وِرْدِه إلى أن فرغ ، وحَضَر الحارثُ وأصحابُه فأكلوا ، ثم قاموا لصلاة العتمة — العشاء — ولم يصلوا بعدها ، وقعدوا بين يدي الحارث وهم سكوتٌ لا ينطق واحد منهم إلى قريبٍ من نصف الليل ، فابتدأ واحدٌ منهم وسأل الحارثَ عن مسئلة ، فأخذَ في الكلام ، وأصحابُهُ يستمعون كأنَّ على رؤوسهم الطير ، فمنهم من يبكي ، ومنهم من يزعق ، وهو في كلامه .

فصعدتُ الغرفة لأتعرَّف حالَ أبي عبد الله — أحمد بن حنبل — فوجدتُه قد بكى حتى غُشِيَ عليه ، فانصرفتُ إليهم ولم تزل تلك حالهم حتى أصبحوا ، فقاموا وتفرقوا ، فصعدت إلى أبي عبد الله وهو متغيِّرُ الحال ، فقلتُ : كيف رأيتَ هؤلاء يا أبا عبد الله ؟ فقال : ما أعلمُ أني رأيتُ مثلَ هؤلاء القوم ، ولا سمعتُ في علم الحقائق مثلَ كلام هذا الرجل ، وعلى ما وقفتُ من أحوالهم فإني لا أرى لك صحبتَهم ، ثم قام وخرج » . انتهى .

قال الشيخ تاج الدين ابن السبكي في « طبقات الشافعية » ٢ : ٤٠ والحافظ ابن حجر في « تهذيب التهذيب » ٢ : ١٣٦ : « إنما نهاه أحمد عن صحبتهم لعلمه بقصوره عن مقامهم ، فانهم في مقامٍ ضيق لا يسلكه كل أحد ، ويُخاف على من يسلكه أن لا يوفيه حقّه » . كذا قالا ، وقد تابَعَ ثانيهما الأوَّل .

ونقَلَ الإمام ابن مفلح الحنبلي في كتابه « الفروع » ٥ : ٣١٣ الجملة الأخيرة من هذا الخبر : (ما أعلمُ أني رأيتُ مثلَهم ...) ثم أتبعها ابنُ مفلح بقوله : « وقد نَهى أحمد عن كتابةِ كلام منصور بن عمار ، والاستماعِ للقاصِّ به ، قال أبو الحُسَين : لئلا يلهو أي يُشغَل به عن الكتاب والسنة » .

ويقول الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » في ترجمة الإمام أحمد ١٠ : ٣٣٠ بعد أن ذكر هذه الحكاية : « قال البيهقي : يُحتمل أن أحمد كره له صحبتهم لأن الحارث بن أسد وإن كان زاهداً فانه كان عنده شيء

من علم الكلام ، وكان أحمد يكره ذلك . أو كرِهَ صحبتَهم من أجل أنه لا يطيق سلوك طريقتهم وما هم عليه من الزهد والورع .

قلت — القائلُ ابنُ كثير — : بل إنما كرِهَ ذلك لأن في كلامهم من التقشفِ وشدةِ السلوك التي لم يَرِد بها الشرع ، والتدقيقِ والمحاسبةِ الدقيقة البليغة : ما لم يأت بها أمر . ولهذا لمّا وقف أبو زرعة الرازي على كتاب الحارث المسمى بـ « الرعاية » قال : هذا بدعة . ثم قال للرجل الذي جاء بالكتاب : عليك بما كان عليه مالك والثوري والأوزاعي والليث ، ودَعْ عنك هذا فانه بدعة » انتهى .

قال عبد الفتاح : والذي أراه أنّ الإمام أحمد رحمه الله تعالى إنما نهاه عن صحبتهم — مع أنه رآهم على خير — لأنه يَرى سُلوكَ طريقته التي هو عليها وأصحابُهُ أمثَلَ خيراً وأوفى هداية وحقّاً .

هذا على فَرْضِ صحة هذه الحكاية ووقوعها ، إذ قد جاء فيها ما يُدغدغُ النفسَ شكاً في حُدوثها ، ولهذا قال الحافظُ الذهبي رحمةُ الله عليه في « الميزان » بعد أن أوردها : « وهذه حكاية صحيحة السَّند ، منكرةٌ ، لا تقَعُ على قلبي ، أستبعِدُ وقوعَ هذا مِن مثلِ أحمد » .

وقد تبيّن لك من كلام الذين أسلفتُ كلامَهم ، وهم الأئمة ابن تيمية وابن رجب والخطيب البغدادي والتاج السبكي وابن كثير : أن نقد الإمام أحمد للمحاسبي إنما كان — على الصحيح من أجل تكلُّمه في مسائل من (علم الكلام) فقط ، وأما مسلكُه العِباديُّ فلا شيء فيه ، بل قد أثنى عليه فيه الشيخ ابن تيمية وغيره من الأئمة رحمهم الله تعالى .

وعلى كل حالٍ صحّت الحكايةُ أو لم تصحّ : إنها تُصوِّرُ الروح التي تَسُودُ نفوسَ أئمة ذلك العصر على من سَلَكَ مَسْلَكَ المحاسبي رحمه الله تعالى وإيانا .

نعَمْ هناك أمرٌ آخرُ انْتُقِد على أبي عبد الله المحاسبي رحمه الله تعالى ، مكَّن فيه ناقديه مِن نفسِه ، وهو إيرادُه الأحاديث الضعيفة وبعض الموضوعة في كتبه وتصانيفه ، واعتمادُهُ عليها وجعلُها (أصولاً) يَبْني على ما تضمّنته المعاني والأحكام .

وهذا الشيخ الإمام أبو بكر بن العربي مع إجلاله له ، واعتزازه به ، وثنائه عليه أطيبَ الثناء : ما وسعه إلا أن يَنْقُدَ منه هذه الناحية حيث قال في كتابه : « عارضة الأحوذي شرح سنن الترمذي » ٥ : ٢٠١ عند شرح حديث « الحلالُ بيّن ، والحرامُ بيّن ... » :

« وأجَلُّ من تكلّم فيه عالِمُنا وكبيرُنا : الحارثُ بن أسد . فمن الأصول التي زَعَم : قولُ عطية السّعدي عن النبي ﷺ : « لا يَبْلُغُ العبدُ أن يكون من المتقين حتى يَترُكَ ما لا بأسَ به مخافةَ ما به بأس » [1] ، ونحوُ هذا من الأخبار ، وأطال القولَ في ذلك ، وأفاد فيما أعاد ، وجدّد فيما (أورد) ، لولا تعلّقُهُ بأحاديث ضعاف وبناؤه الأصول عليها . فان وقَفَ عليها علماءُ الحديث سَخِروا من ذلك وهزئوا به ، مع أنه لقي أحبارَ الدنيا في الحديث كابن أبي شيبة وغيره .

والذي عندي في ذلك — والله أعلم — ما رويناه عن أحمد بن حنبل : يَستجيز لِينَ الحديث في أمر الوَرَع . ورضي الله عن البخاري الذي لم يَرَ أن يتعلّق القلبُ ولم يَرتبط الدينُ إلا بالصحيح ، وبه نقول . ولو مِلْنا إلى مذهب أحمد فلا يكون التعلّق بليّن الحديث إلا في المواعظ التي تُرقّقُ القلوب ، فأمّا في الأصول فلا سبيلَ إلى ذلك » . انتهى ملخصاً مصحّحاً ما وقع فيه من تحريفات .

وهذا المأخذُ قائمٌ على أبي عبد الله في كتبه لا يُمكنُ التفصّي منه ،

---

(١) أخرجه الترمذي في « سننه » ٥ : ٢٧٨ وقال : « حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه » .

فان هذه الرسالة « رسالة المسترشدين » على صغرها : جاء فيها طائفةٌ من الحديث الضعيف ، وبعضُ الحديث الموضوع كما ستقف عليه في تخريجها .

وقد سترى تساهُلَه هذا إلى الشيخ أبي طالب المكي في « قوت القلوب » ، وإلى الإمام أبي حامد الغزالي في « الإحياء » ، وإلى سواهما ممن ألّف في التصوف وأحوال النفس .

وأما ما يورده من (الإسرائيليات) فأغلَبُهُ مما لم نُؤمَر بتصديقه ولا بتكذيبه ، وتجوزُ حكايتُه للعبرة والاتّعاظ به .

هذا ، وللشيخ أبي عبد الله المحاسبي رحمه الله تعالى نَهْجٌ حسنٌ طيّب ، وهو أن تصوُّفَه الذي دوّنه في كتبه راعَى فيه ما جاء في الكتاب والسُّنّة وأقوالِ الصحابة وأعمالِهم بحسب علمه وفهمه ، وما نجدُ في كتبه — فيما وقفتُ عليه — شطحاتٍ أو شيئاً من التصوُّفِ الفلسفي ، إنما يقومُ تصوُّفُه رحمه الله تعالى على الدعوة إلى تصحيحِ العلمِ والعَمَل ، ومراقبةِ الله تعالى ، وتزكيةِ النفس وتطهيرها من الأدران ، وتقريبها من رضوان الله عزَّ وجلّ ، وبتعبير آخر : لم أرَ المحاسبيَّ يكتب أو يتحدَّث إلا فيما تحته عمل [1] . وهذا منهجٌ شرعيٌّ شريف ، يُشكر عليه ويُثابُ به إن شاء الله تعالى .

أما بيانُ أبي عبد الله المحاسبي فهو من الطراز الأول فصاحةً وسلاسة ، وجمالَ أداء وحُسنَ استيفاء ، له قلمٌ سيّال وبيانٌ أخّاذ ، ولغةٌ ناضرة في الذروة من الفصاحة والإشراق ، وله في كتابه هذا وفي كتابيه : « التوهم » و«الرعاية» جُمَلٌ وقِطَعٌ من الكلام ما يُشبِعُ من تَرْدادِها وسَمَاعِها ، لما حوَتْ من دِقّةِ التصوير وجزالةِ اللفظ ،وأخْذِ القلبِ بمعناها والسَّمْعِ بمبناها.

---

(١) قال الإمام مالك رضي الله عنه : « الكلام في الدين — يقصد علم الكلام وما إليه — كله أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهون القدر ورأي جهم وكل ما أشبهه ، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل ، فأما الكلام في الله فأحب إلي السكوت عن هذه الأشياء ، لأن أهل بلدنا ينهون عن الكلام إلا فيما تحته عمل » . نقله القاضي عياض في « ترتيب المدارك » ٣ : ١٧١ من طبعة المغرب .

ولا غرابة في ذلك فقد كان أبو عبد الله في العصر الذهبي ، عاصَرَ الجاحظ وطبقَتَه مِن فصحاء العربية وأدبَائِها ، كما عاصَرَ معروفاً الكرخي والسَّرِيَّ السَّقَطيَّ وبشراً الحافي من زُهاد الأمّة وصُلَحائِها ، فلا بِدْعَ أن يكون صاحبَ قلمٍ وبَيَان ، ورُوحٍ وجَنَان ، رحمة الله عليه .

طَرَفٌ من أحواله وأقواله :

من أحواله :

١ – حكى ابن ظَفَر المغربي في كتابه « أنباء نجباء الأبناء » ص ١٤٨ أن الحارث المحاسبي – وهو صبي – مَرَّ بصبيان يلعبون على باب رجل تَمَّار ، فوقف الحارث ينظر إلى لعبهم ، وخرج صاحب الدار ومعه تَمَرَات ، فقال للحارث : كُلْ هذه التمرات ، قال الحارث : ما خبرُك فيها ؟ قال : إني بعت الساعة تمراً من رجل فسقطَتْ من تَمْرِه ، فقال : أتعرفه ؟ قال : نعم ، فالتفَتَ الحارث إلى الصبيان الذين يلعبون وقال : أهذا الشيخ مسلم ؟ قالوا نعم ، فمَرَّ وتركه .

فتَبِعَه التمّار حتى قبَضَ عليه ، فقال : والله ما تَنْفَلِتُ من يدي حتى تقول لي ما في نفسك مني ، فقال : يا شيخ إن كنتَ مسلماً فاطلُبْ صاحبَ التمرات حتى تتخلّص من تِباعَتِه ، كما تطلُبُ الماءَ إذا كنتَ عطشاناً شديدا العطش . يا شيخ تُطعم أولادَ المسلمين السُّحتَ – أي الحرام – وأنت مسلم ؟! فقال الشيخ : واللهِ لا اتّجرتُ للدنيا أبداً » .

٢ – قال القُشيري في « الرسالة » ص ١٥ وابنُ خلّكان في « الوفيَات » ١ : ١٢٦ وابن حجر في « تهذيب التهذيب » ٢ : ١٣٥ وغيرهم : قال الجُنَيد : مات أبو الحارث المحاسبي يوم مات ، وإن الحارث لمحتاج إلى دانِقٍ فضّة . وخلّف أبوه سبعين ألفَ درهم ، فلم يأخذ منها شيئاً ، ولا

حَبّةً واحدة ، لأن أباه كان يقول بالقَدَر ، فرأى من الورع أن لا يأخذ من ميراثه شيئاً .

٣ ـــ حكى كلٌ من الحافظ أبي نعيم والخطيب البغدادي والشيخ القشيري والتاج ابن السبكي وغيرُهم أن الشيخ الجُنَيد وهو تلميذُ الحارث المحاسبي قال : « كان الحارثُ كثيرَ الضُّر ـــ سيّءَ الحال شديدَ الفقر ـــ واجتازَ بي يوماً وأنا جالسٌ على بابنا ، فرأيتُ على وجهه زيادة الضُّرّ من الجوع ! فقلتُ له : يا عمّ لو دخلتَ إلينا نِلت من شيء عندنا ؟ قال : أوَتفعل ؟ قلت : نعم وتَسرُّني بذلك وتبرُّني .

فدخلتُ بين يديه ودخل معي ، وعَمَدتُ إلى بيتِ عمي سريعاً ـــ وكان أوسع من بيتنا ، لا يخلو من أطعمة فاخرة ، لا يكون مثلُها في بيتنا ـــ فجئت بأنواعٍ كثيرة من الطعام ، فوضعتُه بين يديه ، فمدَّ يدهُ وأخذَ لقمة فرفَعَها إلى فيه ، فرأيتُه يلوكها ولا يَزدَرِدُها ـــ أي لا يستطيعُ بَلْعَها ـــ فوثب وخرجَ وما كلّمني !

فلما كان من الغد لقيتُه فقلتُ : يا عمّ سررتني ثم نَغَصْتَ عليَّ ! قال : يا بُنَيّ أمَّا الفاقةُ فكانت شديدة ، وقد اجتهدتُ في أن أنال من الطعام الذي قدَّمته إلي ، ولكن بيني وبين الله علامة : إذا لم يكن الطعام مَرْضيّاً ـــ بأن كان فيه شبهة ـــ ارتفع إلى أنفي منه زفرةٌ فلم تقبله نفسي ، فقد رميتُ تلك اللقمة في دهليزكم وخرجْتُ ! » .

زاد القشيري : « ثم قلتُ له : تدخل اليوم ؟ فقال : نعَم ، فقدَّمتُ إليه كِسَراً يابسة كانت لنا ، فأكل وقال : « إذا قدَّمت إلى فقيرٍ شيئاً فقدّم إليه مثلَ هذا » .

٤ ـــ حكى الشَّعراني في « الطبقات الكبرى » ١ : ٦٤ والمُناوي في « الكواكب الدُّريّة » ١ : ٢١٩ عن الحارث المحاسبي نفسِه قال : « عَمِلتُ كتاباً في (المعرفة) ، وأعجبتُ به ، فبينا أنا ذات يومٍ أنظر فيه مستحسِناً له ، إذ

دخل عليَّ شابٌ عليه ثيابٌ رَثّة ، وسلّم عليَّ وقال : يا أبا عبد الله هل المعرفةُ حقٌ للحقِّ على الخلْقِ ؟ أو حقٌ للخَلْقِ على الحقِّ ؟ فقلتُ له : حقٌ للحق على الخلق . فقال : هو أولى أن يكشفها لمستحقها ! قلتُ : بل حق للخلق على الحق . قال : هو أعدل من أن يظلمهم ! ثم سلّم عليَّ وخرج . قال الحارث : فأخذتُ الكتاب وغسلتُه . وقلتُ : لا أتكلمُ في (المعرفة) بعدها أبداً » (١) .

٥ ــ ذكر أبو نصر السرَّاج الطوسي في كتابه : « اللُّمَع » ص ٤٩٥ : دخل أبو حمزة الصوفي دارَ الحارث المحاسبي . وكان للحارث دار حسنة وثياب نظاف ، وفي داره شاةٌ مُرْغية . فصاحت الشاة مُرغية ، فَشَهَق أبو حمزة شهقةً وقال : لبَّيك يا سيدي ! فغضب الحارثُ وعَمَد إلى سكّين . فقال : إن لم تَتُبْ من هذا الذي أنت فيه أذبحك .

٦ ــ حكى الأستاذ أبو القاسم القُشَيري رحمه الله تعالى في ترجمة المحاسبي في « الرسالة » ص ١٥ : « قال الأستاذ أبو عبد الله بن خفيف : اقتدوا بخمسة من شيوخنا . والباقون سلّموا إليهم أحوالَهم : الحارث بن أسد المحاسبي ، والجُنَيد بن محمد . وأبو محمد رُوَيم . وأبو العباس بن عطاء ، وعَمْرو ابن عثمان المكي . لأنهم جمَعوا بين العلم والحقائق » .

٧ ــ روى الخطيب في « تاريخ بغداد » ٨ : ٢١٥ وابن السبكي في « طبقات الشافعية » : ٢ : ٣٨ « عن الحسين بن إسماعيل المحاملي القاضي ، قال : قال أبو بكر بن هارون المجدِّر : سمعتُ جعفر بن أخي أبي ثور يقول : حضرتُ وفاةَ الحارث المحاسبي . فقال : إن رأيتُ ما أُحبُّ تبسّمتُ إليكم ، وإن رأيتُ غيرَ ذلك تبيّنتم في وجهي . قال : فتبسّمَ ثم مات » . رحمه الله تعالى وأكرم مُقامَه .

---

(١) والظاهر أن هذا الكتاب قد نسخت منه نسخ قبل أن يتلف الشيخ نسخته منه ، فقد عده المترجمون له في جملة مؤلفاته ، وجاء في ترجمة بعض شيوخ محي الدين ابن العربي أنه قرأه ، كما ذكر ذلك الشيخ ابن العربي في كتابه « روح القدس في محاسبة النفس » المطبوع بدمشق سنة ١٣٨٤ ص ٧٢ . ويعرف كتاب المحاسبي هذا بـ (كتاب المعرفة) و بـ (كتاب شرح المعرفة) .

من أقواله :

١ ـ لكل شيءٍ جوهر ، وجوهرُ الإنسانُ عقلُه ، وجوهرُ العقل التوفيق . وفي لفظٍ آخر : وجوهَرُ العقل : الصبر .

٢ ـ خيارُ هذه الأمّة الذين لا تَشْغلُهم آخرتُهم عن دنياهم ، ولا دنياهم عن آخرتهم .

٣ ـ حُسْنُ الخُلُق : احتمالُ الأذى ، وقلّةُ الغضب ، وبَسْطُ الوجه ، وطيبُ الكلام .

٤ ـ من لم يشكر الله تعالى على النعمة ، فقد استَدعى زوالَها .

٥ ـ كلُّ زاهدٍ زُهْده على قدر معرفته ، ومعرفتُهُ على قدر عقله ، وعقلُه على قدر قوة إيمانه .

٦ ـ الظالم نادم وإن مدحه الناس ، والمظلوم سالم وإن ذمّه الناس ، والقانع غني وإن جاع ، والحريص فقير وإن مَلَك .

٧ ـ من صحّحَ باطنه بالمراقبة والإخلاص ، زيّنَ الله ظاهرَهُ بالمجاهدة واتّباع السُّنّة .

٨ ـ لا يَصْلُح عبدٌ إلا أصلح الله بصلاحه سواه ، ولا يَفسُدُ عبدٌ إلا أفسد الله بفساده غيرَه .

٩ ـ صفة العبودية أن لا ترى لنفسك مُلْكا ، وتعلم أنك لا تملك لنفسك ضراً ولا نفعاً .

١٠ ـ الإخلاصُ إخراجُ الخلق من معاملة الله تعالى ، والنَّفْسُ أوّلُ الخَلْق .

١١ ـ من اجتهد في باطنه ورّثَه اللهُ حسنَ معاملة ظاهره ، ومن حسّنَ معاملته في ظاهره مع جهد باطنه ورّثه الله الهداية إليه ، لقوله تعالى : ﴿والذين جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهمْ سُبُلَنا وإنّ الله لمَعَ المحسنين ﴾.

مؤلفاته :

للإمام المحاسبي مؤلفات كثيرة كما سبقت الإشارة إليها في ص ١٧ و ١٨ ، والذي عُرف اسمُه أو وجودُه منها حتى الآن ما يلي :

١ — الرعاية لحقوق الله عز وجل . طبع في أوربا ثم بمصر دون تاريخ .

٢ — التوهم . طبع بمصر سنة ١٣٥٧ ، ثم بحلب من نحو سنتين .

٣ — رسالة المسترشدين . وهي التي بين يديك تطبع للمرة الثانية . وقد ترجمها عن طبعتي الأولى إلى اللغة التركية الأستاذ علي أرسلان الواعظ العام في دائرة الإفتاء في إصطانبول ، وطُبعت هناك من سنوات قريبة .

٤ — رسالة الوصايا .

٥ — آداب النفوس .

٦ — شرح المعرفة .

٧ — بدء من أناب إلى الله تعالى .

٨ — المسائل في الزهد وغيره .

٩ — المسائل في أعمال القلوب والجوارح .

١٠ — المكاسب والورع والشبهة وبيان مباحها ومحظورها ، واختلاف الناس في طلبها ، والرد على الغالطين فيها .

١١ — ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه .

وهذه الثمانية طبعت بالقاهرة حديثاً سنة ١٩٦٩ م وما قبلها بقليل .

١٢ — البعث والنشور .

١٣ — كتاب في الدماء .

١٤ — كتاب في التفكر والاعتبار .

١٥ — رسالة المراقبة .

١٦ — التنبيه على أعمال القلوب في الدلالة على وحدانية الله .

١٧ — كتاب العظمة .

١٨ — القصد والرجوع إلى الله تعالى .

١٩ — كتاب النصائح .

٢٠ — مختصر كتاب فهم الصلاة .

٢١ — كتاب الرضا . ذكره المحاسبي في « المسائل في أعمال القلوب » ص١٤٧.

٢٢ — فهم القرآن . نقل منه الشيخ ابن تيمية كما في « مجموع الفتاوى » له ٥ : ٥٥٧ .

٢٣ — فهم السُّنَن . نقل منه السيوطي في « الإتقان » في النوع الثامن عشر .

* * *

رحم الله المحاسبي وغفَر له وأكرمه برضوانه الكريم

رسالة المسترشدين

للحارث المحاسبي

أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري

توفي ببغداد سنة ٢٤٣ هـ

رحمه الله تعالى

حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه

عبد الفتاح أبو غدة

الطبعة الثانية مزيدة من التحقيق والتعليق

الناشر

مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب

باب الحديد - مكتبة النهضة - ت ٣٥٢٩١

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع

حلب - ص ب ١٨٩٣ - هاتف ١٧٧٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الأوّلِ القديم ، الواحدِ الجليل ، الذي ليس له شَبيهٌ ولا نظير ، أَحمَدُه حمداً يُوافي نِعَمه ويَبلُغ مَدَى نَعْمائه [1] .

وأَشهدُ : أَن لا إله إلاَّ الله ، وحده لا شريك له ، شهادةَ عالمٍ بربُوبيتِهِ ، عارفٍ بوَحدَانيتهِ . وأَشهد : أَنَّ محمداً عبدُه ورسولُه ، اصطفاهُ لوحْيِهِ وخَتَمَ به أَنْبيَاءَهُ ، وجَعَلهُ حُجَّةً عَلَى جميعِ خلْقِهِ ، ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عن بَيِّنَةٍ ﴾ [2] .

وأَنَّ الله عَزَّ وجلَّ اجتَبَى مِن عباده المؤمنين : ذوي

(١) أي نعمته .

(٢) من سورة الأنفال : ٤٢ .

الأَلباب العالمينَ به وبـأَمرِهِ ، فوصفَهَم بالوفاء والأَخلاقِ الفاضلة والخوفِ والخشية ، فقال عزَّ وعَلا : ﴿ إنّما يَتَذكَّرُ أُولوا الأَلباب . الذين يُوفون بعهدِ الله ولا يَنْقُضُون الميثَاق . والذين يَصِلون ما أَمَر اللهُ به أن يُوصَل ويَخْشَون ربَّهم ويخافون سُوءَ الحساب ﴾ (١) .

فمن شَرَح اللهُ صَدْرَه ، ووَصلَ التصديقُ إلى قلبه ، وَرغِبَ في الوسيلة إليه : لَزِمَ منهاجَ ذوي الأَلباب برعاية حُدودِ الشريعة من كتابِ الله تعالى ، وسُنَّةِ نبيِّهِ عليه الصلاة والسلام ، وما اجتَمع عليه المهتدون من الأَئمة . وهذا هو الصراطُ المستقيم الذي دعا إليه عبادَهُ فقال جلَّ وعزَّ : ﴿وأَنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبِعوه ، ولا تَتَّبِعوا السُّبُلَ فتفَرَّقَ بكم عن سَبيلهِ ذلكم وصَّاكم به لعلَّكم تَتَّقون ﴾ (٢) .

---

(١) من سورة الرعد : ١٩ و ٢٠ و ٢١ . ووقع في الأصلين : (وما يذكر إلا أولوا الألباب ...) . وهو سهو من الناسخ .

(٢) من سورة الأنعام : ١٥٣ .

وقال رسول الله ﷺ : « عليكم بِسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِن بعدي ، عَضُّوا عليها بالنواجذ »⁽¹⁾ .

---

(١) هو جزء من حديث العِرْباض بن سارية السُّلَمي رضي الله عنه ، رواه الإمام أحمد ٤ : ١٢٦ و ١٢٧ ، وأبو داود ٤ : ٢٠١ ، والترمذي ١٠ : ١٤٣ وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه ١ : ١٥ ، وهو الحديث الثامن والعشرون من « الأربعين النووية » .

وهذا نصُّ الحديث بتمامه تنويراً للمقام ، من رواية الإمام أحمد وتلميذه الإمام أبي داود عنه :

قال العِرباضُ بن سارية رضي الله عنه : صلَّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبحَ ذاتَ يوم ، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظةً بليغةً ذَرَفَتْ منها العيون ، ووَجِلَتْ منها القلوب . فقال قائل : يا رسول الله كأنَّ هذه موعظة مودِّع فماذا تعهَدُ إلينا ؟

فقال : « أُوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعةِ وإنْ عبداً حَبَشيّاً — أي وإن كان الأميرُ عبداً حبشيا —. وإنه من يَعِشْ منكم بعدي فسيَرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين ، فتمسَّكوا بها ، وعَضُّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومُحْدَثاتِ الأمور ، فانَّ كل مُحدَثةٍ بدعة ، وكلَّ بدعة ضلالة » .

والنواجذُ آخِرُ الأضراس . والأمرُ بالعَضّ على السُّنَّةِ بالنواجذ : كنايةٌ عن شدَّة التمسُّك بها والجدِّ في لزومها ، كفِعلِ من أمسك الشيءَ بنواجذه وعَضَّ عليه لئلا يُنزَع منه .

واعلم أنَّ فريضةَ كتابِ الله : العَمَلُ بحُكْمِهِ من الأمر والنهي ، والخوفُ والرجاءُ لوعدِه ووعيدِه ، والإيمانُ بمُتَشَابِهِهِ ، والاعتبارُ بقِصَصِهِ وأمْثَالِهِ . فَإِذَا أتيتَ بذلِكَ فَقَدْ خَرَجْتَ مِنْ ظُلُمَاتِ الجهلِ إلى نُورِ العِلْمِ ، ومِنْ عذَابِ الشَّك إلى رَوْحِ اليقِينِ (١) ، قال اللهُ جَلَّ ذكرُه : ﴿اللهُ وَلِيُّ الذينَ آمَنُوا ، يُخْرِجُهم مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ﴾ (٢) .

---

(١) الرَّوح بفتح الراء : الراحة .

(٢) من سورة البقرة : ٢٥٧ . وهذا الكلام من الإمام أبي عبد الله المحاسبي رحمه الله تعالى: يُفيدُ أنَّ أمرَ الاهتداء إلى الله تعالى وصلاحَ النفس وتزكيتَها لا يتوقّفُ على التزام (شيخ وبيعة) ، وإنما يتوقّفُ على التزام العلْمِ والعَمَلِ الذي أمَرَ الله به ، وتضمّنَهُ الكتابُ والسّنّة وسلوكُ سلف الأمّة .

فأيّ إنسانٍ مسترشد عَمِلَ بكتابِ الله وسنةِ رسوله وسيرة الخلفاءالراشدين والسلف الصالحين فقد سَلَكَ طريق الهُدَى ، وتوجّه إلى الله تعالى راشداً مهدياً ، إذ القرآنُ والسنّةُ في ذاتهما هاديانِ إلى الله تعالى،ومزكّيان للرُّوحَ والنّفْسِ أيّما تزكية . وقد جاءت بذلك الآياتَ والأحاديث الكثيرة .

فمن الآيات قولُهُ تعالى : ﴿ إنَّ هذا القرآنَ يهدي للتي هيأقومُ ويُبَشّرُ المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنَّ لهم أجراً كبيراً ﴾ ، وقولُه تعالى: ﴿ لو أنزلنا هذا القرآنَ على جبَلٍ لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله ﴾ ، وقولُهُ تعالى : ﴿ هو الذي بَعَثَ في الأميّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويُزَكّيهم ﴾. وتزكيةُ الرسول للناس قائمةمستمرة إلى الأبد : بأقواله وأفعاله. وأقوالُه وأفعالُه صلى =

. . . .

=الله عليه وسلم هي الهادية المعلِّمة من قبل ومن بعد، ولا تزال بحمدالله مُدوَّنة محفوظة .

ومن الأحاديث الشريفة قولُ الرسول صلى الله عليه وسلم الذي ذكره المؤلف : « عليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين من بعدي عَضّوا عليها بالنواجذ » ، وقولُه صلى الله عليه وسلم : « تركتُ فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسُنَّتي » . وقولُه صلى الله عليه وسلم : « فمن رَغِبَ عن سُنَّتي فليس مني » .

فقولُ بعضهم : « يخطىء من يظن أنه يستطيع بنفسه أن يعالج أمراضه القلبية بمجرد قراءة القرآن الكريم ، والاطلاع على أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولهذا لم يستطع أصحاب رسول الله أن يُطبِّبوا أنفسهم بمجرَّد قراءة القرآن ... » افتئاتٌ بَحْتٌ على الله ورسوله ، وتعطيلٌ وإلغاء لكلام الله وكلام رسوله ، نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر ومن الزلل بعد الهُدَى .

وقد كَتَبَ الإمام الفقيه الأصولي المحدِّث النظَّار أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي الغَرْناطي ، صاحبُ كتاب « الموافقات » و « الاعتصام » وغيرهما من الكتب النفيسة الباهرة ، المتوفى سنة ٧٩٠ ، من غَرْناطة قاعدةِ الأندلس ، إلى شيخ الصوفية في عصره أبي عبد الله محمد بن عباد النَّفْزي خطيب جامع القَرَوِيين في مدينة فاس . المتوفى سنة ٧٩٢ رحمهما الله تعالى .

كتَبَ إليه يسأله عن مسألة وقعَتْ في غَرْناطة ، واختَلَفتْ فيها أنظارُ العلماء ، وكَثُر فيها القيل والقال ، وهي : هل على السالك إلى الله تعالى أن يتخذ ـ لزاماً ـ شيخَ طريقةٍ وتربيةٍ يَسلك على يديه ؟ أم يسوغ له أن يكون سلوكه إلى الله تعالى من طريقِ التعلمِ والتَلقي من أهل العلم دون أن يكون له شيخُ طريقة ؟

فكتبَ إليه الشيخ ابن عباد رحمه الله تعالى كتابةَ العالم المنصف المخلص ، فقال له ما بخلاصته : كما في كتابه « الرسائل الصغرى » ص١٠٦ وما بعدها =

. . . .

=وص ١٢٥ وما بعدها « الشيخُ المرجوعُ إليه في السلوك ينقسم إلى قسمين : شيخُ تعليم وتربية ، وشيخُ تعليم بلا تربية .

فشيخُ التربية ليس بضروري لكل سالك ، وإنما يَحتاج إليه من فيه بلادةُ ذهن واستعصاءُ نَفْس . وأما من كان وافرَ العقل منقادَ النفس ، فليس بلازم في حقّه ، وتقيُّدُه به من بابِ الأولى . وأما شيخُ التعليم فهو لازم لكل سالك .

أما كونُ شيخ التربية لازماً لمن ذكرناه من السالكين فظاهر ، لأن حُجُبَ أنفسهم كثيفة جداً ، ولا يَستقل برفعها وإماطتها إلا الشيخ المربي ، وهم بمنزلة من به عِلَل مُزْمِنة ، وأدواء مُعضِلة من مَرَضِ الأبدان ، فإنهم لا محالة يحتاجون إلى طبيب ماهر يعالج عللهم بالأدوية القاهرة .

وأما عدَمُ لزوم الشيخ المربي لمن كان وافر العقل منقادَ النفس ، فلأن وفور عقله وانقياد نفسه يُغنيانه عنه ، فيستقيم له من العمل بما يلقيه إليه شيخُ التعليم ما لا يستقيم لغيره . وهو واصلٌ باذن الله تعالى ، ولا يُخافُ عليه ضررٌ يقع له في طريق السلوك إذا قصدَهُ من وجهه ، وأتاه من بابه .

واعتمادُ شيخ التربية هو طريق الأئمة المتأخرين من الصوفية ، واعتمادُ شيخ التعليم هو طريق الأوائل منهم . ويظهر هذا من كتب كثير من مصنِّفيهم ، كالحارث المحاسبي ، وأبي طالب المكي ، وغيرهما ، من قِبَلِ أنهم لم ينصوا على شيخ التربية في كتبهم على الوجه الذي ذكره أئمة المتأخرين ، مع أنهم ذكروا أصولَ علوم القوم وفروعَها ، وسوابقَها ولواحقَها ، لا سيما الشيخ أبو طالب ، فعَدَمُ ذكرهم له دليلٌ على عدم شرطيّته ولزومه في طريق السلوك.

وهذه هي الطريقة السابلة — أي المسلوكة — التي انتهجها أكثَرُ السالكين ، وهي أشبه بحال السَّلَفِ الأقدمين ، إذ لم يُنقَل عنهم أنهم اتخذوا شيوخ التربية ، وتقيّدوا بهم ، والتزموا معهم ما يلتزمه التلامذة مع الشيوخ المربين ، وإنما كان حالُهم اقتباسَ العلوم ، واستصلاحَ الأحوال بطريق الصحبة والمؤاخاة بعضِهم =

وإنَّما يُمَيِّزُ ذلك ويَرْغَبُ فيه أَهلُ العَقْلِ عَنِ اللهِ [١] ، الذينَ عَمِلُوا في إحْكَامِ الظَاهِرِ ، وَتَنَزَّهُوا عَنِ الشُبَهِ ، قال رسول الله ﷺ: « الحلالُ بَيِّنٌ [٢] ، والحرامُ بَيِّنٌ ، وبَيْنَ

=لبعض . ويحصل لهم بسبب التلاقي والتزاور مزيدٌ عظيم يجدون أثره في بواطنهم وظواهرهم ، ولذلك جالوا في البلاد ، وقصدوا إلى لقاء الأولياء والعلماء والعُبّاد .

وأما كتبُ أهلِ التصوف فهي راجعة إلى شيخ التعليم ، لأن الاستفادة منها لا تصح إلا باعتقاد الناظر فيها أن مؤلِّفها من أهل العلم والمعرفة ، وممن يصح الاقتداء به .

ولا يحصل هذا الاعتقاد إلا من قِبَلِ شيخ معتمد عليه عنده أو من طريق يثق به ، فان كان ما يستفيده منها بيّناً موافقاً لظاهر الشرع موافقةً بيّنةً اكتفى بذلك ، وإلا فلا بد له من مراجعة شيخ — أي من شيوخ التعليم — يبينه له ، فالشيخ لا بد منه » . انتهى .

(١) أي أهلُ الفَهْم عن الله تعالى .

(٢) قال الإمام الغزالي : « يظنُّ الجاهل أنّ الحلال مفقود ، وأن السبيل للوصول إليه مسدود ، حتى لم يبق من الطيِّب إلا الماء الفُرات ، والحشيشُ النابتُ في المَوَات ، وما عداه فقد أخبثَتْه الأيدي العادِيَة ، وأفسدَتْهُ المعاملة الفاسدة !

وليس كذلك ، بل قال المصطفى صلى الله عليه وسلم : « الحلالُ بيِّن ، والحرامُ بيِّن ، وبينهما أمور مشتبهات » . ولا تزال هذه الثلاثة مقترنات ، كيفما تقلّبت الحالات ، وإنما الذي فُقِدَ : العلمُ بالحلال ، وبكيفية الوصول إليه ! » . انتهى من « الإحياء » للغزالي ٥ : ٢٠ و « فيض القدير » للمناوي ٣ : ٤٢٤ — ٤٢٥ .

قلت : نعم ما تزال هذه الثلاثة موجودة ، ولكن يقل الحرام أو يكثر ، وفي زماننا قد كثُر الحرام لضعف الدين ، وقلة الفقه فيه ، ولانتشار الربا وغيره من المعاملات المحرمة في غالب معاملات الناس ، فالله المستعان .

ذلكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ »[1] . تَرْكُهَا خيرٌ مِنْ أَخْذِهَا .

---

(١) هو بعضُ حديث رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه والدارمي وغيرهم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه . واللفظ المذكور عند الترمذي . وجملةُ « تَرْكُها خيرٌ من أخذها » ظاهرُ سياق المؤلف أنها من تمام الحديث ، ولكني لم أقف عليها في شيء من طرق الحديث ورواياته على كثرة ما تتبعتُها ، فلهذا جعلتُها خارج الهلالين ، والله أعلم .

وتمامُ رواية الترمذي : « ... وبَيْنَ ذلك أمورٌ مُشْتَبِهات ، لا يَدري كثيرٌ من الناس أمِنَ الحلال هي أم من الحرام ، فمن تركها استبراءً لدينه وعِرْضه فقد سلِم ، ومَنْ واقَعَ شيئاً منها يُوشِكُ أن يُواقعَ الحرام ، كما أنه من يَرعى حول الحمى يُوشِكُ أن يُواقعه . ألا وإنّ لكل مَلِكٍ حِمى ، ألا وإنّ حِمَى الله مَحارِمُه » . أي مَعَاصيه . زاد البخاري ومسلم في روايتهما : « ألا وإن في الجَسَد مُضغَةً إذا صَلَحتْ صَلَحَ الجَسَدُ كله ، وإذا فَسَدتْ فَسَدَ الجَسَدُ كلُّه ، ألا وهي القلبُ » .

قال العلامة زين الدين ابنُ المُنَيِّر في شرحه على « صحيح البخاري » عند رواية البخاري : « ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام » : إنّ شيخه القدوة الزاهد الشيخ أبا القاسم بن منصور القَبَّاري الإسكندراني كان يقول : المُباحُ : عَقَبَةٌ بين العَبْدِ وبين المكروه ، فمن استكثر من المباح تطرّق إلى المكروه ! والمكروه عَقَبَة بين العَبْدِ وبين الحرام ، فمن استكثَر من المكروه تطرّقَ إلى الحرام !

قال الحافظ ابن حجر بعد نقلهِ في « فتح الباري » — ١ : ١١٨ : « وهو مَنزِعٌ حَسَن ، ويؤيده روايةُ ابن حِبّان من طريقِ ذكَر مسلمٌ إسنادَها ولم يسُق لفظَها ، فيها من الزيادة : « اجعلوا بينكم وبين الحرام سُتْرةً من الحلال ، =

. . . .

= من فَعلَ ذلك استبرأ لعِرضه ودِينه، ومن أرْتَع فيه كان كالمُرتِع إلى جَنْبِ الحمى يوشك أن يقع فيه » .

ثم قال الحافظُ ابن حجر : « ومعنى الحديث : أنّ الحلال حيث يُخشى أن يؤول فعلُه مطلقاً إلى مكروه أو محرَّم ينبغي اجتنابه ، كالإكثار مثلاً من الطيبات فانه يُحوِج إلى كثرة الاكتساب الموقع في أخذ ما لا يستحق، أو يُفضي إلى بَطرِ النفس ؛ وأقلُّ ما فيه الاشتغالُ عن مواقف العبودية ، وهذا معلوم بالعادة مشاهد بالعيان . ويَختلفُ ذلك باختلاف الناس :

فالعالمُ الفَطِنُ ، لا يَخفى عليه تمييزُ الحكم، فلا يقع له ذلك إلا في الاستكثار من المباح أو المكروه كما تقرَّر قبل .

ومَنْ دُونه : تقع له الشبهة في جميع ما ذُكرَ بحسب اختلاف الأحوال .

ولا يخفى أن المستكثر من المكروه تصيرُ فيه جُرأة على ارتكاب المنهيّ عنه في الجملة ، أو يحمِلُه اعتيادُهُ ارتكابَ المنهيِّ عنه غيرِ المحرَّم على ارتكاب المنهيّ عنه المحرَّم إذا كان من جنسه . أو يكون ذلك لشُبهةٍ وهو أن من تعاطى ما يُنهَى عنه يصيرُ مُظلِمَ القلب لفقدان نُور الورع ! فيقع في الحرام ولو لم يختر الوقوعَ فيه ! » .

وقال العلامة القسطلاني في « إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري » عند هذا الحديث ١ : ١٩١ : « بالله عليك ما لم تعلم حِلّه يقيناً : اترُكْه ، كتَركه ﷺ تَمْرةً خشيةَ أن تكون من تمر الصدقة، وأعلى الورع تَرْكُ الحلال مخافة الحرام ، كترك إبراهيم بن أدهم أجرتَهُ لشكه في وفاء عمله ، وطَوَى عن جوعٍ شديد .

وقالَتْ أختُ بِشْرِ الحافي لأحمد بن حنبل : إنا نَغْزِلُ على سطوحنا فيَمُرُّ بنا مَشاعلُ الظاهرية — الحَرَس — ويقع الشّعاعُ علينا أفيجوز لنا =

. . . .

= الغَزْلُ في شُعاعها ؟ فقال : مَنْ أنت عافاك الله ؟ قالت : أختُ بشْر الحافي ، فبكى وقال : من بيتكم يَخْرُج الورعُ الصادق ، لا تغزلي في شُعاعها .

وأقامت السيدة بديعة الإيجية من أهل عصرنا هذا — القرن العاشر — بمكة أكثر من ثلاثين سنة لم تأكل من اللحوم والثمار وغيرها المجلوبة من (بَجيلة) لمّا قيل : إنهم لا يُورّثون البنات . وامتنع أبوها نور الدين من تناول ثَمر المدينة لمّا ذُكِرَ أنهم لا يزكون . ومن ترخّصَ ندم ، والأورعُ أسرعُ على الصراط يوم القيامة » انتهى .

وحكى الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » ٥ : ١٥ في ترجمة الحافظ ابن عُقْدة أنّ « والده محمد بن سعيد المُلقّب بعُقْدَة ، وكان ورعاً ناسكاً : سقطَتْ منه دنانيرُ على باب دار أبي ذرّ الخزّاز ، فجاء بنخّال ليطلبها ، قال عُقدة : فوجدتُها ، ثم فكرتُ فقلت : ليس في الدنيا غيرُ دنانيرك ؟! فقلتُ للنخال : هي في ذمتك ، ومضيتُ وتركتُه » .

وحصَلَ مثلُ هذا للإمام أبي إسحاق الشيرازي شيخ الشافعية في عصره صاحب « المهذّب في المذهب » ، وكان على خشونة شديدة من الفقر والإملاق ، وفي غاية من الورع والصلاح ، دخل المسجد يوماً ليأكل فيه شيئاً فنسي ديناراً ! فذكره في الطريق فرجع ، فلما وجده تركه ولم يمسّه ، وقال : ربما وقع من غيري ولا يكون ديناري . ذكره النووي في « تهذيب الأسماء » ٢ : ١٧٣ .

وانظر باب الورع في « الرسالة القشيرية » تقف على العجائب المُشرقة المدهشة . وللإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه : « كتاب الورع » ، وهو كتاب نفيس فيه الآيات البينات من ورع السلف ، يُخيَّلُ لقارئه أن الإمام أحمد دخَلَ الجنة ثم جعَلَ يتحدّثُ عن أخلاق أهلها . فعليك بمطالعته فانك منتفع به ولا ريب .

فافحَصْ عن النِّيَّة [١] ، واعرِف الإرادة ، فإنَّ المُجَازَاة : بالنيَّة [٢] ، قال رسول الله ﷺ « إنَّما الأَعمالُ بالنِّيَّاتِ ، وإنَّما لِكُلِّ امرئٍ مَا نَوَى »[٣] .

---

(١) النيّةُ : قصدُ القلب للشيء وعَزْمُه على فِعْلِه أو تركِه . قال الشيخ ابن القيم رحمه الله تعالى في « إعلام الموقعين » ٤ : ١٩٩ : « هي رأسُ الأمر وعمودُه ، وأساسُه وأصلُه الذي يُبنَى عليه ، فانها رُوح العمل ، وقائده وسائقه ، والعمل تابع لها يُبنَى عليها ، يصح بصحتها ، ويَفسد بفسادها ، وبها يُستجلب التوفيق ، وبعدمها يحصل الخذلان ، وبحسبها تتفاوت الدرجات في الدنيا والآخرة » .

(٢) قلت : وهذا من أكبر نِعَمِ الله تعالى على العبد المسلم ، فانه — إذْ يُجازَى بنيّته — يستطيعُ أن يُكثِرَ من نيّات الخير الذي يُرضي الله تعالى ، ويَدَّخرَ بذلك ثواباً حسناً على عملٍ صالحٍ لم يعمله ، ولكن نواه وكان يعتزمُ تنفيذَه لو تمكّن منه . ولهذا قال أبو صفوان — أحَدُ السلف — : « ما ضَعُفَ بدَنٌ قَطُّ عن نية » . كما في « الحلية » لأبي نعيم ٧ : ٥٤ . وقال إبراهيم النخعي : لم يكن عبد الرحمن بن يزيد النخعي — هو أحد التابعين — يعمل شيئاً إلا بنية ، حتى إنه كان يشربُ الماءَ بنية . رواه الإمام أحمد في كتاب « العِلَل » ١ : ٧٣ .

وكذلك النيّةُ السيّئة : يُحاسَبُ ناويها بها ، ويُعاقَبُ على هَمِّه بتنفيذها ولو لم يفعل ما عَزَم عليه من سوء ، إذا كان قد تركها لغير الله تعالى : لنحوِ عجزٍ أو حياءٍ أو رهبةٍ من الناس أو فقدانِه الوسيلة إليها .

فأخلِصْ لله تعالى النيّة ، وأحسِن الطويّة ، وتلَقَّ ثوابَ رَبِّ البريّة .

(٣) رواه البخاري ومسلم في « صحيحيهما » من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ولفظُ (إنما) ساقطٌ من الأصل في الجملة الثانية. كما سقط من =

والزم تقوى الله ، فإنَّ « المُسْلِمَ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ ولِسَانِهِ ، والمُؤْمِنَ مِنْ أَمِنَ النَّاسُ بَوَائقَه » (١) . قال أبو بكر الصِّدِّيقُ رضي الله عنه : اتَّقِ اللهَ بطاعته ، وأَطِعِ الله بتقواه ، وَلْتَخَفْ يَدَاكَ مِنْ دِمَاءِ المُسْلمين ، وبطنُكَ مِنْ أَمْوالِهِمْ ، ولِسَانُكَ مِنْ أَعرَاضِهم .

وحَاسِبْ نفسَك في كلِّ خَطْرَة (٢) .

= الجملتين في النسخة المغربية .

وللسّلف في فحصِ النيّة وتخليصها من الشوائب أقوالٌ كثيرة ، قال يوسف بن أسباط : تخليصُ النيّة من فسادها أشدُّ على العاملين من طول الاجتهاد . وقال سفيان الثوري : ما عالجتُ شيئاً أشدَّ عليَّ من نيّتي ! لأنها تنقلبُ عليَّ ! وقيل لنافع بن جبير : ألا تشهدُ الجنازة ؟ قال : كما أنتَ حتى أنوي ، ففكّر هُنَيْهَةً ثم قال : امضِ . نقله الحافظ ابنُ رجب في « جامع العلوم والحكم » ص ٩ عن « كتاب الإخلاص والنيّة » لابن أبي الدنيا .

(١) البوائق جمعُ بائقة : وهي الشّرُّ والمصيبة . والكلام المذكور : حديث شريف رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ ، ولفظُ الحديث عند الإمام أحمد والنسائي والترمذي والحاكم في « المستدرك » وابن حبّان في « صحيحه » : « المسلمُ : من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويَدِه ، والمؤمنُ : من أَمِنَه الناسُ على دمائهم وأموالهم » ، كما في « الجامع الصغير » . وقال شارحه المناوي في « فيض القدير » ٦ : ٢٧٠ : « جاء في رواية الحاكم زيادةٌ وهي : والمجاهدُ : من جاهَدَ نفسَهُ في طاعةِ الله ، والمهاجرُ : من هَجَر الخطايا والذنوب » .

(٢) للشيخ الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى كلامٌ في الخطرة والفكرة وما =

. . . .

=إليهما في غاية الدقة والنفاسة، ما أصدَقَهُ وما أحقَّهُ ؟! كأنه خرج من مشكاة النبوَّة ، وأنا ناقلُه لك – على طوله – راجياً منك أن تتدبَّره ففيه الخيرُ لك في دِينك ودُنياك . قال رحمه الله تعالى في كتابه : « الفوائد » ص ٣١ و ١٧٣ – ١٧٤ من الطبعة المطبوعة بمصر سنة ١٣٤٤ :

« دافِع الخطرة ، فان لم تفعل صارَتْ شَهْوَة ، فحارِبْها ، فان لم تفعل صارَتْ عزيمةً وهمَّة ، فان لم تدافعْها صارَت فعلاً ، فان لم تتداركه بضِدِّه صار عادةً ! فيَصعُبُ عليك الانتقالُ عنها ! !

واعلم أن مبدأ كل علمٍ اختياري هو الخواطرُ والأفكار ، فانها تُوجب التصورات ، والتصورات تدعو إلى الإرادات ، والإرادات تقتضي وقوعَ الفعل . وكثرَةُ تكرارِهِ تُعطي العادة . فصلاحُ هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار ، وفسادُها بفسادها .

فصلاحُ الخواطر بأن تكون مراقِبةً لوليِّها وإلهها ، صاعدةً إليه ، دائرة على مَرْضاته ومحابِّه ، فانه سبحانه به كلُّ صلاح ، ومِنْ عندِهِ كلُّ هُدى ، ومِن توفيقه كلُّ رشد ، ومِن تولِّيه لعبده كلُّ حفْظ . ومِنْ تولِّي العبدِ وإعراضه عنه كلُّ ضلالٍ وشقاء !

واعلم أنَّ الخطرات والوساوس تؤدِّي متعلَّقاتها إلى الفِكْر ، فيأخذها الفِكْر فيؤديها إلى التذكر ، فيأخذها التذكر فيؤديها إلى الإرادة ، فتأخذها الإرادة فتؤدِّيها إلى الجوارحِ والعمَل ، فتَستحكم فتصيرُ عادةً . فردُّها من مَبادِئها أسهَلُ من قطعها بعد قُوَّتها وتمامها .

ومعلوم أنَّ الإنسان لم يُعطَ إماتةَ الخواطر ، ولا القوَّةَ على قَطعها ، فانها تَهْجُمُ عليه هُجومَ النَّفَس ، إلا أنَّ قوَّة الإيمانِ والعقلِ تُعينه على قبولِ أحسَنِها ورضاه به ومُساكنتِهِ له ،وعلى دَفْعِ أقبحِها وكراهتَه له =

وراقِبِ اللهَ في كل نَفَسٍ. قال عُمَرُ رضي الله عنه: حَاسِبُوا أَنْفُسَكم قبل أن تُحَاسَبُوا ، وزِنُوهَا قبلَ أَنْ تُوزَنُوا ، وتَزَيَّنُوا لِلعَرْضِ الأَكْبَرِ[1] يَوْمَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِية[2] .

= ونَفْرَته منه .

وقد خَلَق الله سبحانه النَّفْسَ شَبِيهةً بالرَّحى الدائرة التي لا تَسْكُنُ ولا بُدَّ لها من شيء تطحنُه . فإنْ وُضِعَ فيها حَبٌّ طحَنَتْه ، وإن وضع فيها ترابٌ أو حَصىً طَحَنَتْه !

فالأفكارُ والخواطرُ التي تجولُ في النَّفس هي بمنزلة الحَبِّ الذي يُوضَعُ في الرَّحى ، ولا تَبْقَى تلك الرَّحى مُعطَّلةً قط ، بل لا بُدَّ لها من شيء يُوضَعُ فيها ، فمن الناسِ مَنْ تَطْحَنُ رحاهُ حَبّاً يَخرُجُ دقيقاً يَنفَعُ به نفسَهُ وغيرَه ، وأكثرُهم يَطْحَنُ رَمْلاً وحصىً وتِبْناً ونحوَ ذلك ! فإذا جاء وَقْتُ العَجْنِ والخَبْزِ تبيَّنَ له حقيقةُ طحينه !! » .

(١) أي استعدُّوا وتهيئوا .

(٢) علَّق الترمذيُّ في « سننه » ٩ : ٢٨٢ في أبواب صفة القيامة كلمةَ عمر هذه بلفظ : « حاسبُوا أنفسكم قبل أن تُحَاسَبوا ، وتَزَيَّنوا للعَرْضِ الأكبر ، وإنما يخفُّ الحسابُ يوم القيامة على مَنْ حاسَبَ نفسَه في الدنيا » . ثم قال الترمذي : « ويُروَى عن ميمون بن مِهْران قال: لا يكون العبدُ تقيّاً حتى يُحاسِبَ نفسَهُ كما يُحاسِبُ شريكَهُ من أين مَطعَمُهُ وملبسُهُ ؟ » .

وقال الإمام الحسن البصري رضي الله عنه : — كما في « الحلية » لأبي نعيم ٢ : ١٥٧ و « البداية والنهاية » لابن كثير ٩ : ٢٧٢ — « إنَّ المؤمن قوَّام على نفسه، يُحاسب نفسَه لله عزَّ وجل. وإنما خَفَّ الحسابُ يومَ القيامة على =

وخَفِ اللهَ في دِينِكَ ، وَٱرْجُهُ في جَمِيعِ أُمورِك ، واصبِرْ عَلَى ما أَصابَكَ ، قال عليٌّ رضي اللهُ عنه : لا تَخَفْ إلاَّ ذَنْبَكَ ، ولا تَرْجُ إلاَّ رَبَّكَ ، وَلاَ يَسْتَحِي الذي لا يَعْلَم أَنْ يَسْأَل حَتَّى يَعْلَم ، ولا يَسْتَحِي مَنْ يُسْأَلُ عَمَّا لا يَعْلَم أَنْ يَقُول : لا أَعلَم .[1]

= قوم ٍ حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شَقَّ الحسابُ يوم القيامة على قوم ٍ أخذوا هٰذا الأمر من غير محاسبة .

إن المؤمن يفجأه الشيء يعجبه ، فيقول : والله ِ إني لأشتهيك ، وإنك لمن حاجتي ، ولكن والله ما من صلة إليك — يعني لا يتناوله لشك ٍ منه في حلّه — هيهات حِيلَ بيني وبينك . ويَفْرُط منه الشيء — أي يقع منه ما لا يُحبُّ وقوعَه — فيَرجع إلى نفسه فيقول : ما أردتُ إلى هذا ! ما لي ولهذا ؟! والله ما لي عذر بها ! والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله . إن المؤمن أسيرٌ في الدنيا يَسعى في فَكاك رقبَتِه ، لا يأمن شيئاً حتى يَلقى الله عز وجل ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه ، وفي جوارحه كلها » .

وقال المناوي في « فيض القدير » ٥ : ٦٧ : « قال الشيخ ابنُ عربي كان أشياخنا يُحاسبون أنفسَهم على ما يتكلّمون به وما يفعلونه ، ويُقيِّدونه في دفتر ، فاذا كان بعد العِشاء حاسَبُوا نفوسَهم ، وأحضروا دفترهم ، ونظروا فيما صَدَرَ منهم من قول ٍ وعمل ، وقابلوا كُلاًّ بما يستحقه ، إن استحقّ استغفاراً استغفروا ، أو التوبةَ تابوا ، أو شكراً شكروا ثم ينامون ، فزِدْنا عليهم في هذا الباب : الخواطرَ ، فكنا نُقيِّدُ ما نُحدِّثُ به نفوسَنا ونهُمُّ به ، ونُحاسبُها عليه » .

(١) روى ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ٢ : ٥٥ عن بعض =

واعْلَمْ أنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإيمانِ بِمَنْزِلَةِ الرأسِ من الجَسَدِ (١) ، فاذا قُطِعَ الرأسُ ذهبَ الجسَد . وإذا سَمِعْتَ كَلِمَةً تُغْضِبُكَ في عِرْضك فاعفُ واصفَحْ ، فانَّ ذلِكَ مِنْ عزم الأُمور . قال عُمَر بنُ الخطَّاب رضي الله عنه : مَن خَافَ اللهَ لم يَشْفِ غيظَهُ ، ومَنْ اتَّقَاهُ لَم يَصْنَعْ مَا يُريد ، ولولا يَومُ القيامة لَكانَ غيرَ ما تَرَوْنَ .

وَرَاعِ هَمَّكَ ، واشتَغِلْ بإصْلاَح نفْسِك عن عيْبِ غيرِك (٢) ، فإنه كان يُقال: كَفَى بالمرءِ عيباً أن يَستَبِينَ له

= أهل العلم قال « تعلّم: لا أدري ، ولا تعلّمْ أدري . فانك إن قلتَ : لا أدري ، علّموك حتى تدري . وإن قلتَ : أدري سألوك حتى لا تدري ! » . وذكرُه ابن القيم في « إعلام الموقعين » ٤ : ٢١٨ .

(١) يروى من حديث أنس عن النبي ﷺ وهو حديث ضعيف . ويروى من كلام سيدنا علي موقوفاً عليه ، كما في « الجامع الصغير » للسيوطي . وفيه من تتمة قول سيدنا علي : « فإذا قُطِعَ الرأس مات الجسد » .

(٢) قال سفيان بن حسين الواسطي : ذكرتُ رجلاً بسوء عند إياس بن معاوية المُزَني قاضي البصرة ، — وهو تابعي يُضرَب المثَلُ بذكائه — فنظر في وجهي وقال : أغزوتَ الرومَ ؟ قلت : لا ! قال : السِّندَ والهندَ والتُّركَ ؟ قلت : لا ! قال : أفسَلِمَ منك الروم والسند والهند والترك ، ولم يَسلم منك أخوك المسلم ؟! قال سفيان : فلم أعُدْ بعدَها — يعني إلى عَيْب أحد من الناس أو غيبته —». نقله الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» في ترجمة (إياس) =

مِن النَاسِ مَا يَخْفَى عليهِ مِنْ نفْسِهِ [١] ، أَو يَمْقُتَ النَّاس فيمَا يأْتي مثْلَهُ ، أَو يُؤْذيَ جليسَهُ ، أَو يقولَ في النَّاسِ ما لا يَعْنِيهِ .

واسْتعمِلْ للهِ عقلَكَ بتَرْكِ التَّدبير [٢] ، واستَعِنْ باللهِ علَى صَرْفِ المقادير . قال عليّ رضي اللهُ عنه : يا ابنَ آدم ! لا تَفْرَحْ بالغِنَى ، ولا تَقْنَطْ بالفَقْر ، ولا تَحْزَنْ بالبَلاءِ [٣] ،

= ٩ : ٣٣٦ .

وجاء في « ترتيب المدارك » للقاضي عياض رحمه الله تعالى . في ترجمة (الإمام ابن وهب) : عبد الله بن وهب القرشي المصري . الإمام المحدِّث الفقيه العابد الزاهد . صاحب الإمام مالك والليث والثوري وغيرهم . المتوفى بمصر سنة ١٩٧ رحمه الله تعالى ، جاء فيه ٣ : ٢٤٠ « قال ابنُ وهب : جعلتُ على نفسي كلما اغتبتُ إنساناً صيامَ يوم . فهان عليَّ . فجعلتُ عليها كلما اغتبتُ إنساناً صدقةَ درهم . فثَقُلَ عليَّ وتركتُ الغيبة » .

(١) يَستبين له أي يَظْهَر .

(٢) أي لا تعتمد على تدبير عقلك كل الاعتماد . فللعقل حدودٌ ينتهي بصَرُ العقل عندها ، وإنما عليك التسليمُ لله في تدبيره مع الأخذِ بالأسباب التي أمرك بها ، ثم تفوِّضُ الأمرَ إليه سبحانه في عاقبة ما يُقدِّره لك من عطاء أو حِرْمان . فإنه أرحمُ بك من نفسك . وأعلمُ بما ينفعُك ويَضرُّك . وقد قال في كتابه الكريم : ﴿ والله يَعلمُ وأنتم لا تعلمون ﴾ .

(٣) قال سيدنا عمر رضي الله عنه : ما أبالي على أيِّ حالٍ أصبحتُ ، =

ولا تَفْرَحْ بالرَّخاء ، فإنَّ الذَّهَبَ يُجَرَّبُ بالنَّارِ[١] ، وإنَّ العبدَ الصالحَ يُجَرَّبُ بالبلاء[٢] ، وإنَّكَ لا تَنَالُ ما تُرِيد

=أعلى ما أحبُّ أم على ما أكره ؟ ذلك لأني لا أدري الخيرَ فيما أحبُّ أو فيما أكره . رواه الإمام أحمد في كتاب « العِلَل » ١٤٩:١ . ووقع في الأصلين من « رسالة المسترشدين » : (ولا تحزن في البلاد) . وهو تحريف .

(١) قال العلامة الفيروز آبادي صاحب « القاموس » في كتابه « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز » ٢ : ٢٧٤ « اختبارُ الله تعالى لعباده تارةً بالمسارِّ ليشكروا ، وتارةً بالمضارِّ ليصبروا . فصارت المنحةُ والمحنةُ جميعاً بلاءً . فالمحنة مقتضيةٌ للصبر ، والمنحة مقتضيةٌ للشكر ، والقيامُ بحقوق الصبر أيسَرُ من القيام بحقوق الشكر ، فصارت المنحةُ أعظمَ البلاءين ، ولهذا قال عمر رضي الله عنه : بُلينا بالضرَّاء فصبَّرنا ، وبُلينا بالسرَّاء فلم نَصبر . وقال علي رضي الله عنه : من وُسِّعَ عليه في دُنياه فلم يَعلم أنه قد مُكِرَ به فهو مخدوع عن عقله . وقال تعالى : ﴿ونبلوكم بالشرِّ والخير فتنةً وإلينا تُرْجَعُون﴾ .

(٢) عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله ليُجرِّبُ أحدَكم بالبلاء وهو أعلم به ، كما يُجرِّبُ أحدُكم ذهبَه بالنار ، فمنهم من يَخرج كالذهب الإبريز ، فذلك الذي نجّاه الله تعالى من السيئات ، ومنهم من يَخرج كالذهب دون ذلك ، فذلك الذي يَشكُّ بعضَ الشك ، ومنهم من يَخرج كالذهب الأسود ، فذلك الذي قد افتُتن . رواه الحاكم في « المستدرك » ٤ : ٣١٤ وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . وأقره الذهبي على صحته فقال : صحيح .

قال الشيخ ابن القيِّم رحمه الله تعالى في « الفوائد » ص ٣٢ : « من خلقه =

إلا بتَرْكِ ما تَشْتَهِي ، ولَن تَبْلُغَ ما تُؤَمِّلُ إلا بالصَّبْر على ما تَكْرَهُ ، وابذُلْ جُهدَكَ لرعَايَةِ ما افْتُرِضَ عليك .

وارْضَ بما أَرَادَكَ اللهُ بِه ، قال ابنُ مسعود رضي اللهُ عنه : ارْضَ بِما قَسَمَ اللهُ لك تَكُنْ مِنْ أَغنَى النَّاسِ ، واجتَنِب ما حرَّمَ اللهُ عليك تكن مِن أَورعِ النَّاسِ ، وأَدِّ ما افترَضَ اللهُ عليك تكن مِن أَعبدِ النَّاسِ[1] .

=الله للجنة لم تزل هداياها تأتيه من المكاره. ومن خلقه الله للنار لم تزل هداياها تأتيه من الشهوات » .

(١) قال الشيخ ابن القيم رحمه الله تعالى في « إعلام الموقّعين » ٢ : ١٥٧ — ١٥٨ : « لله سبحانه على كل أحدٍ عُبوديّة بحسب مرتبته ، سوى العبوديةِ العامّةِ التي سوّى بين عباده فيها :

فعلى العالمِ من عُبوديةِ نشرِ السُّنّةِ والعلمِ الذي بعَثَ الله به رسولَه ﷺ ما ليس على الجاهل ، وعليه عُبوديةُ الصبرِ على ذلك ما ليس على غيره .

وعلى الحاكم من عبوديةِ إقامة الحقّ وتنفيذه وإلزامه من هو عليه به والصبرِ على ذلك والجهادِ عليه ما ليس على المفتي .

وعلى الغنيّ من عبوديةِ أداء الحقوق التي في ماله ما ليس على الفقير .

وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز فيهما .

. . . .

= وتكلّم يحيى بن مُعاذ الرازي يوماً في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقالت له امرأة : هذا واجب قد وُضعَ عنا — تعني : معشر النساء — فقال : هَبي أنه قد وُضعَ عنكن سِلاحُ اليد واللسان ، فلم يُوضَع عنكن سلاحُ القلب ، فقالت : صَدقتَ جزاكَ الله خيرا .

وقد غرّ إبليسُ كثيراً من الخلق بأنْ حَسّنَ لهم القيامَ بنوع من الذكر والقراءة والصلاة والصيام والزهد في الدنيا والانقطاع ! وعطّلوا هذه العُبوديّات فلم يُحدّثوا قلوبَهم بالقيام بها . وهؤلاء عند وَرَثَةِ الأنبياء — أي العلماء الصادقين — ممن لا غَناءَ فيهم للدين ! فانّ الدين هو القيامُ لله بما أمرَ به . فتاركُ حقوق الله التي تجب عليه أسوأُ حالاً عند اللهِ ورسولهِ من مرتكبِ المعاصي .

ومن له خبرةٌ بما بَعثَ الله به رسولَه ﷺ وبما كان عليه هو وأصحابُه: رأى أن أكثر من يُشارُ إليهم بالدّين — أي من أولئك المتزهدين المنقطعين هم أقلُّ الناس نصرةً لدين الله ، والله المستعان .

وأيُّ دِين وأيُّ خير فيمن يَرى مَحارمَ الله تُنتَهك ، وحُدودَه تُضاع ، ودِينَه يُترَك ، وسُنّةَ رسوله ﷺ يُرغَبُ عنها ، وهو باردُ القلب ساكتُ اللسان شيطانٌ أخرس ؟!

وهل بليّةُ الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سَلمَتْ لهم مآكلُهم ورياستُهم فلا مبالاة لهم بما جَرى على الدين ! وخيارُهم المتَحزّنُ المتباكي ! ولو نُوزِعَ في بعض ما فيه غضاضةٌ عليه في جاهه أو ماله بذَلَ وتبذّل ، وجَهدَ واجتَهد ، واستعمل مراتبَ الإنكار الثلاثةَ بحسب وسعه ! وهؤلاء — مع سقوطهم من عين الله ، ومَقْتِ الله لهم — قد بُلُوا في الدنيا بأعظم بلية تكونُ وهم لا يشعرون ، وهي موتُ القلوب ! فانّ القلب كلما كانت حياتُه أتمّ كان غضبُه لله ولرسوله أقوى ، وانتصارُه للدين أكمل . =

ولا تَشْكُ مَنْ هُوَ أَرْحَمُ بِكَ إلى مَنْ لا يَرْحَمكَ ، واستَعِنْ باللهِ تكنْ مِن أَهلِ خَاصَّتِهِ . قالَ عُبَادَة بن الصامت رضي اللهُ عنهُ : أَظْهِرِ اليَأْسَ مِمَّا في أَيدِي النَّاس فإنَّهُ الغِنَى ، وإياكَ والطَّمَعَ وطَلَبَ الحَاجَاتِ فإنَّهُ الفَقْرُ ، وإذا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلاَةَ مُوَدِّعٍ (١) .

= وقد ذكَر الإمام أحمد وغيرُه أثراً أنَّ الله سبحانه أوحى إلى مَلَكٍ من الملائكة أن اخسفْ بقريةِ كذا وكذا ، فقال : يا رب كيف وفيهم فلانٌ العابد ؟ فقال : به فابدَأ فانه لم يتمعّر وجهُه — أي لم يتغيّر — فيَّ يوماً قطِ . وذكَرَ أبو عُمَر ابن عبد البر في كتاب « التمهيد » أن الله سبحانه أوحى إلى نبيّ من أنبيائه أنْ قُلْ لفلان الزاهد : أمّا زُهدُك في الدنيا فقد تعجّلتَ به الراحةَ لنفسك ، وأما انقطاعُكَ إليَّ فقد اكتسبتَ به العزّ ، ولكن ماذا عملتَ فيما لي عليك ؟ فقال : يا رب وأيُّ شيء لك عليَّ ؟ قال : هل واليتَ فيَّ ولياً أو عاديتَ فيَّ عَدُوّاً ؟! » . انتهى بتصرف يسير .

(١) جاء في « تذكرة الحفاظ » للذهبي ص ١٤١ ، في ترجمة الإمام (منصور بن زاذان الثقفي الواسطي) أحد الأعلام المتوفى سنة ١٣١ رحمه الله تعالى : « قال هُشَيم تلميذه : كان لو قيل له : إنَّ مَلَك الموت على الباب ما كان عنده زيادة في العمل » .

وجاء فيها أيضا ص ١٤٢ — ١٤٣ في ترجمة الإمام (منصور بن المعتمر السُّلَمي الكوفي) المتوفى سنة ١٣٢ رحمه الله تعالى : « قال سفيان الثوري — تلميذه — : لو رأيتَ منصوراً يصلي لقلتَ : يموتُ الساعة . قال زائدة بن قُدامة تلميذه : صام منصور أربعين سنة ، وقام ليلها ، وكان يبكي الليلَ =

واعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإيمانِ حَتَّى تُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ .(١)

= كلّه ، فإذا أصبح كحّلَ عينيه ، وبرّقَ شفتيه ، ودهّنَ رأسه ، فتقول له أمُّه : أقتلتَ قتيلاً ؟ – أي لكثرة ما ترى من بكائه وتَجلّده وعبادته لله تعالى – ؟ فيقول : أنا أعلمُ بما صنعَتْ نفسي ! » .

(١) أي من الله تعالى ، وحتى تعلم وتتيقن أن ما أصابك لم يكن ليُخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، روى أبو داود في « سننه » ٤ : ٢٢٥ عن الصحابي الجليل عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه عند الموت : يا بُنَيَّ إنك لن تجد طَعْمَ حقيقةِ الإيمان حتى تعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأنَّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك » . سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ أوّلَ ما خلَقَ الله القلمُ ، فقال له : اكتب ، قال : ربِّ وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقاديرَ كل شيء حتى تقوم الساعة » . يا بُنَيَّ إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من مات على غير هذا فليس مني » .

وعن عبد الله بن عباس قال : كنتُ خلْفَ النبي ﷺ يوماً فقال لي : يا غلام إني أعلّمُك كلمات : احفظ الله يَحفَظْك ، احفظ الله تَجِدْه تجاهَك ، إذا سألتَ فاسأل الله ، وإذا استعنتَ فاستعِنْ بالله . واعلم أنَّ الأُمّة لو اجتمَعَتْ على أن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك . وإن اجتمعوا على أن يَضرُّوك بشيء ، لم يَضرُّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رُفِعَت الأقلام ، وجَفَّت الصُّحُف » . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

ومن دعاء النبي ﷺ : « اللهم إني أسألك إيماناً يُباشرُ قلبي حتى أعلمَ =

. . . .

= أنه لا يصيبني إلا ما كتبتَ لي ، ورضِّني من المعيشة بما قسمتَ لي » رواه البزار كما في « مجمع الزوائد » ١٠ : ١٨١ للهيثمي وقال : « وفي سنده سعيد بن سنان وهو ضعيف » .

وهاتان واقعتان — من وقائع كثيرٌ أمثالُها حفظها التاريخ الإسلامي — تَشهد فيهما : أن الله إذا قدَّر لإنسان سلامةً ونجاةً ، فلن يستطيع الناس أن يصيبوه بسوء . وإذا قدَّر عليه هلاكاً وعَطَباً فلن تقيه الأواقي ، ولن تحفظه الحصون الموانع .

١ — رَوَى الحافظ الحُمَيدي صاحبُ ابن حزم الظاهري وتلميذه في كتابه « جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس » ص ١١٨ « أن الوزير أبا عُمَر أحمد بن سعيد بن حزم — والد ابن حزم — كان جالساً بين يدي مخدومه المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر ، في بعض مجالسه للعامة ، فرُفعت إليه رُقعةُ استعطاف لأمِّ رجل مسجون ، كان المنصور اعتقله حَنَقاً عليه لجُرم استعظمه منه .

فلما قرأها اشتدَّ غضبُه وقال : ذكّرتني — واللهِ — به ، وأخَذَ القلم وأراد أن يكتب : يُصلَب ، فكتب : يُطلَق ، ورَمى الورقة إلى وزيره المذكور ، وأخذ الوزير القلم وتناول الورقة ، وجعل يكتب بمقتضى التوقيع إلى صاحب الشرطة ، فقال له المنصور : ما هذا الذي تكتب ؟ قال : بإطلاق فلان ، إلى صاحب الشرطة ، فحَرِدَ وقال : من أمرك بهذا؟ فناوله التوقيع .

فلما رآه قال : وَهِمتُ ، واللهِ ليُصلَبَنَّ ، ثم خَطَّ على التوقيع ، وأراد أن يكتب : يُصلَب ، فكتب : يُطلَق ، فأخذ الوزير الورقة ، وأراد أن يكتب إلى الوالي بالإطلاق ، فنظر إليه المنصور وغضب أشدَّ من الأول ، وقال : من أمرك بهذا ؟ فناوله التوقيع ، فرأى خطه ، فخَطَّ عليه . =

وكنْ بالحقِ عاملاً يَزِدْكَ اللهُ نوراً وبصيرة [1] ، ولا تكنْ مِمَّنْ يأمُرُ بِهِ ويَنْأى عَنْهُ ، فيبُوءَ بإثْمِهِ ، ويَتَعَرَّضَ لِمَقْتِ رَبِّهِ ، قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿كَبُرَ مَقْتاً عند اللهِ أنْ

وأراد أن يكتب : يُصلَّب ، فكتب : يُطلَّق ، وأخذ الوزير التوقيع وشرع في الكتابة إلى الوالي ، فرآه المنصور فأنكر أكثر من المرتين الأُولَيين ، فأراه خطَّه بالإطلاق ، فلما رآه عجب من ذلك وقال : نعم يُطلَّق على رَغْمي ، فمن أراد الله إطلاقه لا أقدر أنا على منعه » . انتهى . وذكرها القاضي ابن خلِّكان في « وفيات الأعيان » في ترجمة (ابن حزم : علي بن أحمد) ١ : ٣٤١ ، واللفظ له .

٢ ــ وحدثني بعض الرجال الصادقين العسكريين في الجيش العثماني في الحرب العامّة الأُولَى : أنهم استعدوا مرَّةً لمعركة يتوقعونها مع الأعداء . وأخذ كل جندي وضابط منهم موقعه ، وحفَرَهُ وحصَّنه على ما قدَّرَ واستطاع . فمرَّ القائدُ بهم ليشاهد تَحصناتهم ومواقعَهم ، فأعجبه موقعُ واحد منهم بتحصنه وتمكنه ، فقال للذي فيه : تحوَّل عنه ، وأقام فيه واحداً من أحبائه وأعزائه .

فتحوَّل صاحبُه عنه مكرَهاً ساخطاً ، ولما دارت رحى المعركة ، وصبَّ العدوُّ نيرانَ مدافعه ، جاءت قذيفة كبيرة فنَزلَتْ في الموضع الذي تحوَّل منه صاحبُه ، وذهبَتْ بعزيز القائد من أول ساعة ، وسَلِمَ ذاك وعاش إلى آماد بعيدة ، فسبحان الذي لا يُغلَبُ قضاؤه .

(١) وقع في النسخة المغربية : (وكن بالله بالحق عاملا به يزدك ...) .

تقُولُوا مَا لا تفعَلُونَ﴾ (١) ، وقال رسول الله ﷺ : « مَنْ وَعَظَ ولَمْ يَتَّعِظْ ، وَزَجَرَ ولَم يَنْزَجِرْ ، ونَهَى ولَمْ يَنْتَهِ : فهو عند اللهِ مِنَ الخَائبينَ » (٢) .

ولا تُخالِطْ إلا عاقِلاً تقياً ، ولا تُجَالِسْ إلا عالماً بصيراً (٣). وقد سُئِلَ النبي ﷺ : أَيُّ جُلسَائِنَا خَيْرٌ؟ قالَ : « مَنْ ذَكَّرَكُم باللهِ رؤيتُه ، وَزَادَكُم في عِلْمِكُمْ مَنْطِقُهُ ، وَذَكَّرَكُم بالآخِرَةِ عَمَلُهُ » (٤) .

---

(١) من سورة الصف : ٣ .

(٢) هذا الحديث لم أقف عليه فيما رجعت إليه من كتب الحديث الصحيح والضعيف والموضوع ، فالله أعلم به .

(٣) وكان الحسن البصري رضي الله عنه يقول : الدنيا كلها ظُلْمة إلا مَجالسَ العلماء . من « جامع بيان العلم وفضله » لابن عبد البر ١ : ٥١ .

(٤) وقع في الأصلين : (عِلمُه) . وهو تحريف . ولفظ الحديث في « الجامع الصغير » للسيوطي رحمه الله تعالى : « خيارُكم من ذكّركم بالله رؤيته ، وزاد في علمكم مَنطقه ، ورغبكم في الآخرة عملُه » ، رواه الحكيم الترمذي عن عبد الله بن عمْرو بن العاص . قال المُناوي في شرحه : « فيض القدير » ٣ : ٤٦٨ : « قال ابنُ عمْرو : قيل يا رسول الله مَنْ نجالس؟ فذكره . ورواه العسكري من حديث ابن عباس » . انتهى . قلت : والعزوُ إلى هذين المصدرين مُشعرٌ بضعف الحديث .

أما جواب النبي ﷺ لسؤالِ الصحابة له : من نُجالِس ؟ : بقولِه « من

. . . .

= ذكّركم بالله رُؤيتُه ». فقد كان هذا النوعُ الكريمُ في السلف منتشراً وكثيراً، كان التابعي عَمْرو بن ميمون الأَوْدي الكوفي أدرك الجاهلية، ولم يلق النبي ﷺ وقدم مع معاذ بن جبل من اليمن فنزل الكوفة، وكان صالحاً قانتاً لله تعالى، قال تلميذه أبو إسحاق السَّبيعي: كان إذا رُؤي ذُكِر الله، توفي سنة ٧٥ رحمه الله تعالى. من ترجمته في «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر ٨ : ١٠٩ و «العِبَر» للذهبي ١ : ٨٥.

وكان التابعي الجليل محمد بن سيرين إذا مَرَّ في السوق، فما يراه أحد إلا ذَكَرَ الله تعالى. كما في «تاريخ الإسلام» للذهبي ٤ : ١٩٣. وإذا ذَكَرَ الموتَ مات كلُّ عضو منه. كما في «العِلَل» للإمام أحمد بن حنبل ١ : ٢٠.

وكان الحسن البصري رضي الله عنه هكذا أيضاً إذا رُؤي ذُكر الله. قال أشعث بن عبد الله أحدُ أصحابه: كنا إذا دخلنا على الحسن خرجنا ولا نَعُدُّ الدنيا شيئاً. كما في «الحلية» لأبي نعيم ٢ : ١٥٨. وقال يونس بن عُبَيد: كان الرجل إذا نظَرَ إلى الحسَنِ انتَفَع به وإن لم يَرَ عملَه ولم يَسمع كلامه. كما في «البداية والنهاية» لابن كثير ٩ : ٢٦٧.

وقيل ليونس بن عُبَيد: أتعرف أحداً يعملُ بعمل الحسن البصري؟ فقال: والله لا أعرف أحداً يقول بقوله فكيف يَعملُ بعمله؟! ثم وصَفَه فقال: كان إذا أقبل فكأنه أقبَلَ من دَفْنِ حَميمه، وإذا جلَسَ فكأنه أسِيرَ أُمِرَ بضَرْب عنقه! وإذا ذُكِرَت النار فكأنها لم تُخْلَق إلا له.

وجاء في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض ٢ : ٥١ — ٥٢ : «قال مصعَبُ بن عبد الله: كان مالك — إمامُ المذهب وعالم المدينة النبوية — إذا ذُكِرَ ﷺ تغيَّر لونُه وانحنى، حتى يَصعُبَ ذلك على جُلَسائه، فقيل =

. . . .

= له يوماً في ذلك ؟ فقال : لو رأيتم لما أنكرتم عليَّ ما ترون ، كنتُ آتي محمد بن المنكدِر وكان سيدَ القُرَّاء – أي سيد العلماء – ، لا نكاد نسأله عن حديث إلا بكى حتى نرحمه .

ولقد كنتُ آتي جعفر بن محمد – هو جعفر الصادق – وكان كثير المزاحِ والتبسم ، فاذا ذُكِرَ عنده النبي ﷺ اخضَرَّ اصفَرَّ وكنتُ كلما أجدُ في قلبي قسوةً آتي محمد بن المنكدر ، فأنظرُ إليه نظرة ، فأتَّعِظُ بنفسي أياماً » . انتهى .

وما أجمل ما قيل فيمن كان من هذا القبيل :

إذا سكَنَ الغديرُ على صفاءٍ وجُنِّبَ أن يُحرِّكه النَّسيمُ
بدَتْ فيه السماءُ بلا امتراءٍ كذاك الشمسُ تبدو والنجومُ
كذاك وجوهُ أربابِ التجلِّي يُرَى في صفوِها اللهُ العظيمُ

وأما قول النبي ﷺ : « وزاد في علمكم منطقُه » . فقد قال الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : لمَجلسٌ كنت أجالِسُه عبدَ الله ابن مسعود – رضي الله عنه – أوثَقُ في نفسي من عَمَلِ سَنَة . وجاء في « وفَيَات الأعيان » للقاضي ابن خلِّكان ١ : ٢٧١ في ترجمة التابعي الجليل (عُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود) أحَدِ فقهاءِ المدينة السبعة ، المتوفى سنة ١٠٢ ما نصه :

« قال عمر بن عبد العزيز : لأن يكون لي مجلسٌ من عُبَيد الله أحب إليَّ من الدنيا وما فيها . وقال أيضاً : والله إني لأشتري ليلةً من ليالي عُبَيد الله بألف دينار من بيت المال ، فقالوا : يا أمير المؤمنين تقول هذا مع تحرِّيك وشدَّةِ تحفظك ؟ فقال : أين يُذهَبُ بكم ؟! والله إني لأعود برأيه وبنصيحته وبهدايته على بيت مالِ المسلمين بألوفٍ وألوف ، إنَّ في المحادثة – يعني له ولمثله – =

وتواضَعْ للحقِّ واخضعْ لهُ(١)، وأَدِمْ ذِكْرَ الله تَنَلْ قُرْبَهُ(٢).

= تلقيحاً للعقل، وترويحاً للقلب، وتسريحاً للهَمّ، وتنقيحاً للأدب» . انتهى .

وقد صدق رضي الله عنه . وما أصدق ما قيل :

وما بَقِيَتْ من اللّذاتِ إلا مُحادثةُ الرجالِ ذوي العقولِ

(١) كما هو شأنُ المؤمنين الصالحين . فإنهم إذا عرفوا الحق سارعوا إليه ، وإذا كشفوا الباطل في نفوسهم تنكّروا له وعَدَلوا عنه . وقد وقع لعَمْرو بن عُبَيد أنه قال في مسألة رأياً فأخطأ فيه ، فناقَشَه واصلُ بن عطاء فتبيّن لعمرو بن عُبَيد خطأه في تلك المسألة ، فرجع إلى الحق قائلاً : ما بيني وبين الحقّ من عداوة .

وحكى الحافظ ابن حجر في « تهذيب التهذيب » ٧ : ٧ في ترجمة (عُبَيد الله بن الحسن العنبري) المتوفى سنة ١٦٨ ، أحدِ سادات أهل البصرة وفقهائها وعلمائها وكان قاضيها : « قال عبد الرحمن بن مَهدي تلميذُه : كنا في جنازة فسألته عن مسألة فغلِطَ فيها ، فقلت له : أصلحك الله ، القولُ فيها كذا وكذا . فأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال : إذاً أرجعُ وأنا صاغر . لأن أكونَ ذَنَباً في الحق أحبُّ إليّ من أن أكون رأساً في الباطل » . رحمه الله تعالى .

وجاء في « تهذيب التهذيب » أيضاً ١٠ : ٢٢ ، في ترجمة (مالك بن مِغْوَل الكوفي) المتوفى سنة ١٥٩ « قال أحمد بن حنبل : سمعت سفيان بن عيينة يقول : قال رجل لمالك بن مِغْوَل : اتّقِ الله ، فوضَعَ خَدَّه بالأرض » . رحمه الله تعالى ورضي عنه .

(٢) في قول المؤلف المحاسبي رحمه الله تعالى : « وأدِمْ ذِكرَ الله تَنَلْ قُرْبَه » إشارةٌ منه إلى فائدةٍ جُلّى من فوائد ذكر الله عز وجل ، وهي القُربُ من الله سبحانه . وقد استوفى الإمام الشيخ ابن القيم بيانَ فوائد ذكر الله تعالى ، في كتابه « الوابل الصيّب » ص ٥٧ — ١٣٣ استيفاءً حسناً ، يُحبَّبُ =

. . . .

=الذكرَ إلى الغافلين والذاكرين جميعاً، فذكرَها بدليلها وتوجيهها فائدةً فائدة، وأنا أنقلُ لك جملةً من عناوين ما أشار إليه، فأرعه سمعك لتكون من ﴿الذاكرين الله كثيراً والذاكراتِ﴾، قال رحمه الله تعالى :

« وفي ذكر الله تعالى أكثرُ من مئة فائدة : يُرضي الرحمن، ويَطرُدُ الشيطان، ويُزيل الهمَّ، ويَجلبُ السُّرور، ويُقوِّي القلبَ والبَدَن، ويُنوِّرُ القلبَ والوجه، ويَجلبُ الرزق، ويكسبُ المهابةَ والحلاوة، ويُورِثُ محبةَ الله تعالى التي هي رُوحُ الإسلام، ويُورِثُ المعرفةَ والإنابةَ والقربَ، وحياةَ القلب، وذِكرَ الله للعبد.

وهو قُوتُ القلب ورُوحُه، ويجلو صَدأه، ويَحُطُّ الخطايا، ويَرفع الدرجات، ويُحدِث الأُنس، ويُزيلُ الوحشة، ويُذكِّرُ بصاحبه، ويُنجِي من عذاب الله، ويُوجِبُ تنزُّلَ السكينة، وغشيانَ الرحمة، وحُفوفَ الملائكة بالذاكر، ويَشغلُ عن الكلام الضارّ، ويُسعِدُ الذاكر، ويَسعَدُ به جليسُه، ويؤمِّنُ العبدَ من الحسرةِ يوم القيامة. وهو مع البكاء سبَبُ إظلال الله للذاكر، وبه تَحصُل العطايا والثوابُ المتنوِّعُ من الله تعالى.

وهو أيسَرُ العبادات وأفضلُها، وهو غِراسُ الجنة، ويُؤمِّن العبدَ من نسيان رَبِّه سبحانه، ويَعُمُّ الأوقاتَ والأحوالَ وليس شيء من الطاعات مثله، وهو نُورٌ للعبد في دنياه وقبرِه ويومَ حَشْرِه، وبه تَخرُجُ أعمالُ العبد وأقوالُه ولها نور، وهو رأسُ الولاية وطريقُها، ويُزيل خَلّة القلب، ويُفرِّقُ غُمومَه وهُمومَه، ويُنبِّهُ القلبَ من نومه، ويُثمِرُ المعارفَ والأحوالَ الجليلة، والذاكرُ قريب من مذكوره، واللهُ معه. وأكرَمُ الخلق على الله : من لا يَزالُ لسانُه رطباً من ذكر الله.

وهو يُزيل قسوة القلب، وما استُجلِبَتْ نِعَمُ الله، واستُدفِعَتْ نِقَمُه=

. . . .

= بمثل ذكره. ويُوجِبُ صلاةَ الله وملائكته — أي ثناءَه وثناءَ ملائكته سبحانه — على الذاكر . ومجالسُ الذّكر مجالسُ الملائكة ورياضُ الجنّة . وجميعُ الأعمال إنما شُرعت لإقامة ذكر الله تعالى ، وأفضلُ كلِّ أهلِ عمل أكثرُهم فيه لله ذكراً ، وإدامةُ الذكر تنوب منابَ كثير من الطاعات البدنية والمالية والمركّبة منهما .

وهو يُعين على طاعة الله ، ويُسهّلُ كلَّ صعب ، ويُيسّرُ الأمور . ويُعطي الذاكر قوّةً في قلبه وبدنه ، والذاكرون أسبَقُ العُمّال في مِضمار الآخرة ، وهو سَدٌّ بين العبد وبين نار جهنم . وتَستغفِرُ الملائكةُ للذاكر ، وتَتباهى الجبالُ وبِقاعُ الأرض بمن يَذكُرُ الله عليها ، وتَشهدُ له . والذكرُ أمانٌ من النِّفاق .

ويَدخلُ في ذِكرِ الله ذكرُ أسمائه وصفاته ، والثناءُ عليه بهما . وتنزيهُه عما لا يليق به ، والخبرُ عن أحكام ذلك ، وذِكرُ أمرِه ونهيِه . ويكون الذكرُ بالقلب واللسانِ ، وهو الأكمل ، ثم القَلْبِ وحده ، ثم اللسانِ وحده . وأفضلُ أنواع الذكر : القرآنُ ، ثم الذكرُ والثناء على الله ، ثم أنواع الأدعية » .

وقال الشيخ ابن القيم أيضاً رحمه الله تعالى في كتابه « زاد المعاد » في (فصل في هديه ﷺ في الذكر » ٢ : ٣٧ .

« كان النبي ﷺ أكمل الخلق ذكراً لله عزَّ وجل بل كان كلامه كله في ذكر الله وما والاه ، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة : ذكراً منه لله تعالى . وإخبارُه عن أسماءِ الرب وصفاتِه وأحكامِه وأفعاله ووعدِه ووعيده : ذكراً منه لله تعالى . وثناؤه عليه بآلائه وتمجيدُه وحمدُه وتسبيحه : ذكراً منه لله تعالى . وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته : ذكراً منه لله تعالى . وكان سكوته وصمته : ذكراً منه لله تعالى بقلبه .

. . . .

= فكان ذاكراً لله تعالى في كل أحيانه ، وعلى جميع أحواله ، فكان ذكره لله تعالى يجري مع أنفاسه : قائماً وقاعداً ، وعلى جنبه ، وفي مشيه وركوبه ومسيره ونزوله ، وظَعْنه وإقامته » . انتهى كلام ابن القيم رحمه الله تعالى .

هذا، وذِكرُ الله تعالى باللسان ، سِرّاً وجهراً بانفراد أو جماعة مشروع بشروطه وآدابه [1] ، ولكن الذكر الذي يقوم به بعضُ الناس ، بحركات موزونة مرتّبة ، وترنيمات متصنّعة مُطرِبة ، وقَفْزٍ ووَثْب ، ونَطٍّ وجَذْبٍ ، وانحناء للأمام ورَفْع ، والتفات عنيف ودَفْع ، فالفِطَرُ السليمةُ تنبو عنه ، والقلبُ الخاشعُ يتبرّأ منه ، لو خَشَعَ قلبُ هذا لخشَعَتْ جوارحُه ، كما قاله سعيد بن المسيّب رضي الله عنه .

وما عُهِدَ فعلُه من السلف في القرون المشهود لها بالخير . وما يقال في تعليل تلك الحركات والوثبات أنها لمنع الخاطر أن يشتغل بغير الله تعالى ، فهو مردود بما عُرِف من حال السلف ، فقد كانوا أحرص منا على حفظ خواطرهم وقلوبِهم وجعلِها مع الله ولم يكونوا يفعلونه ، بل ذُكِرَ لهم فأنكروه=

---

(١) وقد ذهب بعضهم إلى منع الجهر بالذكر منفرداً أو جماعة ، ولكن الحق جوازه كما حققه الإمام المحقق عبد الحي اللكنوي في كتاب خاص سماه « سباحة الفكر في الجهر بالذكر » ، وقد استوفى فيه أدلة المانعين والجواب عنها ، ثم أورد للمجيزين الأدلة الناطقة على جوازه ، بل بعضها شاهد باستحبابه ، كما أشار إليه هناك ، واستوفى أيضاً بيان المواطن التي يطلب الجهر فيها ، أو يكره ، وشروطه وآدابه وما إلى ذلك ، على وجه لا تراه عند غيره .

والكتاب مطبوع بالهند أكثر من مرة ، في ضمن مجموع كله للكنوي ، عرف باسم « مجموع الرسائل الست » . وقد طبع الطبعة الأولى في حياة المؤلف ، في (مطبع دبدبه أحمدي) سنة ١٣٠٣ في لكنو ، فعليك به . وللحافظ السيوطي رحمه الله تعالى رسالة جيدة : « نتيجة الفكر في الجهر بالذكر » ، ذهب فيها إلى الجواز أيضاً ، وهي مطبوعة ضمن كتابه « الحاوي للفتاوي » ، وعلى حدة أيضاً ، ولبعض علماء نجد — ابن سحمان ؟ — رسالة مطبوعة في جوازه أيضاً.

. . . .

=أشدَّ الإنكار ، وهم الأئمة المقتدَى بهم، والمرجوعُ إليهم ، وإليك جملةً يسيرةً من كلامهم في ذلك :

روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى في « صحيحه » في كتاب العيدين . في (باب سُنّة العيدين لأهل الإسلام) ٢ : ٣٧١ ما يلي : « عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخَلَ أبو بكر وعندي جاريتانِ من جواري الأنصار . تُغَنِّيانِ بما تَقاوَلَتْ الأنصارُ يومَ بُعاث ، قالت : وليستا بمُغَنِّيَتين ... » .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في « فتح الباري » ٢ : ٣٦٨ : « قال القرطبي — هو المحدِّث أبو العباس أحمد بن عمر شيخ القرطبي صاحب التفسير — : قولُها : ليستا بمُغَنِّيَتين ، أي ليستا ممن يَعرِفُ الغناء كما يعرفه المُغَنِّياتُ المعروفاتُ بذلك . وهذا من عائشة رضي الله عنها تحرُّزٌ عن الغناء المعتاد عند المشتهرين به ، وهو الذي يُحرِّكُ الساكن ، ويَبعثُ الكامن . وهذا النوعُ إذا كان في شِعْرٍ فيه وَصْفُ محاسنِ النساءِ والخمرِ وغيرِهما من الأمور المحرَّمة : لا يُختلَفُ في تحريمه .

قال : وأما ما ابتدعَتْهُ الصوفية في ذلك . فمِن قَبِيل ما لا يُختلَفُ في تحريمه ، لكن النفوس الشهوانية غلَبَتْ على كثير ممن يُنسَبُ إلى الخير ، حتى لقد ظهرَتْ من كثير منهم فَعَلاتُ المجانين والصبيان . حتى رَقَصُوا بحركات متطابقة . وتقطيعاتٍ متلاحقة . وانتهى التواقحُ بقومٍ منهم إلى أن جعلوها من باب القُرَب وصالحِ الأعمال . وأنَّ ذلك يُثمِرُ سَنِيَّ الأحوال . وهذا على التحقيق : من آثار الزندقة ، وقولِ أهل المَخْرَقة ، والله المستعان . انتهى » .

قال الحافظ ابنُ حجر عقِبَه : « وينبغي أن يُعكَسَ مُرادُهم ، ويُقرَأ : (يُثمِرُ سَيِّءَ الأحوال عِوَضَ سَنِيِّ الأحوال) . » انتهى .

. . . .

= وقال الإمام القاضي عياض رحمه الله تعالى في ترجمة الإمام مالك رضي الله عنه في « ترتيب المدارك » ٢ : ٥٤ : « قال التِّنِّيسيُّ : كنا عند مالك ، وأصحابُه حولَه ، فقال رجل من أهل نَصيبين : عندنا قوم يقال لهم : الصوفية ، يأكلون كثيرا ، ثم يأخذون في القصائد ، ثم يقومون فيرَقُصون ؟ فقال مالك : أصبيانٌ هم ؟ قال : لا ، قال : أمجانينُ هم ؟ قال : لا ، هم قومٌ مشايخ ، وغيرُ ذلك ، عقلاء ، فقال مالك : ما سمعتُ أن أحداً من أهل الإسلام يفعل هذا !

فقال له الرجل : بل يأكلون ، ثم يقومون ويرقصون دَوَائبَ ، ويلطم بعضُهم رأسَه ، وبعضُهم وجهَه ، فضحك مالك ثم قام فدخل منزله ، فقال أصحابُ مالك للرجل : لقد كنتَ يا هذا مشؤوماً على صاحبنا ، لقد جالسناه نيِّفاً وثلاثين سنة ، ما رأيناه ضَحِكَ إلا في هذا اليوم ! » . انتهى .

وقال القرطبي المفسِّرُ الصوفيُّ في تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » ٧ : ٣٦٥ ، عند تفسيره لقوله تعالى في سورة الأنفال : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذُكرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهم ، وإذا تُليَتْ عليهم آياتُه زادَتْهم إيماناً ، وعلى ربِّهم يتوكلون ﴾ . قال رحمه الله تعالى : « وصَفَ الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالخوف والوَجَل عند ذكره ، وذلك لقوة إيمانهم ، ومراعاتهم لربهم ، وكأنهم بين يديه .

ونظيرُ هذه الآية : ﴿ وبَشِّرِ المُخْبِتين ، الذين إذا ذُكرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهم ﴾. وقال : ﴿وتَطمَئِنُّ قلوبُهم بذكر الله ﴾. فهذا يَرجعُ إلى كمالِ المعرفة ، وثقةِ القلب . والوجَلُ : الفَزَعُ من عذاب الله ، فلا تَناقُض .

وقد جَمَعَ الله بين المعنيين في قوله : ﴿ اللهُ نزَّلَ أحسَنَ الحديثِ كتاباً مُتشابِهاً مَثانيَ تَقْشَعِرُّ منه جُلودُ الذين يخشَوْن ربَّهم . ثم تَلينُ جلودُهم=

. . . .

= وقلوبُهم إلى ذكر الله ﴾ . أي تسكُنُ نفوسُهم من حيث اليقينُ إلى الله ، وإن كانوا يخافون الله .

فهذه حالةُ العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته ، لا كما يفعله جُهّال العوام والمبتدعةُ الطَّغام ، من الزَّعيق والزئير — أي الصياح الشديد — ، ومن النُّهاق الذي يُشبهُ نُهاقَ الحمير . فيقال لمن تعاطّى ذلك ، وزعَمَ أن ذلك وَجْدٌ وخشوع : لم تَبلُغ أن تساوي حالَ الرسول ولا حالَ أصحابه في المعرفة بالله ، والخوفِ منه ، والتعظيمِ لجلاله ، ومع ذلك فكانت حالُهم عند المواعظ : الفهمَ عن الله ، والبكاءَ خوفاً من الله . ولذلك وَصَفَ الله أحوالَ أهل المعرفة عند سماعِ ذكرِه وتلاوةِ كتابه فقال : ﴿ وإذا سَمِعُوا ما أُنزِلَ إلى الرسول تَرى أعينَهم تَفيضُ من الدمع مما عَرَفوا من الحقّ ، يقولون : ربّنا آمنّا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ .

فهذا وصفُ حالهم ، وحكايةُ مقالهم . ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ، ولا على طريقتهم . فمن كان مُستَنّاً فليَستَنَّ بهم . ومن تعاطّى أحوالَ المجانين والجنونِ فهو من أخسّهم حالاً ، والجنونُ فنون .

ورَوى مسلم عن أنس بن مالك ، أنّ الناس سألوا النبي ﷺ حتى أحفَوْه — أي أكثروا عليه — في المسألة ، فخرج ذات يوم ، فصَعِدَ المنبر فقال : سَلُوني ، لا تسألوني عن شيء إلا بيّنتُه لكم ما دُمتُ في مقامي هذا . فلما سَمِعَ ذلك القومُ أرَمُّوا — أي أمسكوا — ورَهِبُوا أن يكون بين يَدَيْ أمرٍ قد حَضَر . قال أنس : فجعلتُ ألتفتُ يميناً وشمالاً ، فاذا كلُّ إنسانٍ لافٌّ رأسَه في ثوبه يبكي ! وذكَرَ الحديث .

ورَوى الترمذي وصحّحه عن العِرْباض بن سارية قال : وعَظَنا رسولُ الله ﷺ موعظةً بليغةً ، ذَرَفَتْ منها العيون ، ووَجِلَتْ منها القلوب . =

قالَ رسولُ الله ﷺ : « جُلَسَاءُ اللهِ يوْمَ القيامة : الخَاضِعون المتواضِعون الخَائِفُونَ الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثيراً »(١) .

= الحديث . ولم يقل: زَعَقْنا، ولا رَقَصْنا، ولا زَفَنَا – أي ضَرَبْنا الأرض بأرجلنا كما يفعل الراقص – ، ولا قُمْنا » . انتهى .

قال عبد الفتاح : فليْتَ أولئك الذاكرين – وهم يقولون : إن هذه الحركات الموزونة ... مباحة ولا تخرُجُ عن المباح – فليتهم إن لم يَخضعوا لأقوال الأئمة الناهية المحرِّمة لتلك الحركات ... اعتبروا أقوالَهم في النهي عنها والتحريم لها : تقومُ بها شُبهةٌ في حِلِّ فعلها والتلبسِ بها ، فتركوها تنزُّهاً وابتعاداً عما قال العلماء فيه : حرام ، فالصوفيُّ كما عرَّفوه : من يَتوقّى الشبُهات ، ويَترُكُ بعضَ المباحات ، خشيةَ الوقوع في المكروهات ، فضلاً عن المحرَّمات ، والله الهادي لمن استهداه ، فاهدنا اللهم لما تحبه وترضاه .

(١) هذا الحديث لم أجده فيما رجعتُ إليه من المراجع الحديثية ، فالله أعلم به .

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في « شرح حديث العلم » ص ١٧ – ٢١ : « وفي الحديث المعروف عن النبي ﷺ : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حِلَقُ الذكر » .

وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا ذكَرَ هذا الحديث قال : أما أني لا أعني القُصّاص ، ولكن حِلَق الفِقه ، ورُوي عن أنس معناه أيضاً .

ولما حضرَتْ معاذَ بن جبل رضي الله عنه الوفاةُ قال : مرحباً بالموت ، مرحباً بزائر جاء على فاقة ، لا أفلح من نَدِم ، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لجري الأنهار ، ولا لغَرْس الأشجار ، ولكن كنت أحب البقاء لمكابدة الليل الطويل ، ولظمأ الهواجر في الحر الشديد ، ولمزاحمة العلماء بالرُّكَب في حِلَق الذكر .

وابذُلِ النصيحةَ للهِ وللمُؤمنين ، وشاوِرْ في أمْرِكَ الذينَ

= ويعني بحلق الذكر هنا : حِلَقَ العلم. ومنه قوله تعالى :﴿ فاسألوا أهلَ الذِكرِ إن كنتم لا تعلمون﴾ .

وقال عطاء الخراساني : مَجالِسُ الذكر مجالسُ الحلال والحرام . كيف تشتري وتبيع ، وتصلي وتصوم ، وتنكح وتطلّق ، وتحجّ ، وأشباهُ هذا . وكان أبو السوَّار العَدَوي في حلْقة يتذاكرون فيها العلم ، ومعهم فتى شابٌ فقال لهم : قولوا : سبحان الله والحمد لله ، فغَضِب أبو السوَّار وقال : ويحك في أي شيء كنا إذاً ؟! كما رواه الإمام أحمد في كتاب « الزهد » ص ٣١٦ — ٣١٧ .

ومِن مجالسِ الذكر أيضاً : مَجالسُ العلم التي يُذَكَّرُ فيها تفسير القرآن ، وتُروَى فيها سُنّةُ رسولِ الله ﷺ ، ويُعلّمُ فيها الفِقْهُ في الدين . ومَجالِسُهُ أفضلُ من مجالس ذكرِ الله بالتسبيح والتحميد والتكبير ، لأنها دائرة بين فرضِ عينٍ أو فرضِ كفاية ، والذكرُ المجرَّدُ تطوُّع محض .

والمرادُ بهذا أن مجالس الذكر لا تختصُّ بالمجالس التي يُذكر فيها اسمُ الله بالتسبيح والتكبير والتحميد ونحوِه ، بل تَشْمَلُ ما ذُكِرَ فيه أمْرُ الله ونَهيُه ، وحلالُه وحرامُه ، وما يُحبه ويرضاه ؛ فانه ربما كان هذا الذكر أنفعَ من ذلك ، لأن معرفة الحلال والحرام واجبةٌ في الجملة على كل مسلمٍ بحسب ما يتعلق به في ذلك .

وأما ذِكرُ الله باللسان فأكثره يكون تطوعاً . وقد يكون واجباً كالذكر في الصلوات المكتوبة . وأمّا معرفةُ ما أمَرَ الله به ، وما يُحبه ويرضاه وما يكرهه : فيَجِبُ على كلّ من احتاج إلى شيء من ذلك أن يتعلمه ، ولهذا رُوي « طلبُ العلم فريضة على كل مسلم » . انتهى كلام الحافظ ابن رجب بزيادة خبر معاذ من « جامع بيان العلم وفضله » لابن عبد البر ١ : ٥١ .

يَخْشَوْنَ اللهَ . قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ (١) وقال النبي ﷺ : « الدِّينُ النَّصيحةُ » (٢) .

واعْلَمْ أنَّ مَنْ نَصَحَكَ فَقَدْ أَحَبَّكَ ، وَمَنْ دَاهَنَكَ فقَدْ غَشَّكَ (٣) ، وَمَنْ لَمْ يَقْبَلْ نَصِيحَتَكَ فَلَيْسَ بِأَخٍ لَكَ . قَالَ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رضِيَ اللهُ عنه : لا خَيْرَ في قَوم لَيْسُوا بِنَاصِحِينَ ، ولا خَيْرَ في قَومٍ لا يُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ . (٤)

---

(١) من سورة فاطر : ٣٨ .

(٢) رواه مسلم في « صحيحه » عن تميم الداري .

(٣) أي من رآك على انحراف عن طاعة الله ، وأظهرَ لك رضاه بما أنت عليه ، ولم ينصحك ولم يُنكر عليك : فقد غشّك ! واعتَبِرْه من جملة أعدائك المبغِضين لك ، لأن هذا موقفُ الأعداء لا موقفُ الإخوةِ المحبين .

(٤) وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يقول : رحم الله امرءاً أهدَى إلى عمر عيوبَه . فعَدّ رضي الله عنه الإشارة إلى العيب من الأخ الناصح هديةً تستحق الدعاء لمهديها .

وقال رجل للحسن البصري رضي الله عنه : كيف نصنع بأقوام يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير ؟! فقال الحسن : والله لأن تصحب أقواماً يُخوّفونك حتى يدركك الأمن ، خيرٌ لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى يلحقك الخوف » . من « الحلية » لأبي نعيم ٢ : ١٥٠ .

وآثِرِ الصِّدقَ في كُلِّ مَوطنٍ تَغْنَمْ[1]، واعتَزِلِ الفُضُولَ تَسْلَمْ، فإنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلى البِرّ[2]، وَالبِرَّ يَهْدِي إلى

---

(١) روى الحافظ ابن الجوزي في « مناقب الإمام أحمد بن حنبل » ص٣٥٠« عن تميم الرازي قال: سمعتُ أبا زُرْعَةَ الرازيَّ يقول: قلت لأحمد ابن حنبل: كيف تخلّصتَ من سيفِ المعتصم وسَوْطِ الواثق؟ فقال: لو وُضِعَ الصدقُ على جُرْحٍ لبَرَأ ». وقال قاضي البصرة إياس بن معاوية المزني: «إن أشرف خصال الرجل صدقُ اللسان، ومن عَدِمَ فضيلة الصدق فقد فُجِعَ بأكرم أخلاقه». نقله الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » ٩: ٣٣٦.

(٢) معنى (يَهدي إلى البِرّ): يُوصِل إلى العمل الصالح. رَوَى الحافظ أبو نعيم في « الحلية » ٢: ٣٥٩ في ترجمة (مالك بن دينار) عن جعفر بن سليمان الضبعي قال: « سمعتُ مالكَ بن دينار يقول: الصدقُ والكذبُ يَعتركان في القلب حتى يُخرِجَ أحدُهما صاحبَه، وإنَّ الصدق يَبْدو ضعيفاً كما يبدو نباتُ النخلة، يبدو غُصْناً واحداً، فاذا شَقَّها صبي ذهَبَ أصلُها، وإن أكلَتْها عَنْزٌ ذهَبَ أصلُها، فتُسقَى فتَنْتَشِر، وتُسقَى فتَنْتشر حتى يكون لها أصلٌ أصيل يُوطأ، وظِلٌّ يُستَظَلُّ به، وثَمرَةٌ يؤكلُ منها.

كذلك الصِّدقُ يبدو في القلب ضعيفاً، فيتفقّده صاحبُه ويزيده الله تعالى، ويتفقده صاحبه فيزيده الله، حتى يَجْعَلَه الله بَرَكةً على نَفْسِه، ويكون كلامُهُ دواءً للخاطئين.

قال جعفر: ثم يقول مالكُ بنُ دينار: أما رأيتُموهم؟ ثم يَرْجِعُ إلى نفسهِ فيقول: بَلَى واللهِ لقد رأيناهم: الحسنَ البصري، وسعيدَ بن جبير وأشباهَهم، الرجلُ منهم يُحيي اللهُ بكلامه الفِئَامَ ـــ أي الجماعات ـــ من الناس ».

رِضَا اللهِ تَعَالَى ، والكذِبَ يَهْدِي إلى الفُجُورِ ، والفُجُورَ يُورِثُ سَخَطَ اللهِ (١). وقال عبدُ الله بن عباس رَضِي الله عنهما: لا تَتَكَلَّمْ فِيما لاَ يَعْنِيكَ ، ولاَ تُمارِ سَفِيهاً ولا حَلِيماً ، واذكُرْ أَخَاكَ بِمَا تُحِبُّ أَنْ تُذْكَرَ بِهِ (٢) .

واعمَلْ عمَلَ رَجلٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُجَازَى بالإِحْسَانِ ، مَأْخُوذٌ بالإِجْرام ، وأَدِمْ شُكْرَكَ ، واَقْصُرْ مِنْ أَمَلِكَ ، وَزُرِ القُبُورَ بهَمِّكَ (٣) ، وَجُلْ في الحَشْرِ بقَلْبِكَ (٤).

---

(١) قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : ما كان خُلُقٌ أنقصَ عند أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب ، وما علِمَ رسولُ الله ﷺ من شيء منه من أحدٍ فيَخرُجَ له من نفسه حتى يَعلم أنه قد أحدَثَ توبة . رواه الإمام أحمد في كتاب « العِلَل » ١ : ٤٠٦ .

(٢) جاء في الأصل : (بما يُحبُّ أن يُذكر به) . والمثبت من النسخة المغربية . ومعنى قوله : (ولا تُمارِ سفيهاً ولا حليماً) أي لا تجادله ، فان الجدال لا يأتي بخير . وانظر التعليقة الآتية في ص ٧٨ ، ففيها الكلامُ عن الجدال .

(٣) عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال لي رسولُ الله ﷺ : « زُرْ القبور تَذْكُر بها الآخرة ، واغسِلْ الموتى فانَّ معالجةَ جسدٍ خاوٍ موعظة بليغة ، وصَلِّ على الجنائز لعلَّ ذلك يَحزُنك ؟ فانَّ الحزين في ظلِّ الله يوم القيامة » . رواه الحاكم في « المستدرك » ٤ : ٣٣٠ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، وقال الذهبي في « تلخيص المستدرك » : « صحيح » .

(٤) إنه أمرٌ ليس بالهيِّن ، إنه أمر تنصدع عنده كثيرٌ من القلوب =

. . . .

= إذا صاحَبَ التفكيرَ فيه اليقظةُ التامة ، وقد وقع ذلك في السلف لغير واحد .

جاء في سيرة التابعي الجليل (الرَّبيع بن خُثَيْم) — ويقال له أيضاً : الربيع بن خَيْثَم — ، تلميذِ الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أنه كان إذا دخل على عبد الله بن مسعود يقول له : واللهِ لو رآك رسولُ الله ﷺ لأحبّك ، وما رأيتُك إلا ذكرتُ المُخْبِتين . وفي لفظ آخر : كان إذا رآه قرأ قوله تعالى : ﴿ وبَشِّرِ المُخْبِتين ﴾ . أي الخاشعين . وكان الربيع كذلك .

قال الحافظُ الذهبيُّ في « تذهيب التهذيب » وغيرُه من المحدثين والمؤرخين في ترجمته : انطلق الربيع بن خَيْثَم وعبد الله بن مسعود إلى شاطىء الفرات ، فمَرّا بتلك الحدّادين ، فلما رأى الربيع تلك النيران — نيرانَ الحدّادين وشهيقَها وزفيرَها — ، قرأ قوله تعالى ﴿ إذا رأتْهم من مكانٍ بعيدٍ سَمِعوا لها تغيظاً وزَفيراً ﴾ وخَرَّ مغشياً عليه ، وحانت صلاةُ الظهر ، فناداه عبد الله بن مسعود : يا ربيع فلم يُجبه ، فذهب عبدُ الله فصلى بالناس الظهر ، ثم رجع إليه فناداه وقال : يا ربيع فلم يُجبه ، فانطلق عبد الله فصلى بالناس العصر ، ثم رجع إليه فقال : يا ربيع يا ربيع ، فلم يُجبه ، ثم انطلق عبد الله فصلى بالناس المغرب ، ثم رجع فقال : يا ربيع يا ربيع ، فلم يُجبه ! فما صَحَا من غشيته حتى ضربَتْه بَرْدُ السحر . انتهى .

وجاء في ترجمة الإمام المحدِّث الفقيه العابد الزاهد (عبد الله بن وهب القرشي المصري) صاحب الإمام مالك ، المتوفى سنة ١٩٧ رحمه الله تعالى ، في « ترتيب المدارك » للقاضي عياض ٣ : ٢٤١ : « قال يونس : قال ابنُ وهب : إن أصحاب الحديث طلبوا مني أن أُسمِعَهم صفةَ الجنة والنار . وما أدري أقدِرُ على ذلك؟ ثم قَعَدَ لهم ، فقرأوا عليه صفةَ النار فغُشِي عليه ، فرُشَّ =

وقالَ أبو ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنهُ : اعْمَلْ كَأَنَّكَ تَرى (١) ، وعُدَّ نَفْسَكَ في المَوْتَى ، واعلَمْ أَنَّ الشَرَّ لا يُنْسَى ، والخيرَ لا يَفْنَى ، واعلمْ أَنَّ قليلاً يُغْنِيكَ خَيرٌ منْ كَثيرٍ يُلْهِيكَ (٢) . وإيَّاكَ وَدَعْوَةَ المظْلُوم .

= بالماء وجهُه فلم يُفق . فقيل : اقرأوا عليه صفة الجنة، فلم يُفِق ، وبقي كذلك اثني عشر يوماً ، فدُعي له طبيب . فقال : هذا رجلٌ انصدع قلبُه ! ثم مات رحمه الله تعالى » . انتهى .

هذا ، وللمؤلف المحاسبي رحمه الله تعالى كتابٌ نفيسٌ في هذا المعنى ، سمّاه « التوهم » ، وهو مطبوع بمصر سنة ١٣٥٧ ، تحدَّث فيه عن شعور أهل النار وما يَلْقَون قبلَها وبعد الدخول فيها من أهوالٍ وعذاب ، كما تحدَّث فيه عن شعور أهل الجنة وما يجدون قَبْلَها وبعد الدخول فيها من نَعيم وتكريم وثواب ، وبيَّن هذا وذاك مَرْحلةً مرحلة ، حتى لكأنك تراهُ رأيَ العين ، وتُحِسُّه إحساسَ المباشِرِ له ، واستعرَضَه بلغة عالية مُشرِقة ، وبيانٍ مؤثرٍ بليغ ، يُفيدُ قارئه خشعةً وعِبرة ، ويُورثُه يقَظَةً لعمل الآخرة ، فعليكَ بقراءته ، والله يتولانا وإياك .

(١) أي تَرَى الله تعالى .

(٢) قال الحسن البصري رضي الله عنه : إياكم وما شَغَل من الدنيا ! فان الدنيا كثيرةُ الأشغال !! لا يَفتح رجل على نفسه بابَ شُغل إلا أوشك ذلك البابُ أن يَفتح عليه عشرةَ أبواب ! من « الحلية » لأبي نعيم ٢ : ١٥٣ . وقال التابعي الجليل قتادة : ما كَثُرَتْ النِّعَمُ على قوم إلا كثُرَ أعداؤها . رواه الإمام أحمد في « العلل » ١ : ١٧٤ .

ثُمَّ رُمَّ جِهَازَكَ (١) وافْرُغْ مِنْ زَادِكَ (٢) ، وكُنْ وَصِيَّ نفْسِكَ ، ولاَ تَجْعَلِ الرِّجَالَ أَوْصِياءَكَ (٣) ، واعقِلْ أَمْرَكَ ، وتَيَقَّظْ مِنْ سِنَتِكَ (٤) ، فإنكَ مسئُولٌ عن عُمْرِكَ . قالَ أَبُو أُمَامة رضِيَ اللهُ عنْهُ : لَوْ عَقَلَ ابنُ آدَمَ عنْ ربِّهِ كَانَ خَيراً لَهُ من جِهَادِهِ .

واعْلَمْ أَنَّ مَنْ جَعَلَ هَمَّهُ الآخِرَةَ كفاهُ اللهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ ، كَمَا ذُكِرَ في الحديث المرويّ : « تفَرَّغُوا مِنْ هُمُومِ الدُّنيا مَا استَطَعْتُمْ ، فإنهُ مَن كَانَتْ الدُّنيا أَكْبَرَ هَمِّهِ أَفْشَى اللهُ عليهِ ضَيْعَتَهُ (٥) ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عينيهِ (٦) ، ومَن كَانَتِ

---

(١) أي أصلح ما تحتاج إليه في آخرتك .

(٢) أي أنجِزْ إعداد ما تتزوَّدُ به لآخرتك .

(٣) جاء في « نهج البلاغة » ٤ : ١٤٥ منسوباً إلى سيدنا علي رضي الله عنه : = يا ابن آدم ، كن وصيَّ نفسك في مالك ، واعمَلْ فيه ما تُؤْثِرُ — أي ما تُحبُّ — أن يُعمَل فيه مِن بعدِك . وجاء هذا في كلام التابعي الجليل الربيع بن خُثَيم تلميذ عبد الله بن مسعود ، كما في « كتاب الزهد » للإمام أحمد ص ٣٣٣ .

(٤) أي من غفلتك ، نومك عن الآخرة .

(٥) أي كثَّرَ عليه معاشَه ليشغله عن الآخرة . كما في « النهاية » لابن الأثير .

(٦) أي جعله دائماً يشهد نفسَه فقيراً محروما !

الآخِرةُ أَكْبَرَ هَمِّهِ جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ غِناهُ في قَلْبِهِ . وَمَا أَقبَلَ عبدٌ بقلبه إلى الله عَزَّ وجَلَّ إلاَّ جَعَلَ اللهُ قُلُوبَ المؤمنين تَنْقَادُ إلَيه بالرَّحْمَةِ وَالمَوَدَّةِ »[١] .

واحذَرْ يا أَخي المِراءَ في القرآن[٢] ،

---

(١) الحديث ذكره السيوطي في « الجامع الصغير » بنحو هذا اللفظ ، وقال : « رواه الطبراني عن أبي الدَّرْداء » . وجاء في الأصلين : (جمع الله أمرَه) دون لفظ (له) . وجاءت الجملةُ الأخيرة منه في « الجامع الصغير » بلفظ « ... تَفِدُ إليه بالودّ والرحمة » . أي تُسرِع . وجاء بعدها : « وكان اللهُ تعالى بكلّ خيرٍ إليه أسْرَع » . قال شارحُهُ المُناوي في « فيض القدير » ٣ : ٢٦١ : « ضعّفه المنذري . وقال الهيثمي : فيه محمد بن سعيد بن حسان المصلوب ، وهو كذّاب . ا هـ . وكذا ذكَرَهُ غيرُه » . انتهى كلام المناوي . قلتُ : فعلى هذا يكون الحديث في غاية الضعف ، والله أعلم .

(٢) أي الشكّ فيه أي في كونه كلام الله تعالى ، أو المراد : الخوضُ فيه بأنه مُحدَث أو قديم ، أو المراد : المجادلةُ في الآيات المتشابهة ، أو المرادُ بالمِراء في القرآن : التدارؤ فيه ، وهو أن يَروم تكذيبَ القرآن بالقرآن ، ليَدفع بعضَه ببعض ، فيتطرّقَ إليه قدحٌ وطعن .

ومن حقّ الناظر في القرآن الكريم أن يجتهد في التوفيق بين الآيات ، والجمع بين المختلِفات ما أمكنه ، فان القرآن يُصدِّقُ بعضُه بعضاً ، فان أشكل عليه شيء من ذلك ، ولم يتيسر له التوفيق ، فليعتقد أنه من سُوء فهمه ، وليكِلْه إلى عالِمِه وهو اللهُ ورسولُه ، ﴿فان تنازعتم في شيء فردُّوه إلى الله والرسول﴾ .

ورَوى الإمام أحمد في «المسند» في (مسند أبي هريرة) ٢ : ٣٠٠ عنه =

والجِدالَ في الدين[1] ،

= رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « نَزَل القرآن على سبعة أحرف ، المِراءُ في القرآنِ كفر ، ثلاثَ مرَّات ، فما عرفتم منه فاعملوا به . وما جَهِلتم منه فرُدُّوه إلى عالِمِه » . أفاده العلامة المناوي رحمه الله تعالى في « فيض القدير » ٦ : ٢٦٥ .

= (١) الجدال : المخاصمةُ والمغالبة . مأخوذ من قولك : جَدَلْتُ الحبْلَ أجدُلُه جَدْلاً إذا أحكمتَ فتْلَه . فكأنَّ المتجادلَين يَفْتِلُ كلٌّ واحد منهما بكلامه : الآخَرَ عن رأيه وقصده ، لينصر رأيَ نفسه . وهو مذموم إلا على وجه الإنصاف ، أو لإظهار الحق . ولكن ما أقلَّه وأقلَّ أهلَه اليوم ؟!

وقد حذَّر النبي ﷺ من الوقوع في (الجدَل) ، وجعَلَه سبباً يتحوَّلُ به الناسُ من الهُدَى إلى الضلال ، روى الصحابي الجليل أبو أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ما ضلَّ قومٌ بعدهُدَى كانوا عليه إلا أُوتوا الجدَل ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ ما ضَرَبُوه لكَ إلا جَدَلاً بل هم قومٌ خَصِمون ﴾ . رواه الإمام أحمد في « المسند » ٥ : ٢٥٢ . والترمذي ١٢ : ١٣٣ وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه ١ : ١٩ ، والحاكم في « المستدرك » ٢ : ٤٤٨ وقال : « صحيح » ، وأقرَّه الذهبي .

وروى الإمام أحمد في « المسند » ٢ : ٣٥٢ و ٣٦٤ عن مكحول عن أبي هريرة — ومكحول لم يسمع منه فالسنَدُ فيه انقطاع — : أن النبي ﷺ قال : « لا يؤمِنُ العبدُ الإيمانَ كلَّه حتى يترك المِراءَ وإن كان صادقاً » أي مُحِقّاً .

وروى الترمذي ٨ : ١٦٠ — بسند فيه ضعف — عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « لا تُمارِ أخاك » . وروى الترمذي أيضاً ٨ : ١٥٩ وحسَّنه ، وابن ماجه ١ : ١٩ عن أنس مرفوعاً : « من ترَكَ المِراءَ وهو مُحِقٌّ =

والكلامَ في التَّحْدِيد[١] ، وكُنْ مِن الَّذِين قال اللهُ عزَّ وجَلَّ فيهم : ﴿ وإذا خاطَبَهم الجاهلون قالوا سَلاماً ﴾[٢] .

والزمِ الأَدبَ ،وفارِقِ الهوى والغَضَبَ ،واعْمَلْ في أَسباب التيقُّظِ[٣] ، واتَّخِذِ الرِّفْقَ حِزْباً ، والتَّأَنِّيَ صَاحِباً ، والسلامةَ

= بُنِي له قصرٌ في وسَطِ الجنة » . انتهى .

وذلك أن الجدال يولِّدُ النَّفْرة والكراهة ، ويُسبِّبُ الإيحاش بين المتحابَّيْنِ فضلاً عن غيرهما ؛ فلذا كان لتاركه — وهو محق — هذا الأجر الجسيم ، فينبغي اجتنابُه والبُعدُ عنه .

(١) المرادُ به : ذِكرُ الحدِّ لله تعالى سبحانه .

(٢) من سورة الفرقان : ٦٣ .

(٣) ذلك لأن مفاتن الدنيا برَّاقة خلاَّبة ، تجلب لك الغفلة عن عاقبتك ، وتُنسيك ما أنت صائر إليه ! فالعمَلُ على تحصيل أسباب التيقظ لازمٌ لك ، لسلامتك من دار الغرور . وما أصدقَ ما قاله ابنُ المُقَفَّع وهو يُصوِّرُ غفلة الإنسان عن آخرته يلهو ببوارق زيف الحياة ، فتَصدُّه عن سبيل قصده وغايته ، فيهلك وهو مخدوع بمفاتنها . قال في كتابه « كليلة ودِمنة » ص ٨٩ قَبْلَ باب الأسد والثور :

« التمستُ للإنسان مثَلاً فاذا مثَلُه مثَلُ رجلٍ نجا من خوفِ فيلٍ هائج إلى بئرٍ فتدلىَّ فيها ، وتعلَّق بغُصنينِ كانا على سَمَائها — أي على أعلى البئر — فوقعتْ رجلاه على شيء في طيّ البئر ، فاذا حيّاتٌ أربعُ قد أخرجْنَ رؤسهن من أجحارهن .

ثم نظر فاذا في قعر البئر تِنِّينٌ — هو نوع من الحيّات كأكبر ما يكون =

كَهْفاً ، والفراغَ غنيمَةً ، والدُّنيا مَطِيَّةً ، والآخِرةَ مَنْزِلاً [١] .

وقال الحسَنُ رضي الله عنه [٢] : إنَّ الله تعالى لَمْ يَجْعَلْ لِلمُؤْمِنِ راحةً دون الجنة [٣] .

= منها، طويل كالنخلة السحوق، أحمر العينين مثل الدم، واسع الفم يبتلع كثيراً من الحيوان ، في فمه أنياب مثل أسنّة الرماح — فاتحٌ فاه منتظرٌ له ليقع فيأخذه ، فرفع بصرَهُ إلى الغُصنين فاذا في أصلهما جُرَذانِ — فأرانِ كبيران — أسود وأبيض ، وهما يَقْرِضانِ الغُصنين دائبينِ لا يَفْتُران !

فبينما هو في النظرِ لأمره والاهتمامِ لنفسه ، إذ أبصَرَ قريباً منه كوَارَةً — بيتَ النحل — فيها عسَلٌ ، فذاقَ العسَلَ فشَغَلَتْه حلاوتُه ، وألهتْهُ لذّتُه عن الفِكرة في شيءٍ من أمره ، وأن يلتمس الخلاصَ لنفسه ، ولم يذكر أن رجليه على حيّاتٍ أربعٍ لا يَدري متى يقع عليهن ، ولم يذكر أنَّ الجُرَذَيْن دائبانِ في قطعِ الغُصنين ، ومتى انقطعا وقع على التِّنِّين ! فلم يزل لاهياً غافلاً مشغولاً بتلك الحلاوة حتى سقط في فم التِّنِّين فهلك !! » . انتهى .

فيا عبد الله لا تغفُلْ عن آخرتك ، سلّمني الله وإياك من الغفلة .

(١) وقع في الأصلين : (منهلاً) . وهو تحريف عما أثبتُه .

(٢) هو : الحسنُ البصريُّ التابعيُّ الجليل ، سيدُ الزُّهّادِ والعُبّاد في عصره ، وهو الذي قيل فيه : يُشبِهُ كلامُهُ كلامَ الأنبياء رضي الله عنه .

(٣) وقال الحسَنُ أيضاً رضي الله عنه : « فَضَحَ الموتُ الدنيا ، فلم يترك فيها لذي لُبٍّ فَرَحاً » . من « تاريخ الإسلام » للذهبي ٤ : ١٠٢ .

وكان مالك بن دينار تلميذ الحسن يقول : « عُرْسُ المتقين يوم القيامة » . من « الحلية » لأبي نعيم ٢ : ٣٨٠ .

واحذَرْ مَواطِنَ الغَفْلَة ، ومَخَاتِلَ العَدُوّ [١] ، وطَرَبَاتِ الهَوَى[٢] ، وضَراوةَ الشهوة[٣] ، وأَمانيَّ النَّفْس، فإنَّ رسول الله

(١) أي مَخادِعَه . ووقع في الأصلين : (مخايل العدوّ) . وهو تحريف .

(٢) أي هَجَمَاتِ الهوى التي تستخِفُّك للمعصية حتى تُلقيك فيها .

(٣)أي شِدَّتَها واستعارَها ،وبقليلٍ من المصابرة على الشهوة مع ذكرِ الله تعالى والنظرِ في عاقبة طاعة الشهوة،وعاقبةِ عصيانها ، يكون ذلك الفوزُ والتغلُّبُ عليها ، ويَغمرُكَ الرضوانُ العظيم منَ الله تعالى ، ويستنيرُ قلبُك ، وتسمو رُوحُك ، ويربو إيمانُك ، وتَحُفُّ بك الملائكة ، وتَشعُرُ بنفحات روحانية سماوية لا تَستَوْفيها العبارات ، وما أجملك منتصراً على الشهوة تَفرحُ بك الملائكة ، وتغشاك داعيةٌ مهنئة ؟ وما أقبحَك — حتّى عند نفسك — منتصرةٌ عليك الشهوةُ ، تَفرحُ بك الشياطين ويَحيقُ بك سَخَطُ الله! نسأل الله لنا ولك السلامة .

ورحم الله الشيخ ابن القيِّم إذ يقول في كتابه « الفوائد » ص ١٣٩ « واعلم أنَّ الصبر عن الشهوة أسهلُ من الصبر على ما تُوجبه الشهوة ، فانَّ الشهوة : إما أن توجب ألماً وعقوبة ، وإما أن تَقطع لذَّةً أكملَ منها ، وإما أن تضيع وقتاً إضاعتُه حسرة وندامة ، وإما أن تَثْلِمَ عِرْضاً توفيرُهُ أنفعُ للعبد من ثَلْمه ، وإما أن تُذهب مالاً بقاؤه خير من ذهابه ، وإما أن تَضع قَدْراً وجاهاً قيامُهُ خيرٌ من وضعه ، وإما أن تَسلُبَ نعمةً بقاؤها ألذُّ وأطيبُ من قضاء الشهوة ، وإما أن تُطرِّق لوضيعٍ إليك طريقاً لم يكن يجدُها قبلَ ذلك ، وإما أن تجلب همّاً وغمّاً وحُزناً وخوفاً لا يُقارِبُ لذَّة الشهوة ، وإما أن تُنسِيَ علماً ذِكرُه ألذُّ من نيلِ الشهوة ، وإما أن تُشْمِتَ عَدوّاً ، وتُحزِنَ وليّاً ، وإما أن تَقطع الطريقَ على نعمةٍ مقبلة ، وإما أن تُحدِث عَيْباً يَبقى صِفةً لا تزول ، فانَّ الأعمال تُورث الصِّفاتِ والأخلاق » .

وسيأتي تعليقاً في هذا المعنى كلامٌ ضافٍ جداً في ص ١٥٥—١٦٠ ، فانظره .

ﷺ قال : « أَعدى أَعدائِكَ نفسُكَ التي بين جَنْبَيْكَ » (١) . وإنما صَارتْ أَعدى أَعدائِكَ لِطَاعتِكَ لَهَا .

وكلُّ أَمرٍ لاحَ لكَ ضَوْءُهُ بمِنهاجِ الحقّ ، فأَعرِضْهُ عَلَى الكتاب والسُّنَّة والآدابِ الصالحة (٢) ،

---

(١) وقع في النسخة المغربية : (أعدى أعاديك) في الموضعين . والحديث رواه البيهقي في « كتاب الزهد » بإسناد ضعيف ، وله شاهد من حديث أنس . ويجري على ألسنة كثيرين : أعدى عَدُوَّيْك ، بالتثنية . ولا أصل له بهذا اللفظ ، والمشهورُ على الألسنة : أعدى عَدُوّك ، بالإفراد، أفاده العلامة العجلوني في « كشف الخفاء ومُزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس » ١ : ١٤٣ .

وقال الحافظ العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » أوائل كتاب عجائب القلب ٨ : ٧ : « أخرجه البيهقي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس ، وفيه : محمد بن عبد الرحمن بن غَزْوان ، أحَدُ الوضّاعين ! » . انتهى . وقال الزبيدي في « شرح الإحياء » ٧ : ٢٠٦ عقبَ كلام العراقي : « ووجدتُ بخط الحافظ ابن حجر ما نَصُّهُ : وللحديث طرق أخرى غير هذه من حديث أنسٍ وغيره » .

(٢) قال الجُنَيد رحمه الله تعالى : مذهبُنا هذا مقيّد بالأصول : بالكتاب والسنة ، فمن لم يحفظ الكتاب ، ويكتب الحديث ، ويَتفقّه ، لا يُقتَدى به . انتهى من « إغاثة اللهفان » ١ : ١٢٥ للشيخ ابن القيم رحمه الله تعالى .

وقال الشيخ الشّعراني رحمه الله تعالى في كتابه : « كشف الغُمّة » ١ : ١٠ : « كلُّ طريقٍ لم يَمْشِ فيه الشارعُ ﷺ فهو ظلام ، ولا يكون أحدٌ ممن مشّى =

. . . .

= فيه على يقينٍ من السلامة وعدمِ العَطَب ». وقال رحمه الله تعالى: « دُورُوا مع الشرع كيفَ كان ، لا مع الكشفِ فانه يُخطىء ، وينبغي إكثارُ مطالعةِ كتب الفقه ، عكسُ ما عليه المتصوِّفةُ الذين لاحَتْ لهم بارقةٌ من الطريق فمَنعوا مطالعة الفقه ! وقالوا : إنه حجابٌ ! جهلاً منهم ! » . نقله ابنُ العماد الحنبلي في « شَذَرات الذهب » في ترجمة الشعراني ٨ : ٣٧٤ .

وقال الإمام الغزالي في « الإحياء » ١ : ٣٧ — ٣٨ : « قال الجنيد رحمه الله قال لي السَّرِي شيخي يوماً : إذا قمتَ من عندي فمن تجالس ؟ قلتُ : المُحاسبيَّ ، فقال : نعَمْ ، خُذْ مِن علمِه وأدبِه ، ودَعْ عنك تشقيقَه الكلام وردَّه على المتكلِّمين . ثم لما ولَّيتُ سمعتُه يقول : جَعَلَك اللهُ صاحبَ حديثٍ صُوفياً ، ولا جَعَلك صُوفياً صاحبَ حديث » .

قال الغزالي : أشار إلى أن من حصَّل الحديث — أي العلم — ثم تصوَّف أفلح ، ومن تصوَّف قبل العِلم خاطَرَ بنفسه » .

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في كتابه : « شرح حديث العلم » ص ١٦ : « وكثيرٌ ممن يدَّعي العلم الباطن ويتكلَّم فيه ويقتصرُ عليه : يَذمُّ العِلمَ الظاهر الذي هو الشرائع والأحكام والحلال والحرام ، ويطعنُ في أهله ويقول : هم محجوبون وأصحاب قشور !

وهذا يُوجبُ القدحَ في الشريعة المطهرة والأعمالِ الصالحة التي جاءت الرسلُ بالحثّ عليها والاعتناء بها ، وربما انحلَّ بعضُهم عن التكاليف وادَّعى أنها للعامة ، وأمّا من وَصَل فلا حاجة به إليها وأنها حجاب له !

وهؤلاء كما قال الجُنَيد وغيرُه من العارفين : وصلُوا ولكن إلى سَقَر . وهذا من أعظم خِداعِ الشيطان وغروره لهؤلاء ، لم يزل يتلاعب بهم حتى أخرجهم عن الإسلام .

=

فإنْ خَفِيَ عليكَ أَمْرٌ فَخُذْ فيه رَأْيَ مَنْ تَرْضَى دِينَه وعَقْلَهُ .

واعلمْ أَنَّ على الحقِّ شاهداً بقبولِ النَّفْسِ لَهُ[1]. أَلا تَرى لِقَوْلِ رسول الله ﷺ: « ٱستَفْتِ قَلبَكَ وإنْ أفتَاكَ ٱلْمُفْتُونَ »[2]

= ومنهم من يظنّ أن هذا العلم الباطن لا يُتلقّى من مشكاة النبوة ، ولا من الكتاب والسُّنّة ! وإنما يُتلقّى من الخواطر والإلهامات والكشوفات !! فأساؤا الظنّ بالشريعة الكاملة ، حيث ظنّوا أنها لم تأتِ بهذا العلم النافع ، الذي يُوجبُ صلاحَ القلوب وقُرْبَها من علام الغيوب ! وأوجَبَ ذلك لهم الإعراضَ عما جاء به الرسول ﷺ في هذا الباب بالكليّة ! والتكلُّمَ فيه بمجرّد الآراء والخواطر ، فضَلّوا وأضلّوا » .

(١) فانّ الفِطَر السليمة تقبل الحق وترفض الباطل بطبيعة ما فطرها الله عليه . ولا يزال الحقُّ يُعتَبَرُ ظاهراً على الباطل ما تعلّقَت القلوبُ به وثَبتَتْ عليه . جاء في « مناقب الإمام أحمد » ص ٣١١ لابن الجوزي رحمه الله تعالى : « قيل لأحمد بن حنبل أيامَ المِحنة — أي أيامَ ظهور المعتزلة على أهل السنة ودعوتِهم الناس بسلطان الدولة إلى القول بخلق القرآن — : يا أبا عبد الله : ألا ترى الحقّ كيف ظَهَر عليه الباطل ؟! فقال : كلاّ ! إنّ ظهور الباطل على الحقّ أن تنتقِلَ القلوبُ من الهُدَى إلى الضلالة ! وقلوبُنا بعدُ لازِمةٌ للحقّ » .

(٢) رواه بهذا اللفظ البخاريُّ في « التاريخ الكبير » عن الصحابيّ الجليل وابِصة بن مَعْبَد الأسَدي رضي الله عنه ، كما في « الجامع الصغير » للسيوطي ، وذَكَره النوويُّ في « الأربعين حديثاً » تحت عنوان (الحديث السابع والعشرون) بأتمّ من هذا اللفظ ، وقال : « حديثٌ حسن ، رَوَيناه في مُسْنَدَي الإمامين أحمد بن حنبل والدارمي بإسنادٍ حسن » .

قال الإمام الغزاليُّ في « الإحياء »٥ : ٦ عند هذا الحديث : «وما أعزّ =

. . . .

= مثلَ هذا القلب؟ ولذلك لم يَرُدَّ عليه السلام كلَّ أحدٍ إلى فتوى القلب ، وإنما قال ذلك لوابِصةَ لِما كان قد عرَفَ مِنْ حالِه » .

قال العلامة المُناوي في « فيض القدير » ١ : ٤٩٥ : « قال بعضُ العلماء : وبفَرْضِ عموم الخطاب في هذا الحديث فالكلامُ فيمن شَرَحَ الله صدرَه بنور اليقين ، فأفتاه غيرُه بمجرَّد حَدْسٍ أو مَيْلٍ ، من غير دليل شرعي ، وإلا لَزِمَه اتّباعُه وإن لم يُشرَح له صَدْرُه ، انتهى » .

وقال الحافظ ابنُ رجب في « جامع العلوم والحِكَم »ص ٢٢١ — ٢٢٢ : « وهذا الحديث يدلُّ على أنَّ الله فَطَرَ عبادَه على معرفة الحق والسُّكونِ إليه وقبولِه ، وركَّزَ في الطباع محبّةَ ذلك والنفورَ عن ضدّه ، ولهذا سَمّى سبحانه ما أمَرَ به (معروفاً) وما نَهَى عنه (منكراً) ، وأخبرَ أنَّ قلوب المؤمنين تطمئنُّ بذكره . فدَلَّ حديثُ وابِصةَ على الرجوع إلى القلب عند الاشتباه ، فما سَكَنَ إليه القلبُ وانشرح إليه الصدرُ فهو البِرُّ والحلال ، وما كان خلافَ ذلك فهو الإثمُ والحرام » .

وقال العلامة ابنُ حجر الهيتمي المكي في « الفتح المبين بشرح الأربعين » ص ١٩٢ : « وفي جوابِه ﷺ لوابِصةَ بهذا : إشارةٌ إلى مَتَانةِ فهمه ، وقوّة ذكائه ، وتنويرِ قلبه ، لأنه ﷺ أحاله على الإدراك القلبي ، وعَلِمَ أنه يُدرِكُ ذلك مِن نفسه ، إذ لا يُدرِكُ ذلك إلا مَن هو كذلك . وأمّا الغليظُ الطبعِ ، الضعيفُ الإدراكِ فلا يُجابُ بذلك ، لأنه لا يتحصّلُ منه على شيء ، وإنما يُفصَّل له ما يَحتاج إليه من الأوامر والنواهي الشرعية . وهذا مِن جَميلِ عاداته ﷺ مع أصحابه ، فانه ﷺ كان يخاطبهم على قَدْرِ عقولهم ، ومِن ثَمَّ قالتْ عائشةُ رضي الله عنها : أمَرَنا رسولُ الله ﷺ أن نُنْزِلَ الناسَ مَنَازلهم » .

وَقيِّدِ الجوارِحَ بإحكامِ العِلْمِ[1]، وراعِ هَمَّكَ بِمَعْرِفَةِ قُرْبِ الله مِنكَ، وَقُمْ بينَ يَدَيهِ مَقَامَ العَبدِ المستَجِيرِ: تَجِدْهُ رَؤُوفاً رَحِيماً[2]. قال رسول الله ﷺ: « إنَّ اللهَ عَزَّ

---

(١) أي لا تُحرِّكْ جارحةً من جوارحك إلا أن يكون لديك علم — من الشارع الحكيم — بجواز ما تفعله وصحته، وإلا كان تصرُّفك عليك لا لك، قال سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: من عَمِلَ على غير علم، كان ما يُفسِدُ أكثرَ مما يُصلح.

(٢) وما أسرَعَ إجابتَه وما أشدَّ عونَه لمن وقف بين يديه مستجيراً به، ليس في قلبه إلا الله تعالى.

نقل الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ٣: ٣٧١عند قوله تعالى في سورة النمل ﴿ أمَّنْ يُجيبُ المضطرَّ إذا دَعاهُ ويكشِفُ السُّوءَ ؟﴾. نقَلَ عن الحافظ ابن عساكر الدمشقي قال: « كان رجل مُكَارِياً على بغل له — أي يُركِبُ الناسَ على بغل له للسفر بالأجرة —، يُكارِي به من دمشق إلى الزَّبَداني، فركب معه ذاتَ يوم رجل، قال: فمررنا على بعض الطريق عن طريق غيرِ مسلوكة.

فقال لي الرجل: خذ في هذه الطريق فإنها أقرب، فقلت له: لا خِبْرَة لي بها، فقال: بل هي أقرب. فسلكناها، فانتهينا إلى مكانٍ وَعْرٍ ووادٍ عميق فيه قتلى كثيرون، فقال لي الرجل: أمسِكْ رأسَ البغلِ حتى أنزلَ، فنزل وتشمَّر وجمَعَ عليه ثيابَه، وسَلَّ سِكِّيناً معه، وقصَدَني من بين يديه — فهربتُ — وتَبِعَني! فناشدتُه الله وقلتُ له: خُذْ البغلَ بما عليه، فقال: هو لي، وإنما أُريدُ قتلك، فخوَّفتُه بالله تعالى والعقوبةِ منه، فلم يَقبل!

فاستَسلمتُ بين يديه، وقلت له: إن رأيتَ أن تتركني حتى أصلي ركعتين، =

وَجَلَّ يُنْزِلُ العَبْدَ مِنْ نفسِهِ بِقَدْرِ مَنزِلَتِهِ مِنْهُ »[١] .

= فقال: لك ذلك وعجِّلْ، فقمتُ أصلي، فأُرْتِجَ علي — أي ذهَبَ عني كلُّ ما أحفظه من القرآن — ، فلم يَحضُرني منه حرف واحد ، فبقيتُ واقفاً متحيِّراً وهو يقول لي : هيّا افرُغْ ، فأجرَى الله على لساني قولَه تعالى: ﴿ أمَّنْ يُجِيبُ المضطرَّ إذا دعاه ويَكشِفُ السُّوءَ ؟ ﴾ . فاذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادي ، وبيده حَرْبةٌ فرَمَى بها الرجل فما أخطأتْ فؤادَه ، فخَرَّ صريعاً .

فتعلّقتُ بالفارس ، وقلتُ له : بالله من أنت ؟ فقال : أنا عَبْدُ ﴿ من يُجيبُ المضطرَّ إذا دعاه ويكشِفُ السُّوء ﴾ . قال : فأخذتُ البغلَ والحِمْلَ ورجعتُ سالماً » . انتهى . فسبحان من يُجيرُ ولا يُجارُ عليه .

(١) هو جزء من حديث ورَدَ في فضل ذكرِ الله عز وجل بنحو هذا اللفظ ، وأوَّلُه عن جابر مرفوعاً : « يا أيها الناس إنَّ لله سرايا من الملائكة تَحِلُّ وتقفُ على مجالس الذكر في الأرض ... إن الله يُنزِلُ العبدَ منه حيث أنزلَهُ مِن نفسِه » . قال الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » ٣ : ٦٥ و ٥ : ٥٣٤ : « رواه ابنُ أبي الدنيا وأبو يعلى والبزار والطبراني والبيهقي والحاكم وقال : صحيحُ الإسناد . وفي أسانيدهم كلّها عُمَرُ مولى غُفرة ، ضعّفه ابنُ مَعين والنّسائي ، وقال أحمد : ليس به بأس ، لكن أكثر حديثه مراسيل ، وقال ابن سعد : ثقة كثير الحديث . وبقيةُ أسانيدهم ثقات مشهورون محتجّ بهم ، والحديثُ حَسَن ، والله أعلم » . انتهى .

قلت : قال الحافظ الذهبي في « تلخيص المستدرك » ١ : ٤٩٥ بعد رواية الحاكم له وقولِه : صحيح الإسناد . : « قلتُ : عُمر ضعيف » .

وقال الذهبي أيضاً في « الميزان » في ترجمة (عمر) ٢ : ٢٦٤ بعد أن ساق ما نقله المنذري فيه : « وقال ابنُ حِبّان : كان ممن يقلِبُ الأخبار ، ... =

وذلكَ عَلَى قدرِ الخشية لله ، والعلمِ به ، والمعرفةِ لَهُ .

واعلم أَنَّه مَنْ آثَرَ اللهَ آثره [1] ، ومن أطاعه فقد أَحبَّه ، ومَنْ تَرَك له شيئاً لم يُعَذِّبْهُ به ، كما قال رسول الله ﷺ : « دَعْ ما يَريبُكَ إلى ما لا يَريبُكَ » . فإنك لن تَجِدَ فَقْدَ شيءٍ تركتَهُ لله [2] .

= يروي عن الثقات ما لا يُشبه حديثَ الأثبات ، لا يجوز الاحتجاجُ به ، ولا ذِكرُهُ في الكتب إلا على جهة الاعتبار » . ثم ساق الحديثَ المذكور مساقَ الشاهد لقول ابن حِبّان فيه .

وقال الحافظ ابن حجر في « التقريب » : « عُمر بن عبد الله المدني مولى غُفْرة : ضعيف ، وكان كثير الإرسال » . انتهى . فالحديثُ ضعيف ، وتحسينُ الشيخ المنذري له غيرُ حَسَن ، والله أعلم .

(١) أي من قدَّمَ طاعةَ الله على حظِّ نفسه اختصّه الله بالقُرْب منه والرضا عنه .

(٢) رواه بهذا اللفظ كلِّه من حديث مالك عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً : أبو نعيم في « الحلية » ٦ : ٣٥٢ ، والخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » ٢ : ٣٨٧ ، ولكن في سنده مطاعن كما أشار إلى ذلك كلٌّ من أبي نعيم والخطيب ، ومرجع المطاعن فيه إلى لفظ زيادةِ (فانك لن تجد فقد شيء تركته لله) . فهي زيادة غير ثابتة ، فلذا جعلتُها خارجَ الهلالين للحديث .

إذ قد جاء بلفظ « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » . دون تلك الزيادة من حديث أنس عند الإمام أحمد في « مسنده » ، ومن حديث الحسن بن =

واحْمِ القَلْبَ عن سُوءِ الظنّ بحُسْنِ التأْويل ، وادفعِ الحَسدَ بِقِصَرِ الأَمَل ، وانْفِ الكِبْرَ باستبطان العزِّ (١) ، واترُكْ كلَّ فعلٍ يَضطرُّك إلى اعتذار(٢) ، وجانِبْ كلَّ حال يَرمِيك في التكلُّف ، وصُنْ دِينَك بالاقتداء ، واحفَظْ أَمانَتَك بطَلَب العِلْم ، وحَصِّنْ عقلَك بآدابِ أَهلِ الحِلْم ،

= علي عند النسائي ، ومن حديث وابصة بن معبد عند الطبراني ، كما في « الجامع الصغير » للسيوطي . وقال شارحه العلامة المناوي في « التيسير بشرح الجامع الصغير » ٢ : ٧ « وإسنادهُ حسن ، وله شواهد ترقيه إلى الصحة » .

وروى الإمام أحمد في « مسنده » والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم في « المستدرك » ٢ : ١٣ وأبو نعيم في « الحلية » ٨ : ٢٦٤ «عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : دَعْ ما يَريبك إلى ما لا يَريبك ، فان الحق طُمأنينة ، وإن الشرَّ رِيبة » . قال الحاكم : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . وأقره الذهبي فقال : « حديث صحيح » .

وجملةُ (فانك لن تجد فقد شيء تركتَه لله) جاءت من كلام القاضي شريح ، كما في ترجمته عند ابن سعد في « الطبقات الكبرى » ٦ : ١٣٦ . والله أعلم . ووقع في الأصلين هكذا : (من ترك له شيئاً لم يعذبه به ، قال : دع ما يريبك ...) .

(١) وقع في الأصل : (بلسطان) . وجاء في النسخة المغربية : (بسلطان) وكلاهما تحريف .

(٢) قال سيدنا علي رضي الله عنه : إياك وما يَسبقُ إلى العقول إنكارُه ، وإن كان عندك اعتذارُه . من « مراقي الفلاح » للشرنبلالي ص ٦٦٢ .

وٱستَعِدَّ الصَّبْرَ لكلِّ موطن ، والزَمْ الخَلْوَةَ بالذِّكْرِ [١] ، واصحَب النِّعَم بالشُّكْرْ .

واستَعِنْ بالله في كلِّ أمْرٍ ، واسْتَخِرِ اللهَ في كلِّ حال ، وما أرادَكَ اللهُ لَهُ فاتْرُكِ الاعتراضَ فيه ، وكلُّ عَمَلٍ تُحِبُّ أَنْ تَلْقَى اللهَ به فأَلْزِمْهُ نَفْسَكَ ، وكلُّ أمْرٍ تكْرهه لِغَيرِكَ فاعْتَزِلْهُ مِنْ أَخْلاقِكَ . وكلُّ صاحبٍ لا تَزْدَادُ به خَيراً في كُلِّ يَوْمٍ فانبِذْ عنكَ صُحْبَتَهُ . وخُذْ بِحَظِّكَ مِنَ العَفْوِ والتَّجَاوُزِ [٢] .

---

(١) أي اذكُر الله تعالى خالياً منفرداً ، فانّ ذلك أبعد عن الرياء ، وأرجى للقبول من الله تعالى ، ففي حديث السبعة الذين يُظِلُّهم الله تحت ظل عرشه يوم القيامة : « ورجلٌ ذكَرَ اللهَ خالياً ... » .

(٢) يشير المؤلف إلى أنك إذا وقعتَ في خصومة مع إنسان ، فالعفو والتجاوز خيرٌ لك مرداً من الاستمرار واللَّدَد في الخصومة . وقد صدَقَ رحمه الله تعالى ، فان الخصومة تمحقُ الدين ، وتَشغلُ العقل ، وتَقتل طُمأنية القلب والخاطر ، وتُقِضُّ المضاجع ، وتجعل سُوَيداءَ الإنسان جحيماً دائمَ الاستعار والاتِّقاد . فالعفو والتجاوز — وإن صاحَبَه هضم وغَبْن — أغنمُ حظاً ، إذ يقضي على هذه الآثارِ كلِّها ، ويُعوِّضُ بدلاً منها الراحةَ والسكينة والفضل والإحسان .

وقد وقعتْ للإمام ابن قُتَيْبَة — وهو اللبيب الأريب — خصومةٌ بينه وبين ابن عم له ، فلَجَّ ابنُ قتيبة فيها حتى انتهَتْ به إلى مجلس القضاء ، ثم =

واعْلَمْ أَنَّ المؤمِنَ يُخْتَبَرُ صِدْقهُ في كُلّ حَال ، مُطَّلَبٌ نفسُهُ بالْبَلْوَى (١) ، رقيبٌ للهِ عَلَى نَفْسِهِ . فاثْبُتْ عَلَى مَحَجَّةِ الحقّ فإنكَ مُرَادُ العَوْنِ (٢) .

= عدَلَ عنها إكراماً لنفسه فكان من الغانمين .

قال ابن قُتَيبة : مَرَّ بي بِشْر بن عبد الله بن أبي بكرة ، فقال : ما يُجلِسُك ها هنا ؟ قلتُ : خُصُومةٌ بيني وبين ابنِ عم لي ، فقال : إنَّ لأبيك عندي يداً ، وإني أريد أن أجزِيَك بها ، واللهِ ما رأيتُ شيئاً أذهبَ للدين ، ولا أنقَصَ للمروءة ، ولا أضيعَ للذَّة ، ولا أشغَلَ للقلب من الخصومة .

قال ابن قتيبة : فقُمتُ لأنصرف ، فقال لي خَصْمي : مالك ؟ قلت : لا أُخاصِمُك ، قال : إنك عرفتَ أن الحق لي ؟ قلتُ : لا ، ولكن أُكرِمُ نفسي عن هذا ، وتركتُ الخصومة . حكاها الإمام الغزالي في « الإحياء » في كتاب آفات اللسان في ذكر (الآفة الخامسة : الخصومة) .

(١) هكذا جاء مشكولاً في الأصل ، ومعناه — على ما يظهر — أنَّ المؤمِنَ تَقصَدُ نفسُه بالابتلاء والاختبار . وجاء في النسخة المغربية : (يَطلبُ نفسَه بالبلوى) . أي يَمتحِنُ نفسَه بالصبر على البلوى ، والله أعلم .

(٢) ولما أُخِذَ الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، بمِحنة مسألة (خلق القرآن) ، وحُبِس ، وقُيِّد بالحديد في رجليه : لم يُبالِ بالحبس ، ولا أن يُقتَل بالسيف ، ولكن خاف أن يَضعُفَ جسمُه عن تحمُّل العذاب من ضرب السياط ، فيَضعُفَ صبرُه على الحق ! فجاءته كلماتُ التأييد والتثبيت على الحق ، والتصبيرِ على البلاء والعذاب في سبيل الله، ممَّن لا يُظَنّ أن يأتي منهم شيء . =

. . . .

= جاءته من اللُّصوص والشُّطّار وبعضِ أهل البادية ، فقويَتْ نفسُه للصبر على العذاب ، فجُلِدَ ، وخُلِعَتْ كتفاه ، وضُرِبَ بالسياط ضرباً شديداً حتى غُشِيَ عليه ، فصَبَّر وانتصر الحقُّ وأحمدُ بن حنبل ، وبطَلَ ما كانوا يعملون ، وقَرَّتْ عيونُ المسلمين أهلِ السُّنّة بصبره وشجاعته وانتصارِه إلى قيام الساعة .

جاء في « مناقب الإمام أحمد » لابن الجوزي ص ٣١٦ و ٣٣٢ و ٣٣٥ ما خلاصته : « لما أُخِذَ أحمد من بغداد ، وسافروا به إلى الرَّقّة ، فحُبِسَ بها ، دخَلَ عليه بعضُ العلماء يذاكرونه فيما يُروَى من الأحاديث في العمل بالتقيّة ، فأبى أحمد أن يَسلك التقية قائلاً لهم : كيف تصنعون بحديث خَبّاب « إنَّ مَن كان قبلكم كان يُنشَرُ أحدُهم بالمنشار ، ثم لا يَصُدُّه ذلك عن دينه » . فيئسوا منه أن يَعمل بالتقية .

فقال لهم : لستُ أبالي بالحبس ، ما هو ومَنْزِلي إلا واحد ، ولا قتلاً بالسيف ، إنما أخاف فتنةً بالسوط ، وأخاف أن لا أصبِر ! فسمعَه بعضُ أهل الحبس فقال له : لا عليك يا أبا عبد الله ، فما هو إلا سوطان ثم لا تدري أين يقع الباقي . فكأنه سُرِّي عنه .

قال أحمد — رضي الله عنه — : ما سمعتُ كلمةً منذ وقعتُ في هذا الأمرِ الذي وقعتُ فيه ، أقوى من كلمة أعرابي كلّمني في رَحَبَة طَوْق — اسم مكان — ، قال لي : يا أحمد إن يَقتُلْك الحقُّ مِتَّ شهيداً ، وإن عِشتَ عِشتَ حميداً ، فقَوِيَ قلبي .

قال ابنُه عبد الله : كنتُ كثيراً أسمَعُ والدي — أحمد بن حنبل — يقول : رحم الله أبا الهيثم ، غفر الله لأبي الهيثم ، عفا الله عن أبي الهيثم .

فقلت له: يا أبي من أبو الهيثم؟ قال: ألا تعرفه ؟ قلت: لا ، قال: =

واصْدُقْ في الطَّلَب تَرِثْ عِلْمَ البصائر ، وتَبْدُ لَكَ عيونُ المعارف ، وتَمَيَّزْ بنفْسِكَ عِلْمَ ما يَرِدُ عليكَ بِخَالصِ التوفيق ، فإنما السَّبْقُ لمنْ عَمِلَ ، والخشيةُ لمنْ عَلِمَ ، والتوكلُ لمنْ وَثِقَ ، والخوفُ لمنْ أَيقَنَ ، والمَزِيدُ لمنْ شَكَرَ .

واعْلَمْ أَنَّ ما يَصِلُ العبدُ إلَيه منَ الفهمِ : بقَدْرِ تقديمِ عَقْلِهِ[1] ، وموجودِ عِلْمِهِ بتقواهُ لله وطاعَتِهِ . فَمَنْ وَهَب

= أبو الهيثم الحدّاد ، اليومَ الذي أُخرجتُ فيه للسِّياط ، ومُدَّتْ يداي للعُقَّابيْن – هما خشبتان يُشبَحُ الرجل بينهما ليُجلَد – ، إذا أنا بإنسان يجذب ثوبي من ورائي ويقول : تعرفني ؟ قلت : لا ، قال : أنا أبو الهيثم العيّار – أي النشيطُ في المعاصي – ، اللِّصُّ الطَّرَّار – أي النَّشَّالُ من الجيوب – ، مكتوبٌ في ديوان أمير المؤمنين أني ضُرِبتُ ثمانية عشرَ ألفَ سوط بالتفاريق ، وصَبرتُ في ذلك على طاعةِ الشيطان لأجل الدنيا ، فاصبر أنت في طاعةِ الرحمن لأجل الدين .

قال أحمد : فضُرِبتُ ثمانية عشر سوطاً ، بدَلَ ما ضُرِب ثمانية عشر ألفاً ، وخرجَ الخادمُ فقال : عفا عنه أميرُ المؤمنين .

قال بعضُ الجلاَّدين : لقد أبطلَ أحمد بن حنبل الشُّطّارَ ، والله لقد ضربتُه ضرباً لو أبرِكَ لي بعير فضربتُه ذلك الضرب ، لنَقَبْتُ عن جوفه ! وفي رواية ثانية قال جلاّدُه : لو ضَربتُ تلك السياطَ فيلاً لهدَّتْه ! » . انتهى .

قلتُ : فسبحان الله ما أسرع عونَه لعباده الصادقين .

(١) أي بقدر ما يؤثِرُ عقلَهُ على هواه وحظوظِ نفسِه . وجاء في النسخة المغربية : (بقدر تقديم عَمَلِه) .

اللهُ لَهُ العَقْلَ ، وأَحْيَاهُ بالعِلْم بعدَ الإيمانِ ، وبَصَّرَهُ باليقينِ عيوبَ نفسه : فقدْ نُظِمَتْ لَهُ خِصَالُ البِرِّ ، فاطْلُبِ البِرَّ في التقوى ، وخُذِ العِلْمَ من أهل الخَشْيَةَ[1] ،

---

(١) أشار المؤلف رحمه الله تعالى بقوله : (فاطلب البرَّ في التقوى ...) إلى أثر عظيم من آثار التقوى وهو البِرّ ، وهي كلمة شاملة لأنواع الخير . وقد عدَّدَ العلامة الفيروز آبادي في كتابه « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز » ٢ : ٣٠١ — ٣٠٣ آثارَ التقوى وبشائرَها التي جاءت في القرآن الكريم ، فبلغَتْ سبعاً وعشرين بشارة ، وإليك بيانها كما أوردها ، قال رحمه الله تعالى :

« وأما البِشاراتُ التي بَشَّر الله تعالى بها المتقين في القرآن فسبع وعشرون بشارة .

الأولى : البُشرى بالكرامات ﴿ الذين آمنوا وكانوا يَتَّقون لهم البُشرَى ﴾ .

الثانية : البُشرى بالعَون والنُّصرة ﴿ إنَّ الله مع الذين اتَّقَوْا ﴾ .

الثالثة : البُشرى بالعلم والحكمة ﴿ إنْ تَتَّقُوا اللهَ يجعَلْ لكم فُرقاناً ﴾ .

الرابعة : البُشرى بكفّارةِ الذنوب وتعظيمِ المتقي بتعظيم أجره ﴿ ومن يتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عنه سيئاتِه ويُعظِمْ له أجراً ﴾ .

الخامسة : (سقطت هذه البشارة من المطبوعة فتنظر في مخطوطة من الكتاب) .

السادسة : البُشرى بالمغفرة ﴿ واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾ .

السابعة : اليُسرُ والسهولةُ في الأمر ﴿ ومن يتّقِ الله يَجعَلْ له مِن أمرِه يُسراً ﴾ .

الثامنة : الخروجُ من الغَمّ والمِحْنَةِ ﴿ ومن يَتّقِ اللهِ يَجْعَلْ له مَخْرَجاً ﴾ .

. . . .

= التاسعة : رزقٌ واسعٌ بأمنٍ وفراغ ﴿ ويَرْزُقْه من حيثُ لا يَحتَسِبُ ﴾ .

العاشرة : النجاةُ من العذابِ والعقوبةِ ﴿ ثم نُنَجّي الذين اتّقَوْا ﴾ .

الحادية عشرة : الفوزُ بالمراد ﴿ويُنَجّي الله الذين اتّقَوْا بمَفازَتِهم ﴾ . ﴿ إنّ للمتّقين مَفَازاً ﴾ .

الثانية عشرة: التوفيقُ والعصمة ﴿ ولكنّ البِرّ من آمَنَ بالله واليومِ الآخِرِ ﴾ إلى قوله ﴿ وأولئك هم المتّقُون ﴾ .

الثالثة عشرة : الشهادةُ لهم بالصدق ﴿ أولئك الذين صَدَقُوا وأولئك هم المُتّقون ﴾ .

الرابعة عشرة : بشارةُ الكرامةِ والأكرميّةِ ﴿ إنّ أكرمَكم عندَ الله أتقاكم ﴾ .

الخامسة عشرة : بشارةُ المُحبّ ﴿ إنّ الله يُحِبُّ المتّقين ﴾ .

السادسة عشرة : الفلاحُ ﴿ واتّقُوا اللهَ لعلكم تُفلِحون ﴾ .

السابعة عشرة : نيلُ الوِصال والقُربةِ ﴿ ولكنْ يَنالُهُ التقوى منكم ﴾ .

الثامنة عشرة : نيلُ الجزاء بالمِحنة ﴿ إنه من يَتّقِ ويَصبِرْ فانّ الله لا يُضيع أجْرَ المحسنين ﴾ .

التاسعة عشرة : قبولُ الصّدَقة ﴿ إنما يَتَقَبّلُ اللهُ من المُتّقين ﴾ .

العشرون : الصّفاءُ والصّفْوَة ﴿ فانّها مِن تَقوَى القُلوب ﴾ .

الحادية والعشرون : كمالُ العُبوديّة ﴿ اتّقُوا الله حَقّ تُقاتِه ﴾ .

الثانية والعشرون : الجنّاتُ والعُيون ﴿إنّ المُتّقين في جنّات وعُيُون﴾ .

واستَجْلِبِ الصِّدقِ بِمَباحِثِ الصدق في مواطن التفكُّرِ . قال اللهُ عَزَّ وجلَّ : ﴿ وكذلكَ نُرِي إبراهيمَ ملكوتَ السمواتِ والأَرضِ ولِيكونَ مِنَ المُوقِنينَ ﴾ (١) . وقالَ رسولُ الله ﷺ : « تَعَلَّمُوا اليقينَ فإني أَتعَلَّمُهُ » (٢) .

= الثالثة والعشرون : الأمْنُ من البليّة ﴿ إنّ المتّقين في مَقامٍ أمين ﴾ .

الرابعة والعشرون : عِزُّ الفَوقيّة على الخَلْق ﴿ والذين اتّقَوْا فوقهم يومَ القيامة ﴾ .

الخامسة والعشرون : زوالُ الخوفِ والحُزْنِ من العقوبة ﴿ فمن اتّقى وأصلَحَ فلا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزنون ﴾ .

السادسة والعشرون : الأزواجُ الموافِقةُ ﴿ إنّ للمتّقين مَفازاً . حَدائقَ وأعناباً . وكواعِبَ أتراباً ﴾ .

السابعة والعشرون : قُرْبُ الحضرةِ واللقاءِ والرُّؤيةِ ﴿ إنّ المُتّقين في جنّات ونهَرَ . في مَقْعَدِ صِدْقٍ عندَ مَليك مُقْتَدِر ﴾ . » انتهى بتصرف يسير .

(١) من سورة الأنعام : ٦ .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » ٦ : ٩٥ عن ثور بن يزيد مرسلاً ، بلفظ : « تعلموا اليقين ، كما تعلّموا القرآن ، حتى تعرفوه ، فاني أتعلّمُه ».وفي سنده : بقيةُ بن الوليد الحمصي ، وهو معروف بالتدليس ، وقد عنعن ، وشيخُه العباسُ بن الأخنس السَّكْسَكي قال عنه الذهبي في الميزان: إنه =

واعْلم أَنَّ كلَّ عَقْلٍ لا يَصحَبُهُ ثلاثة أَشياء فهو عَقْلٌ مَكَّارٌ (١) : إِيثَارُ الطاعةِ عَلَى المعصية ، وإِيثَارُ العِلمِ عَلَى الجهلِ ، وإِيثَارُ الدِّينِ علَى الدُّنْيا ، وكلُّ عِلْمٍ لاَ يَصْحَبُهُ ثَلاَثَةُ أَشياء فهو مَزِيدٌ في الحُجَّةِ : كَفُّ الأَذَى بقطعِ الرَّغْبَةِ ، ووُجُودُ العَمَلِ بالخشية ، وبَذْلُ الإِنصافِ بالتباذُلِ والرَّحْمَة .

واعْلَمْ أَنَّهُ ما تَزَيَّنَ أَحَدٌ بزينةٍ كالعَقْلِ (٢) ، ولاَ لَبِسَ

= مجهول . فالحديثُ ضعيفٌ واه ، ومعناه غريب ، وفيه وقفة نَحْوية في « كما تعلّموا » لحذفِ النون مع أنه في حالة الرفع .

ثم رأيتُ الحافظَ العراقيَّ أورده في « تخريج أحاديث الإحياء » ١ : ١٢٢ وقال : « أخرجه أبو نعيم من رواية ثور بن يزيد مرسلا ، وهو مُعْضَلٌ ، ورواه ابنُ أبي الدنيا في « اليقين » من قولِ خالد بن مَعْدان » انتهى . وهو أقربُ إلى الصواب . قال الإمام الغزالي : ومعنى قولِهِ « تعلّموا اليقين » : جالِسُوا الموقنين ، واستمعوا منهم عِلْمَ اليقين ، وواظِبُوا على الاقتداءِ بهم ليقوى يقينُكم كما قوي يقينُهم .

(١) أي عَقْلٌ مُخادِعٌ يُزيّنُ لصاحبه الشرَّ خيراً . ووقع في الأصلين : (فهو عقل مكاد) أي بالدال المهملة . وهو تحريف .

(٢) قال التابعي الجليل عُرْوَة بن الزُّبير رحمه الله تعالى : أفضَلُ ما أُعطِيَ العبادُ في الدنيا العَقْلُ ، وأفضَلُ ما أعطوا في الآخرة : رضوانُ الله عزَّ وجلَّ . كما في كتاب « العقل وفضله » لابن أبي الدنيا ص ١٣ .

ثَوباً أَجْمَلَ مِنَ العِلمِ [١] ، لأَنهُ ما عُرِفَ اللهُ إلاَّ بالعَقْلِ ،

(١) قال الحسن البصري رحمه الله تعالى : « لو كان للعلم صورةٌ لكانت صورتُهُ أحسنَ من صورة الشمس والقمر والنجوم والسماء .

وقال مُعاذُ بن جبل رضي الله عنه : العلمُ حياةُ القلوب من الجهل ، ومصباحُ الأبصار من الظلمة ، وقوّةُ الأبدان من الضعف ، يَبْلُغُ بالعبد مَنازِلَ الأخيار والأبرار ، والدرجاتِ العُلى في الدنيا والآخرة . والتفكُّرُ فيه يَعْدِلُ الصيامَ ، ومذاكرتُه تَعْدِلُ القيام ، وبه تُوصَلُ الأرحام ، ويُعرَفُ الحلالُ من الحرام . وهو إمامٌ والعمَلُ تابِعُهُ ، ويُلهَمُهُ السُّعَداء ، ويُحرَمُهُ الأشقياء » . نقله الحافظ ابن رجب في « شرح حديث العلم » ص ٣٣ و ٣٥ .

وقال العلامة الفيروز آبادي في « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز » ١ : ٤٢ « واعلم أنه تبيّن في علم الأخلاق أن الفضائل الإنسانية التي هي الأمّهات أربع ، وهي : العلم، والشجاعة ، والعِفّة، والعدل . وما عدا هذه فهي فروع عليها أو تضاف إليها .

فالعلمُ فضيلةُ النفس الناطقة . والشجاعةُ فضيلةُ النفس الغَضَبيّة . والعِفّةُ فضيلةُ النفس الشهوانية . والعدلُ فضيلةٌ عامّة في الجميع .

ولا شكّ أن النفس الناطقة أشرَفُ هذه النفوس ، ففضيلتها أشرف هذه الفضائل أيضا ، لأن تلك لا توجد كاملة إلا بالعلم ، والعلمُ يَتِمُّ ويوجد كاملاً بدونها ، فهو مستغن عنها ، وهي مفتقرة إليه ، فيكون العلمُ أشرفَ » .

وقال العلامة نصير الدين الطوسي في أوّل رسالته « آداب المتعلمين » : « شرَفُ العلم لا يخفى على أحد ، إذ العِلمُ هو المختصٌ بالإنسانية ، لأن جميع الخصال سوى العِلم يَشترِكُ فيه الإنسانُ وسائرُ الحيوانات كالشجاعة والقوة والشفقة وغيرها. وبه أظهر الله تعالى فضل آدم عليه السلام على الملائكة =

ولا أُطِيعَ إلاَّ بالعِلمِ [١] .

واعْلَمْ أَنَّ أَهلَ المعرفةِ باللهِ بَنَوا أُصُولَ الأَحوالِ على شَاهِدِ العِلْمِ [٢] ، وتَفَقَّهُوا في الفروع ، [٣] ألا تَرَى لِقَول ،

= وأمرَهُم بالسجود له . وأيضا هو الوسيلة للوصول إلى السعادة الأبدية إن وقع العمل على مقتضاه » .

(١) هذا من المؤلّف أبي عبد الله المحاسبيّ يُفيدُ أنَّ العقل أفضَلُ من العلم وهو الحقُّ ، وفضّلَ بعضُهم العلمَ على العقل ، وأدارَ بينهما حِواراً لطيفاً ، أبدى فيه كلٌّ منهما فَضلَه على الآخر فقال على لسانهما :

عِلْمُ العليمِ وعَقْلُ العاقلِ اختلَفا ... من ذا الذي منهما قد أحرزَ الشَّرَفا ؟
فالعلمُ قال : أنا أحرزتُ غايتَه ... والعقلُ قال : أنا الرحمنُ بي عُرِفا
فأفصحَ العلمُ إفصاحاً وقال لـه : ... بأيّنا اللهُ في فُرْقانه اتَّصَفا ؟
فبان للعقلِ أنَّ العِلْمَ سَيّدُهُ ... فقبَّلَ العَقلُ رأسَ العلمِ وانصرفا

وقد فات هذا القائلَ : أنَّ العقلَ منبعُ العلمِ وأصلُه ، وأنَّ العلم يجري من العَقْل مجرى النُّور من الشمس والرُّؤية من العَيْن : « إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون » .

ورحم الله المؤلِّفَ المحاسبي إذ يقول في كتابه « الرعاية » « مثَلُ العقل مثَلُ البصر ، ومثَلُ العِلْم مثَلُ السِّراج ، فمن لا بصرَ له لا ينتفع بالسراج ، ومن له بصرٌ بلا سراج لا يَرى ما يَحتاج إليه » .

(٢) وقع في الأصلين : (بينوا أصول الأحوال على شاهد العلم) .

(٣) سبق تعليقاً في ص ٨٢ ــ ٨٤ عن الشيخ الشعراني والحافظ ابن رجب الحنبلي كلامٌ يتصل بوجوب التزام جانب العلم الذي هو الكتابُ والسُّنّة ، والحلالُ والحرام ... فانظره .

النبي ﷺ : « مَنْ عَمِلَ بِما عَلِمَ ، وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ » [١] . وعلامةُ ذَلِكَ هو تَزايُدُ العِلْمِ بالإشفاقِ ، ومزيدُ العلمِ بالاقتدار ، فكُلَّمَا ازدَادَ عِلماً ازدَادَ خَوفاً [٢] ، وكُلَّمَا ازدَادَ عَمَلاً ازدَادَ تَوَاضُعاً [٣]

والأَصلُ الذي بَنَوا بهِ في طَرِيقِهِمْ [٤] : التِزَامُ الأَمْرِ

(١) هذا ليس بحديث ، وإنما هو — فيما يُروَى — من كلام عيسى بن مريم عليه السلام . قال الحافظ أبو نُعيم في « الحلية » ١٠ : ١٥ بعد أن ساقه بسنده مرفوعاً ما نصُّه « ذكر أحمدُ بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام ، فوهِمَ بعضُ الرواة أنه ذكره عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فوَضعَ هذا الإسنادَ عليه » انتهى .

وقولُ الحافظ العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » ١ : ١٢٢ : أخرجه أبو نعيم في «الحلية» من حديث أنسٍ وضعّفه» : فيه قصور ، إذ لم يُضعّفه أبو نعيم بل قال بوَضْعِ سنده ، كما سبق نصُّ عبارته .

(٢) وما أصدق ما نُقِل عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال :

على قَدْرِ علم المرءِ يَعظُمُ خوفُه
فلا عالمٌ إلا مِن اللهِ خائفُ
وآمِنُ مكرِ الله باللهِ جاهلٌ
وخائفُ مكرِ الله بالله عارفُ

(٣) جاء في الأصل : (وكلّما ازداد عِلماً ازداد تواضعاً) . فأثبته كما ترى .

(٤) وقع في الأصلين : (والأصلُ الذي بينوا ...) . ولفظُ (به) غير موجود في النسخة المغربية .

بالمعروفِ والنَّهي عَنِ المُنْكَرِبالصدْقِ(١) ، وتَقْدِيمُ العِلْمِ عَلَى حُظُوظِ النفوس(٢) ، والاستغْنَاءُ باللهِ عنْ جَمِيع خَلقهِ (٣) .

فاطْلُب آثَارَ مَنْ زَادَهُ العِلْمُ خشيةً ، والعَمَلُ بصيرَةً(٤) ،

---

(١) وتقدَّم تعليقاً في ص ٥٣ كلامٌ حسن للشيخ ابن القيم في عبودية القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فعُد إليه .

(٢) وإليك هذا الخبر عن الإمام ابن الجوزي ، لتشهد منه تقديمَ العلم على حظوظ النفوس . قال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفـاظ » في ترجمة (الإمام أبي الفرج ابن الجوزي) ٤ : ١٣٤٢ ــ ١٣٤٥ ما ملخّصُه : « هو الإمام العلامة الحافظ ، عالم العراق ، وواعظ الآفاق ، كان لطيف الصورة ، حلو الشمائل ، رخيم النغمة ، موزون الحركات والنّغمَات ، لذيذ المفاكهة ، وله في السجع الوعظي ملكة قوية .

وكان يَحضُر مجلسَ وعظه الألوف المؤلفة ، وقُدِّر ذلك بمئة ألف ، وحصل له من الحُظوة في الوعظ ما لم يَحصُل لأحد قط ، وحَضَر مجالسَه ملوكٌ ووزراء ، بل وخلفاء من وراء السِّتْر ، ــ وكان الناس يستعدون لحضور درسه قبل يوم أو يومين ، ويستأجرون الأماكن لذلك ــ .

قال له رجل : ما نمتُ البارحة من شوقي إلى المجلس ، قال : لأنك تُريد الفُرجة ، وإنما ينبغي الليلةَ أن لا تنام » . انتهى . فرحم الله الإمامَ ابن الجوزي ما أيقظ قلبَه ولُبَّه ؟ إذ رَدَّ هذا الغافلَ من حظّ النفس إلى حقّ العلم .

(٣) وقع في الأصل : (والاشتغال بالله عن جميع خلقه) . وهو تحريف .

(٤) وما أجملَ بصيرةَ الإمام البخاري رحمه الله تعالى في علمه وفي عمله ، أما في علمه فشيء مشهور في كتابه «صحيح البخاري» وغيره كما يعلمه أهل =

وَالعَقْلُ مَعْرِفَةً ، فإنْ حَجَبَكَ عنْ مِنْهَاجِهِمْ فَقْدُ الأَدَبِ ، فارْجعْ بالذمِّ علَى نَفْسِكَ ، وَلَنْ يَخفَى على أهْلِ العِلْمِ صِفَةُ المُخْلِصِينَ .

واعْلم أنَّ في كلِّ فِكْرَةٍ أدَباً ، وفي كلِّ إشارَةٍ عِلْماً ، وإنَّما يُمَيِّزُ ذَلكَ مَنْ فَهِمَ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُرَادَهُ ، وَجَنَى فوائِدَ اليقينِ مِنْ خِطَابِهِ .

وعلامةُ ذلكَ في الصادِقِ : إذَا نَظَرَ اعْتَبَرَ ، وَإذَا صَمَتَ تَفكَّرَ ، وَإذَا تَكَلَّمَ ذَكَرَ ، وَإذَا مُنِعَ صَبَرَ ، وَإذَا أُعْطِيَ شَكَرَ ، وَإذَا ابتُلِيَ اسْتَرْجَعَ ، وَإذَا جُهِلَ عليه حَلُمَ ، وَإذَا عَلِمَ تَوَاضَعَ ، وَإذَا عَلَّمَ رَفَقَ ، وَإذَا سُئِلَ بَذَلَ .

شفاءٌ لِلقاصد ، وعَونٌ لِلمُسْتَرْشِدِ ، حَلِيفُ صِدْقٍ ،

= العلم. وأما في عمله فمنه ما حكاه الحافظ ابن حجر في «هدي الساري مقدمة فتح الباري» ٢ : ١٩٦ في خلال ترجمة الإمام البخاري ، قال رحمه الله تعالى :

« قال محمد بن منصور : كنا في مجلس أبي عبد الله البخاري ، فرفَعَ إنسانٌ قَذاةً من لحيته وطرَحَها إلى الأرض ، فرأيتُ البخاريَّ ينظر إليها وإلى الناس ، فلما غَفَلَ الناس رأيتُه مَدَّ يدَه فرفع القذاةَ من الأرض فأدخلها في كُمِّه ، فلما خرج من المسجد رأيتُه أخرجها وطرحها على الأرض » . انتهى . فقد صان رحمه الله تعالى أرضَ المسجد عما تُصانُ عنه لِحيتُه ، إنها بصيرةُ العلم والعمل . ﴿ فبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ .

وكَهْفُ بِرّ ، قَرِيبُ الرِّضَا في حَقِّ نَفْسِهِ ، بعيدُ الهِمَّةِ في حَقِّ اللهِ تَعَالَى .

نِيَّتُهُ أَفْضَلُ مِنْ عَمَلِهِ ، وَعَمَلُهُ أَبلَغُ مِنْ قَوْلِهِ ، مَوْطِنُهُ الحقُّ ، وَمَعْقِلُهُ الحَيَاءُ ، وَمَعْلُومُهُ الوَرَعُ ، وَشَاهِدُهُ الثِّقَةُ ، لَهُ بصَائِرُ مِنَ النُّورِ يُبْصِرُ بِهَا ، وحَقَائِقُ مِنَ العِلْمِ يَنْطِقُ مِنْهَا ، وَدَلاَئِلُ مِنَ اليقينِ يُعَبِّرُ عَنْهَا (١) .

---

(١) ما أجملَ هذه الصفاتِ وأجلَّها ؟ وما أعظمَها مجتمعةً متحقِّقةً في العبد المسلم ؟ وقد كان في سلفنا الصالح من هذا النوع النفيسِ أعدادٌ لا تُحصَى .

ورحم الله تعالى شيخ الإسلام ابن تيمية ، إذ جدَّد بعظيم سيرته تاريخَ الأسلاف في هذه الصفات ، فانه لمّا نزَلَتْ به المِحنة ، وحُبِسَ في قلعة دمشق ، وقُطِع عن الناس ، وسُجن معه تلميذه ابن القيم منفرداً عنه حتى مات الشيخ في السجن : كانت حالُه في ارتياح وسرور ورضا غامر ، وكان كما قال المؤلف رحمه الله تعالى ـ : « .. له بصائرُ من النور يُبصِر بها ، وحقائقُ من العلم يَنطِقُ منها ، ودلائلُ من اليقين يُعبِّرُ عنها » ، فكان السجنُ له خلوة ، وكان يشكر الله على ذلك شكراً عظيما ...

يَصِفُ ابنُ القيم في كتابه « الوابل الصيب » ص ٦٦ ـ ٦٧ حالَ الشيخ وحالَ نفسه آنذاك فيقول : « قال لي مرَّةً : ما يَصنعُ أعدائي بي ؟ أنا جنّتي وبُستاني في صدري ـ يعني بذلك : إيمانَه وعِلمَه ـ ، أينَ رُحتُ فهي معي لا تفارقني . إنَّ حبْسي خلْوَة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة .

وكان يقول في مَحْبِسه في القلعة : لو بذلتُ لهم مِلءَ هذه القلعةِ ذهباً ما =

وَإِنَّما يُوَاصَلُ بِذَلكَ مَنْ جَاهَدَ للهِ تَعَالَى نَفْسَهُ ، واستَقَامَت لِطَاعتِهِ نِيَّتُهُ ، وخَشِيَ اللهَ في سِرِّهِ وَعَلانِيَتِهِ ، وَقَصَّرَ الأَمَلَ ، وَشَمَّرَ مِئْزَرَ الحَذَرِ ، وَأَقْلَعَ بِرِيحِ النَّجَاةِ في بَحْرِ الابتِهَال ،

= عدَلَ عندي شكرَ هذه النعمة ، أو قال : ما جزيتُهم على ما تسبّبوا لي فيه من الخير .

وكان يقول في سجوده وهو محبوس : اللهم أعِنّي على ذكرك وشكرك وحُسنِ عبادتك ، ما شاء الله .

وقال لي مرة : المحبوسُ من حُبِسَ قلبُه عن ربّه تعالى ، والمأسورُ من أسرَهُ هواه . ولمّا دَخَلَ القلعة وصار مِن داخل سُورِها ، نَظَرَ إليه وقال : ﴿ فضُرِبَ بينهم بسُورٍ له باب ، باطنُه فيه الرحمة ، وظاهِرُه مِن قِبَلِهِ العذاب ﴾ .

وعَلِمَ الله : ما رأيتُ أحداً أطيبَ عيشاً منه قط ، مع ما كان فيه من ضِيق العيش وخلافِ الرفاهية والنعيم بل ضدّهما ، ومع ما كان فيه من الحَبْس والتهديد والإرجاف ، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً ، وأشرحِهم صدراً ، وأقواهم قلباً ، وأسرِّهم نَفْساً ، تَلُوحُ نَضْرَةُ النعيم على وجهه .

وكنا إذا اشتد بنا الخوف ، وساءت منا الظنون ، وضاقت بنا الأرض ، أتيناه ، فما هو إلا أن نراه ونَسمع كلامَه ، فيَذهبَ عنا ذلك كلُّه ، وينقلبَ انشراحاً وقُوَّةً ويقيناً وطُمأنينة . وكان يقول : إنَّ في الدنيا جنةً من لم يَدخلها لا يَدخُل جنة الآخرة .

فسبحان من أشهد عبادَه جنتَه قبلَ لقائه ، وفتَحَ لهم أبوابَها في دارِ العمل ، فأتاهم مِن رَوْحِها ونسيمِها وطِيبِها ما استفرَغَ قُواهم لطلبها والمسابقة إليها » .

فأَوقاتُهُ غَنِيمةٌ ، وأَحوالُهُ سَلِيمَةٌ ، لَمْ يَغْتَرَّ بِزُخْرُفِ دَارِ الغُرورِ ، ولم يَلْهُ بِبَرِيقِ سَرَابِ نَسِيمَها عَنْ أَهْوالِ يَوْمِ النُّشُورِ (١) .

واعْلَمْ أَنَّ العاقلَ لَمَّا صَحَّ عِلْمُهُ وثَبَتَ يَقِينُهُ : عَلِمَ أَن لا يُنْجِيهِ مِنْ رَبِّهِ إلاَّ الصِّدقُ ، فَسَعَى في طَلَبِهِ ، وَبَحَثَ عَنْ أَخْلاقِ أَهْلِهِ رغبةً في أَنْ يَحْيَى قبلَ مَمَاتِهِ (٢) ، لِيَسْتَعِدَّ لِدَارِ الخُلُودِ بَعْدَ وفاتِهِ ، فباعَ نَفْسَهُ ومَالَهُ مِنْ رَبِّهِ حيثُ سَمِعَهُ يَقُول : ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾ (٣) .

فَعلِمَ بَعْدَ الجَهْلِ ، واسْتَغْنَى بَعْدَ الفَقْرِ ، وأَنِسَ بَعْدَ الوَحْشَةِ ، وَقَرُبَ بَعْدَ البُعْدِ ، وَاسْتَرَاحَ بَعْدَ التَّعَبِ ، فَائتَلَفَ أَمْرُهُ ، وَاجْتَمَعَ هَمُّهُ .

فَشِعَارُهُ الثِّقَةُ ، وحَالُهُ المُرَاقَبَةُ ، أَلا تَرى لِقَولِ

---

(١) وقع في الأصلين : (ولم يله ببريق شراب نسيمها) . وهو تحريف .

(٢) كذا جاء في الأصلين . ولعلَّ معناه : أن يَغتنم حياتَه قبل مماته ؟ عملاً بالحديث « اغتنم خمساً قبل خمس : حياتَك قبل موتك » ...

(٣) من سورة التوبة : ١١١ .

رسولِ الله ﷺ : « اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ » (١) . يَحْسَبُهُ الجاهِلُ صِمِّيتاً عَيِيّاً (٢) ، وَحِكْمَتُه أَصْمَتَتْهُ ، وَيَحْسَبُه الأَحْمَقُ مِهْذاراً ، والنَّصِيحَةُ لله أَنْطَقَتْهُ . وَيَحْسَبُهُ غَنِيّاً ، والتَعَفُّفُ أَغْنَاهُ ، وَيَحْسَبه فَقِيراً ، والتَّوَاضُعُ أَدنَاهُ .

لا يَتَعَرَّضُ لِما لا يَعْنِيهِ ، وَلاَ يَتَكَلَّفُ فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ ، ولا يَأْخُذُ مَا لَيْسَ بِمُحْتَاجٍ إليهِ ، ولاَ يَدَعُ مَا وُكِّلَ بِحفْظِهِ ، النَّاسُ منهُ في رَاحَةٍ ، وهُوَ مِنْ نَفْسِهِ في تَعَبٍ ، قَدْ أَمَاتَ بالوَرَعِ حِرْصَهُ ، وَحَسَمَ بالتُّقَى طَمَعَهُ ، وَأَفْنَى بِنُورِ العِلْمِ شَهَوَاتِهِ .

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبو نعيم في « الحلية » ٨ : ٢٠٢ عن زيد بن أرقم مرفوعا ، وذكره السيوطي في « الجامع الصغير » مَعْزُوّاً لأبي نعيم ، وقال شارحه المُناوي في شرحه الصغير : « التيسير بشرح الجامع الصغير » ١ : ١٦٧ إنه بهذا اللفظ حديث حَسَن لاعتضاده بحديث آخر . والجملةُ المذكورةُ منه هنا جاءت بنحو هذا اللفظ في « صحيح مسلم » في حديث سؤال جبريل عن الإحسان .

(٢) جاء في الأصل هكذا : (صحيا) . وجاء في النسخة المغربية : (محيا) . وأقربُ ما يُفهم من رسم هذين اللفظين ما أثبت ، والله أعلم بالصواب .

فهكَذَا فكُنْ ، ولِمثْلِ هَؤُلاءِ فاصْحَبْ (١) ، ولآثَارِهِمْ فاتْبَعْ ، وبأَخْلاَقِهِمْ فتَأَدَّبْ ، فهؤُلاءِ الكَنْزُ المأْمون(٢) ،

(١) وإذا فَعلْتَ ذلك عُدِدْتَ منهم ، وإذا صَحِبتَ أولئك حُسِبتَ معهم ، وفُزتَ بسبب صحبتهم ، فقد جاء في الحديث الذي رواه مسلم في « صحيحه » ١٧ : ١٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ لله ملائكةً سيّارة يطوفون في الأرض ، فاذا صَعِدوا إلى السماء سألَهم الله تعالى وهو أعلمُ بهم : مِن أينَ جئتُم ؟ فيقولون : جئنا مِن عند عِبادٍ لك في الأرض ، يُسبِّحونَك ، ويُكبِّرونَك ، ويُهلِّلونَك ، ويحمدُونك ويَسألونك ، ويستغفرونك ، فيقول : قد غَفَرْتُ لهم ، وأعطيتُهم ما سألوا ، وأجَرتُهم مما استجاروا ، فيقولون : رَبِّ فيهم فلانٌ عَبْدٌ خطّاء ، إنما مَرَّ فجلَسَ مَعَهم ، فيقول : ولهُ غَفَرْتُ ، هُمُ القومُ لا يَشقى بهم جَليسُهم »

ومِن أجلِ هذا قال الشاعر الحكيم :

بعِشرَتِكَ الكِرامَ تُعَدُّ مِنهم   فلا تُرِيَنْ لِغيرِهِم ألُوفَا

ولشيخ شيوخنا العلامة الشيخ بشير الغَزّي الحلبي رحمه الله تعالى أبياتٌ لطيفة ، أصلُها بالفارسية ، فنَظَمها بالعربية ، وزادها رقّةً وذَوْقاً فقال على لسان « التُّرابة الحَلَبِيّة » المعروفة عند العامّة باسم (بيلون بوَرْد) :

رأيتُ الطِّينَ في الحمّـــام يوماً   بكَفِّ الحِبِّ أثَّرَ ثم نَسَّم
فقلتُ له : أمِسْكٌ أم عَبِيرٌ ؟   لقد صَيَّرتني بالحبِّ مُغْـرَم
أجاب الطينُ أني كنتُ تُرْبـاً   صَحِبْتُ الوَرْدَ صيّرني مُكرَّم
ألِفْتُ أكابراً وازددتُ عِلمـاً   كذا من عاشَرَ العُلماءَ يُكرَم

(٢) يشير بقوله (الكنز المأمون) إلى أن صحبة هؤلاء خيرٌ محض ونفعٌ محقّق ، لا فِتنةَ فيها ، ولا مَغَبّةَ منها ، بخلاف (الكنز المدفون) ، فانه إذا =

بائِعُهُمْ بالدُّنيا مَغْبُون (١) ، وهُمْ العُدَّةُ في البَلاءِ ، والثِّقَاتُ مِنَ الأَخِلاَّء ، إنِ افْتَقَرْتَ أَغْنَوْكَ ، وإنْ دَعَوا الرَّبَّ لم يَنْسَوْكَ ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المُفلِحُونَ﴾ (٢)

وَاعْلَمْ ـ وسَّعَ اللهُ بالفَهْم قلبكَ ، وأَنَارَ بالعِلم صَدْرَكَ ، وجَمَعَ باليقين هَمَّكَ ـ أَنِّي وجدتُ كُلَّ بلاءٍ داخلٍ عَلَى القلب ـ ضَرُورَةً (٣) ـ مِنْ نَتَائجِ الفُضُول ، وأَصْلُ ذلكَ الدُّخولُ في الدنيا بالجهلِ ، ونسيانُ المَعَادِ بعدَ العِلْم . والنجَاةُ مِنْ ذلكَ تَرْكُ كُلِّ مَجْهُولٍ في الوَرَع (٤) ،

= وقع لبعض الناس العثورُ على كنز من المال ، كان له ذلك فتنةً في دينه وأمانته وخلقه وسلوكه ، وضرراً عليه في دنياه وآخرته . ولذلك وصَفَ صحبتهم بـ (الكنز المأمون) ، ولم يصفها بـ (الكنز المدفون) لِما أشرتُ إليه . فرحم الله هـذا الإمام المحاسبيَّ ما أعمقَ نظرَه وأدقَّ فِكرَه .

(١) أي : لو حصَّلَ الإنسانُ الدنيا ، وفاتَه صُحبةُ هؤلاء ، فهو مغبون مخدوع في رضاه بالدنيا بدلاً عنهم ، وقد صدَقَ رحمه الله تعالى .

(٢) من سورة المُجادِلة : ٢٢ .

(٣) أي قطعاً ويقيناً .

(٤) أي في حكم الورع . ولله دَرُّ الإمام أبي حنيفة ما أورعه وما أرعاه لسلامة نفسه ، قال العلامة ابن حجر الهيتمي في « الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان » ص ٤٣ « أرسَل أبو حنيفة لشريكه متاعاً فيه ثوبٌ مَعيب ، يَبيعهُ ويُبيِّنُ ما فيه من العيب ، فباعه ولم يُبيِّن العيبَ نسياناً ، وجَهِلَ =

وأَخْذُ كُلِّ معلومٍ في اليقين (١) .

= المشتري ، فلما علم أبو حنيفة تصدَّق بثمن المتاع كلّه ، وكان ثلاثين ألفَ درهم ، وفاصَلَ شريكه — أي فارقه — » . انتهى .

وهذه صورة ثانية من صُوَر الورع — وما أكثرها في تاريخ سلَفنا — ، قال ابن العماد في « شَذَرات الذهب » ٥ : ٤٠٦ في ترجمة الإمام شمس الدين محمد بن عبد الرحيم المقدسي الحنبلي الدمشقي ، المتوفى سنة ٦٨٨ رحمه الله تعالى : « قال الذهبي : كان إماماً فقيهاً محدّثاً زاهداً عابداً ، كثيرَ الخير ، له قدم راسخة في التقوى ، وكان متقلّلاً من الدنيا .

حُكي لي عنه أنه كان يَحفِرُ مكاناً في جبل الصالحية لبعض شأنه ، فوجد جَرَّةً مملوءة دنانير ، وكانت زوجتُه معه تُعينه على الحفر ، فاسترجع — أي قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، إذ عَدَّ ذلك فِتنةً له ومِحنةً أي اختباراً — ، وطَمَّ المكان كما كان أولاً ، وقال لزوجته : هذه فتنة ، ولعل لها مستحقين لا نعرفهم ، وعاهدها على أنها لا تُشعِر بذلك أحداً ، ولا تتعرض إليه ، وكانت صالحةً مثلَه ، فتركا ذلك تورُّعاً مع فقرهما وحاجتهما . وهذا غايةُ الوَرَع والزُّهد » .

(١) أي أخْذُ ما عُلم يقيناً أنه حلال . وإذا وقع لك اشتباه في أمر من الأمور ، أو غَمَضَتْ عليك قضية من القضايا ، فلا تحتكم فيها للعقل وحده ، فانه يَضعُفُ ويَقوَى ، ويتأثر بالعواطف والمؤثِّرات ، ولكن احتكم فيها للشرع ، فانه خيرُ هادٍ لك فيما تبتغيه أو تشتبه فيه ، وما أجمل قولَ بعض الحكماء :

الشرعُ أعظمُ مُرشِدٍ ... في ظُلْمة الشُّبَه البَهيمه
والعقلُ يَقْفُوهُ ولو ... لاهُ لَكُنَّا كالبَهيمه
فاتبَعْهُما ولمن لَحَا ... كَ عليهما قُلْ : يا بَهيمَه =

وَوَجدتُ فسادَ القلب فسادَ الدين ، ألا تَرَى لقول رسول الله ﷺ : « أَلا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، وإذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلا وهي القَلْبُ »[١] . ومعنى الجَسَد – هاهنا – : الدِّينُ[٢] ، لأَنَّ بالدِّينِ صَلاحَ الجَوَارِح وفَسَادَهَا .

وأَصْلُ فَسَادِ القَلْبِ تَرْكُ المحاسبة للنَّفْس ، والاغْتِرَارُ بطُولِ الأَمَلِ ، فإِذَا أَرَدْتَ صَلاحَ قَلبِكَ فَقِفْ مَعَ الإرادةِ ، وَعِندَ الخَواطِرِ ، فَخُذْ ما كَانَ للهِ ، ودَعْ ما كَانَ لِغَيْرِهِ[٣] ،

= وفي قوله (يا بهيمه) تورية ، إذ المقصود : (يا بهي – أي يا جميل – مَه)، أي اكفُفْ عن لومي في اتّباع الشرع الناصح والعقل المستنير به . وكُتِبَتْ (يا بهيمه) موصولةً لإحكام التورية نطقاً وكتابة أيضاً . وقد قرَّر هذا الحكيم ما قرَّره العلماء وهو : أنَّ الشرعَ عِصمةٌ للعقل ، والعَقْلَ نِبراسٌ للشرع .

وتقدم تعليقاً في ص ٩٩ كلام حسن في تفضيل العقل على العلم . فعُدْ إليه .

(١) هو بعضُ حديث رواه البخاري ومسلم في « صحيحيهما » عن النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(٢) كذا في الأصلين . وفي هذا التفسير غرابةٌ وبُعْدٌ شديد ، فانَّ الحديثَ ظاهرٌ في إرادةِ الجَسَد الحقيقي .

(٣) قال الشيخ الفقيه الصالح أحمد بن رسلان الشافعي رحمه الله تعالى في آخر « متن الزُّبَد » :

وَاستَعِنْ عَلَى قِصَرِ الأَمَلِ بِدَوَامِ ذِكْرِ الموتِ (١) .

وَوَجَدْتُ أُصولَ الفُضُولِ المتحرِّكةَ من القلب تَظْهَرُ على السمعِ والبصرِ واللسان والغِذاءِ واللباس . وفُضولُ السَّمْعِ يُخْرِج إلى السَّهْو والغفلة ، وفضولُ البَصَر يُخرجُ إلى الغَفْلَة والحَيْرة ، وفُضولُ اللسان يُخرِجُ إلى التزيُّد والبِدعة ،

= وزِنْ بوَزْنِ الشّرْع كلَّ خاطِرِ ... فان يكن مأمورَهُ فبادِرِ
وإن يكن مما نُهِيتَ عنه ... فهو من الشيطانِ فاحذَرَنْه

وقال الإمام السيّد الجُنَيدُ رحمه الله تعالى : لقد تَرِدُ النُّكتةُ — أي الخاطِرُ — على قلبي فلا أقبلُها إلا بشاهِدَيْ عَدْلٍ من الكتاب والسُّنّة . وسبق تعليقاً في ص ٤٦ — ٤٨ كلامٌ نفيس في (الخواطر) لابن القيم فعُدْ إليه .

(١) كان سيدنا عمر رضي الله عنه يقول : كلَّ يوم يقال : مات فلانٌ وفلان ، ولا بُدَّ من يوم يقال فيه : مات عمر . وكان سيدنا علي رضي الله عنه يقول : إذا كنتَ في إدبار والموتُ في إقبال فما أسرعَ الملتقَى . كما في « نهج البلاغة » ٤ : ٨٧ . وكان الحسن البصري رحمه الله يقول : « ابنَ آدم إنما أنت أيام ، كلّما ذهبَ يومٌ ذهبَ بعضُك » . كما في ترجمته في « تاريخ الإسلام » للذهبي ٤ : ١٠٤ . وما أصدق ما قيل :

يَسُرُّ المرءَ ما ذهبَ الليالي ... وكان ذَهابُهُنَّ له ذَهابا !

ومن ألطف ما قيل في تصوير قِصَر أيام العُمر قولُ القائل :

أذانُ المرءِ حينَ الطِّفلُ يأتي ... وتأخيرُ الصّلاةِ إلى المماتِ
دليلٌ أنَّ مَحْيَاهُ يسيرٌ ... كما بينَ الأذانِ إلى الصلاةِ

وفُضولُ الغِذاءِ يُخرِجُ إلى الشَرَهِ والرَّغْبَة ، وفُضولُ اللباسِ يُخرِجُ إلى المُباهاةِ والخُيَلاء .

واعلَمْ أنَّ حفظَ الجوارح فريضة ، وتَرْكَ الفُضُول فَضِيلة . والتوبةُ قبل ذلك فريضة ، وقد فَرَضَها اللهُ ورسولُه ، فقال جلَّ ذكرُه : ﴿ يا أَيها الذين آمنوا تُوبوا إلى الله توبةً نَصوحاً ﴾ [١] ، معنى (نصوحاً) : تَرْكُ العَوْدِ فيما تاب منه العبدُ إلى ربِّه . وقال رسول الله ﷺ : « يا أَيُّها الناسُ توبوا إلى ربِّكم قَبْلَ أَنْ تَموتُوا ، وتَقَرَّبوا إلى اللهِ بالعملِ الصالح مِنْ قبل أَنْ تُشْغَلُوا » [٢] .

---

(١) من سورة التحريم : ٨ .

(٢) هذا جزء من حديث طويل ، أخرجه إبن ماجه من حديث جابر في « سننه » ١ : ٥٧٣ في باب فرض الجمعة ، ولفظه : « يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشْغَلوا ... » .

وفي سنده : علي بن زيد بن جُدعان ، وهو ضعيف باتفاق ، والراوي عنه : عبدُ الله بن محمد العدوي ، قال الذهبي في « الميزان » ٢ : ٦٨ في ترجمته « قال البخاري : منكر الحديث ، وقال وكيع : يضَعُ الحديث ، وقال ابن حِبّان : لا يجوز الاحتجاج بخبره » . ثم ساق الذهبي الطَرَفَ المذكور هنا من حديثه .

وقال الحافظ ابن حجر في ترجمته في «تهذيب التهذيب» ٦ : ٢١ بعد =

ولا تَصِحُّ التَّوْبَةُ إلا بأَرْبعةِ أشياء : حَلُّ إصرارِ القَلْبِ عَنِ المُعَاوَدَةِ ، والاستغفارُ بالنَّدَمِ ، وَرَدُّ التَّبِعَاتِ وَالمَظَالِمِ ، وَحِفظُ الجَوارِح مِنَ الحواسِّ السَّبْع : السَّمعُ والبصرُ واللسانُ والشَّمُّ واليدانِ والرجلانِ والقَلْبُ وهو أَميرُهَا ، وبِه صَلاحُ الجَسَد وفَسَادُهُ .

وقَد جعَلَ اللهُ عَلَى كلِّ جَارِحة أَمْراً ونَهْياً فَرِيضةً مِنْهُ ، وجَعَلَ بَيْنَهُمَا سَعَةً وإباحَةً تَرْكُها فَضِيلَةٌ للْعَبدِ .

فَفَرْضُ القلبِ ـ بعد الإيمانِ والتوبةِ ـ إِخْلاصُ العَمَل لله ، واعتقادُ حُسنِ الظَّنِ عند الشبهة ، والثقةُ بالله ، والخَوفُ مِنْ عذابِه ، والرجاءُ لفضلِهِ [١].

= أن ذكر ما نقله الذهبي في تجريحه: « رَوَى له ابنُ ماجه حديثاً واحداً في صلاة الجمعة ، وقال ابنُ عبد البر : إنَّ جماعةَ أهلِ العلم بالحديث يقولون : إنَّ هذا الحديث من وَضْعِ عبد الله بن محمد العدوي ، وهو عندهم مَوْسُومٌ بالكذب » . انتهى . فالحديث موضوع .

وكان أولى بالمؤلف أن يَستدلَّ على أمْرِ الرسول صلى الله عليه وسلم بالتوبة بحديث الأغرّ بن يَسار المُزَني رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناسُ توبوا إلى الله ، فاني أتوب إليه في اليوم مِئةَ مرَّة » . رواه مسلم في « صحيحه » ١٧ : ٢٤ .

(١) واعلم يا أخي: أنَّ كلَّ واحد إذا خِفتَه هَرَبْتَ منه، إلا الله =

وقد رُوِيَ في مَعْنَى القَلْبِ أَخْبارٌ كَثيرة ، منها : أَنَّ رسول الله ﷺ قال : « إنَّ مِنَ المؤمنينَ مَنْ يَلِينُ لَهُ قَلبي » (١) . وقَالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : « إنَّ الحقَّ يأْتي وعلَيْه نُورٌ ، فعليكم بِسَرائِرِ القلوب » (٢) . وقالَ ابنُ مسعود رضي الله عنه : للقُلوبِ شَهْوَةٌ وإقبَالٌ (٣) ، وفَتْرَةٌ وإدْبَارٌ ، فاغتنِمُوها

= سبحانه فانك إذا خفته هرَبْتَ إليه ، فهو المخوفُ منه والمرجّى ، فالخائفُ من الله هاربٌ من رَبِّه إلى رَبِّه . ﴿ ففِرُّوا إلى الله إني لكم منه نذيرٌ مُبين ﴾ .

(١) رواه الإمام أحمد في « مسنده » ٥ : ٢٦٧ في مسند أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه ، وذكره الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١٠ : ٢٧٦ وقال : « رواه الطبراني ، ورجالُه وُثِّقوا » . ولفظُ الحديث عنده عن أبي أمامة قال : لَقِيَني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فأخَذَ بيدي ثم قال : « يا أبا أمامة إنَّ من المؤمنين من يَلينُ له قَلْبي » . ولفظ الحديث في « مسند أحمد » : « قال أبو راشد الحُبْراني : أخَذَ أبو أمامة الباهلي بيدي وقال : أخَذَ بيدي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا أبا أمامة إنَّ من المؤمنين من يَلينُ لي قَلْبُه » .

(٢) لم أقف عليه فيما رجعت إليه من المراجع الحديثيّة ، فالله أعلم بثبوته .

(٣) هكذا جاء في الأصلين وفي « الحلية » لأبي نعيم ١ : ١٣ وفي « روضة العقلاء » لابن حبّان ص ١٧ ــ ١٨ أي عند جميعهم بلفظ : (شهوة وإقبال) ، والمعنى واضح . ولو قيل : إنها محرَّفة عن (شِرَّة وإقبال) أي نشاط ورغبة لما كان بعيداً ؛ والله أعلم .

عِندَ شَهْوتِها وإقبالها [١] ، وذَرُوها عِندَ فتْرَتِها وإدْبَارِها .

قالَ ابنُ المبارك رَحِمَهُ اللهُ : القَلْبُ مِثْلُ المِرآة : إذَا طَالَتْ في اليَدِ صَدِئَتْ ، وكالدابَّة : إذَا غُفِلَ عَنْها عَدَلَتْ [٢].

وقالَ بعضُ الحكماء : القَلْبُ مِثْلُ بَيتٍ لَهُ سِتَّةُ أَبوابٍ ثُمَّ قِيلَ لَكَ : احذَرْ أَلاَّ يَدْخُلَ عليكَ مِنْ أَحدِ الأَبوَاب شيء [٣] ، فَيُفسِدَ علَيْكَ البَيْتَ ، فالقَلْبُ هوَ البَيْتُ ، والأَبوابُ :

---

(١) وقع في الأصلين : (فأكرموها عند شهوتها) . وهو تحريف . والتصويب عن « الحلية » لأبي نعيم .

(٢) وربَّ غفلة للقلب منك تُكلِّفُك المتاعبَ والأهوال ! وتَشُطُّ بك عن الجادَّةِ المسافاتِ والأميال ! وما أجملَ قولَ شاعر الإسلام محمد إقبال رحمه الله تعالى في « ديوان الأسرار والرموز » ص ١٢٦ :

لحظةً يا صاحبي إن تَغْفُـــلِ ... ألفَ ميلٍ زادَ بُعْدُ المنزلِ !
رامَ نَقْشَ الشَّوْكِ حيناً رَجُلُ ... فاختَفَى عن ناظِرَيْهِ المَحْمِلُ

يقول إقبال رحمه الله تعالى : إنَّ إنساناً كان تائهاً في مفازة يمشي على قدميه ، فشَهِدَ على بُعْد منه مَحمِلاً أمَّلَ فيه أسبابَ النجاة والفوز من الهلاك ، فأسرع متعجلاً يَقصِدُ ذلك المحمِلَ حافياً متلهفاً ، آملاً نجاتَه بوصوله إليه ، فأصابَ الشَّوْكُ قَدَمَه ، فصرَفَ بصرَه عن المحمِلِ لحظةً لنزع الشوكة من قدمه ، فغاب المحمِلُ عنه ! ومات أملُه ، ولبِسَتْه الحسرات ! ! فحقٌّ من يطلُبُ شيئاً أن لا يَتحوَّل عنه حتى يناله . ولو لقي في سبيله الشدائد والأَلاقيَّ !

(٣) وقع في الأصلين (ثم قيل له ...) . فأثبته كما ترى .

العَيْنانِ واللَّسَانُ والسَّمْعُ والبَصَرُ واليَدَانِ والرِّجْلَانِ ، فَمَتَى انْفَتَحَ بَابٌ مِنْ هَذِهِ الأَبوابِ بغير عِلْمٍ ضَاعَ البيتُ !

وفَرْضُ اللسان ، الصِّدْقُ في الرِّضَا والغَضَب ، وكفُّ الأَذَى في السِّرِّ والعَلانِيَة ، وتَرْكُ التَزَيُّدِ بِالخَيْرِ والشرِّ ، وقالَ رَسُولُ الله ﷺ : « مَنْ ضَمِنَ لي ما بين لَحْيَيْهِ وما بين رِجْلَيْهِ ضَمِنْتُ لَهُ عَلى الله الجنَّة »[١] . وقالَ رَسُولُ الله ﷺ لمُعَاذ بن جَبَلٍ رضي الله عنه : « وَهَلْ يَكُبُّ النَاسَ في النَّارِ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إلا حَصَائِدُ أَلسِنَتِهِمْ ! ؟ »[٢] .

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه بلفظ : « من يَضْمَنْ لي ما بين لحيَيْهِ ، وما بين رجليه أضمَنْ له الجنة » . قال الحافظ ابنُ حجر في « فتح الباري » ١١ : ٢٦٥ « اللَّحْيانِ : هما العظمان في جانبي الفم . والمرادُ بما بينهما : اللسانُ وما يتأتّى به النطق . والمرادُ بما بين الرجلين : الفَرْج . قال ابنُ بطّال : دلّ الحديثُ على أن أعظم البلاء على المرء في الدُّنْيا : لِسانُهُ وفَرْجُهُ ، فمن وُقِيَ شرَّهما وُقِيَ أعظمَ الشرّ » .

(٢) أخرجه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه : الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه والترمذي . وقال : « حديث حسن صحيح » . وسقط من الأصل هنا لفظ (في النار) .

قال الحافظ ابن رجب في « جامع العلوم والحِكَم » ص ٢٤١ : « المرادُ بحصائدِ الألسنة : جَزَاءُ الكلامِ المحرَّمِ وعقوباتُه ، فانّ الإنسان يَزْرَع =

وقالَ ﷺ : « أُنْذِرُكُمْ فُضُولَ الكلامِ ، حَسْبُ أَحدِكم مَا يَبلُغُ بِهِ حَاجتَهُ ، فإنَّ الرجلَ يُسْأَلُ عنْ فُضُولِ كَلاَمِهِ كَمَا يُسْأَلُ عنْ فُضُولِ مَالِهِ » (١) . وقالَ ﷺ: « إنَّ اللهَ عِندَ

= بقوله وعمله الحسناتِ والسيئاتِ، ثم يحصُدُ يوم القيامة ما زَرَع ، فمَنْ زَرَع خيراً من قول أو عمل حَصَد الكرامة ، ومَنْ زَرَع شرّاً من قول أو عمل حَصَد الندامة !! » .

(١) هذا ليس بحديث . وإنما هو من كلام الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، كما نَسبَه إليه الغزالي في « الإحياء » ٨ : ٢١٢ ، ولفظه : « قال ابنُ مسعود : أنذركم فُضولَ كلامِكم ، حَسْبُ امرىء من الكلام ما بَلَغ به حاجته » . وقال شارحُ « الإحياء » العلامة الزبيدي في « شرحه » ٧ : ٤٦٦ : « أخرجه ابنُ أبي الدنيا فقال : حدثنا أبي ، أخبرنا ابن عُلَيّة ، عن ليث : أنّ ابن مسعود قال : أنْذَرتُكم فُضولَ الكلام ، بحَسْبِ أحدِكم ما بَلَغ حاجتَه » . انتهى .

فقد جَعَلَ ابنُ مسعود رضي الله عنه الفضولَ من الكلام أي الزائدَ منه على قدر الحاجة ذنباً يَستحق العقوبة ، ولذا أنذر وحذَّر منه . وقد حذَّر الشيخ أبو علي الدقّاق من فضول الكلام بأسلوب آخر يتحسّسُهُ أهلُ الدنيا ، المنهمكون في جَمْع حُطامها الحريصون عليها ، فقال رحمه الله تعالى : « لو كنتم تشترون الكاغدَ — أي الوَرَقَ — للحفَظَة لسَكتُم عن كثير من الكلام » . كما في « شرح الأربعين النووية » المنسوب للنووي وهو للقاضي زكريا ، في شرح (الحديث الخامس عشر) .

وأبو علي الدقاق هو الذي يقول : الساكتُ عن الحق شيطان أخرس . قال أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى : السكوتُ في وقته صفةُ الرجال ، كما أن النطق في موضعه من أشرفِ الخصال . =

لِسَانِ كُلِّ قائلٍ ، فاتَّقَى اللهَ امْرُوءٌ عَلِمَ مَا يَقُولُ » (١) .

وفَرْضُ البصرِ : الغَضُّ عنِ المَحَارِمِ ، وتَرْكُ التَّطَلُّعِ فِيْما حُجِبَ وسُتِرَ (٢). قال حُذَيفة رضي الله عنه : قال رَسُولُ

وما أحسن ما قيل : اللهم اجعَلْ صَمْتِي فِكْرا ، ونُطقِي ذِكرا . أي مُرضياً لك أثابُ عليه .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » ٨ : ١٦٠ عن ابن عمر ، والحكيمُ الترمذي في « نوادر الأصول » عن ابن عباس كما في « الجامع الصغير » للسيوطي . وأشار المُناوي في « فيض القدير » ٢ : ٢٤٠ إلى ضعف الحديث بوجود راوٍ في سنده ساقطِ الاعتبار . ومعنى (فاتّقى اللهَ امرؤ) أي فليتّقِ الله امرؤ .

(٢) قال الإمام ابن مفلح الحنبلي رحمه الله تعالى في كتابه « الفروع » ٥ : ١٥١ و ١٥٥ و ١٥٨ « وليحذر العاقلُ إطلاقَ البصر ، فانَّ العين ترى غيرَ المقدور عليه على غير ما هو عليه — أي ترى الإنسانَ الذي تُمنَعُ شرعاً من معاشرتِه والاختلاط به ، على غير ما هو عليه ، تَراه أجملَ وأطيبَ وأوفقَ وأفضلَ مما عندها من الحلال الطيب ، تزييناً من الشيطان وتلبيساً منه عليها ، ليُحوِّلَ أخزاه الله بتزيينه وتلبيسه ذاك المفتونَ من الحلال الطاهر إلى الحرام الخبيث ، أو ليُكرِّهَه بالحلال الذي عنده ، ويُحبِّبهَ بالحرام الذي لا يَحِلُّ له — . وربما وقع من ذلك العشق ، فيَهلِكُ البدَنُ والدين ! وكم من نظرةٍ ألقَتْ في قلب صاحبها البلابل !

وروى الحاكم في « تاريخه » عن ابن عيينة قال : حدثني عبد الله بن المبارك ، وكان عاقلاً ، عن أشياخِ أهل الشام قال : من أعطى أسبابَ الفتنة من نفسه أوَّلاً ، لم يَنْجُ منها آخِراً وإن كان جاهداً » . انتهى .

نَعَمْ ، وكم ساق إطلاقُ البصر والاختلاط المحظور إلى مهالك وعارٍ =

الله ﷺ : « النَّظَرُ سَهْمٌ منْ سِهَامِ إبليس ، فَمَنْ تَرَكَهُ مِنْ خَوفِ الله آتَاهُ اللهُ إيماناً يَجِدُ حلاوتَهُ في قَلْبِه »⁽¹⁾ . وقال أبو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه : مَنْ غَضَّ بصَرَهُ عَنِ النظَرِ الحرامِ : زُوِّجَ مِنَ الحُورِ العِينِ حيثُ أَحبَّ ، ومَنِ اطَّلَعَ فوقَ بُيوتِ الناس حَشَرَهُ اللهُ يَوم القيامة أَعْمَى !

= ومخازي لا تُمْحَى ولا تُنسَى؟! « قيل لهند بنت الخُسِّ - وقد زَنَتْ بعبدها ، وكانت شريفةَ قومها - : لِمَ زَنَيْتِ بعبدكِ وأنتِ سيِّدةُ قومِكِ ؟! ! فقالت : قُرْبُ الوِساد . وطُولُ السِّوَاد ! » .

تعني : أنَّ كثرةَ المخالطة بينها وبينه - قُرْبَ الوِساد - وطُولَ المحادثةِ والمناجاةِ معه ، - طُولَ السِّواد - هي التي خرجَتْ بها قليلاً قليلاً عن حِشمتِها ، ثم عن شَرَفِها ، حتى وقعت في عار الزنى ! نسأل الله تعالى السلامة والعافية . يقال في اللغة : ساوَدَ الرجلُ المرأةَ سِوَاداً ، إذا سارَّها فأدنى سَوَادَه من سَوَادِها أي شخصَه من شخصِها . كما في « لسان العرب » لابن منظور في مادة (سود) . وقد حكى فيها هذا الخبر ، وهو في « أعلام النساء » لكحّالة ٥ : ٢٣١ - ٢٣٤ .

فالعاقل من باعَدَ بينه وبين الفتنة وأسبابها ، ورَجَا من الله السلامة .

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » ٤ : ٣١٤ عن حُذَيفة ، وصحّحه ، وردَّه الحافظ الذهبي بأن فيه راوياً واهياً ، وآخرَ ضعيفاً . ورواه الطبراني عن ابن مسعود . وقال الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » ٣ : ٣١٧ : « في سنده واه » . وأقربُ الروايتين لفظاً إلى اللفظ المذكور : روايةُ الحاكم ، وهي : « النَّظْرةُ سَهْمٌ من سهام إبليس . مسمومةٌ . فمَن تركَها من خوفِ الله أثابه الله إيماناً يجدُ حلاوتَه في قلبه » .

وقال داودُ الطائيُّ لرجُلٍ ــ وقد أحدَّ النظرَ إلى بعضِ مَنْ يَنْظُرُ إليه ــ فقال : يَا هَذا ٱرْدُدْ بَصَرَكَ إليكَ ، فإنهُ بَلَغَني أَنَّ الرجلَ يُسْأَلُ عَنْ فُضُولِ نَظَرِهِ كَمَا يُسْأَلُ عَنْ فُضُولِ عَمَلِهِ (١) . ويُقالُ : « لَكَ النَّظْرَةُ الأُولَى ، ولَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ » (٢) . فَما هَجَمَ عَلَى النظرِ فهو موضوع عنِ العبد ، وما استَبَدَّ بِهِ النظرُ بِمعقولِ الفهم فالعبدُ مَأْخُوذٌ بِهِ (٣) .

وفَرْضُ السَّمْعِ : تَبَعٌ للكلامِ والنَّظَرِ ، فكُلُّ مَا لا يَحِلُّ لَكَ الكلامُ فِيه والنظرُ إلَيه : فَلاَ يَحِلُّ لَكَ استِماعُهُ ولا التَلَذُّذُ بِهِ . والبَحْثُ عَمَّا كُتِمَ عنكَ تَجَسُّسٌ (٤)

---

(١) جاء في الأصل (علميه) .

(٢) هو حديث مرفوع ، رواه بُرَيدةُ بن الحُصَيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ . أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وقال « حديث حسَنٌ غريب » . ولفظُهُ عندهم : « قال : قال رسول الله ﷺ : يا عليٌّ لا تُتْبِع النظرةَ النظرة ، فإنما لك الأولى ، وليستْ لك الآخرة » . وقولُه : « لك الأولى » يعني حيث تكون فَجأةً من غير قصد . وقولُه : « وليسَتْ لك الآخرة » لأنها باختيارك وقصدك فتكون عليك .

(٣) يعني : ما توجّهَ إليه النظرُ بقصد وفكر : فالعبدُ مسئولٌ عنه .

(٤) جاء في الأصلين : (تجسيس) . وهو تحريف .

وَسَمَاعُ اللَّهْوِ والغِنَاءِ وأَذَى المسلمينَ : حَرَامٌ كَالميتةِ والدَّمِ .
وقالَ عبدُ الله بن عُمَر رضي الله عنهما : نُهِينا عنِ الغِيبةِ والاستِماعِ إلَيْها ، وعنِ النَمِيمَةِ والاستِماعِ لَهَا .

وسُئِلَ القاسِمُ بنُ مُحَمَّد [١] عنْ سَمَاعِ الغِناءِ ؟ قالَ : إذَا ميَّزَ اللهُ بينَ الحقّ والباطل يَومَ القيامة ، أَين يقَعُ الغِناءُ ؟ قيلَ : في حَوْزِ الباطل ، قالَ : فَأَفْتِ نَفْسَكَ [٢] .

---

(١) هو : القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، كان من سادات التابعين وأحَدَ الفقهاء السبعة الذين كانوا في المدينة المنورة ، توفي سنة ١٠٦ رضي الله عنه .

(٢) وقد قطَعَ الاشتباهَ في تحريمه ومنعه ما جاء في « صحيح البخاري » في كتاب الأشربة ، في (باب ما جاء فيمن يَستحِلُّ الخمرَ ويُسمِّيه بغير اسمه) ١٠ : ٤٧ ـ ٤٨ عن « عبد الرحمن بن غَنْم الأشعري قال : حدثني أبو مالك الأشعري ـ والله ما كذَبني ـ سَمِعَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول : لَيَكونَنَّ من أمتي أقوامٌ يَستحِلُّون الحِرَ ـ يعني : الزنى ـ ، والحريرَ ، والخمرَ ، والمعازف » . انتهى .

وفي هذا الحديث بيَّنَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنَّ بين هذه الفواحش ترابطاً قوياً ، إذ كلٌّ واحدة منها تستدعي الأخرى ، فالزنى يَستدعي استحلالَ التزيُّن بالحرير ، وهو حرام على الرجال ، كما يستدعي استحلالَ شُرب الخمر ، واستحلالَ عزفِ آلات اللهو ، ليُزادَ بذلك عُرامُ الفساد في نفوس أهله ، وليؤجِّجَ لَهيبُه إذا فتَر فيها ! نسأل الله السلامة والعافية .

وليسَ مِنْ جَارِحةٍ أَشدُّ ضَرَراً علىَ العبدِ ــ بعد لِسانِه ــ مِنْ سَمْعِهِ ، لأنه أَسْرَعُ رَسُولٍ إلىَ القَلْبِ ، وأَقْرَبُ وقُوعاً في الفِتْنَةِ . وقدْ ذُكِرَ عَنْ وكيع بن الجرَّاح قالَ : سَمِعْتُ كَلِمَةً مِنْ مُبْتَدِعٍ منذ عِشْرِينَ سنة ، مَا أَستَطِيعُ إِخْرَاجَها مِنْ أُذُنَيَّ ! وكَانَ طَاوُوس إِذَا أَتَاهُ مُبتدِع سَدَّ أُذُنَيْه ، لِئلاَّ يَسْمَعَ كَلامَهُ .

وفَرْضُ الشَّمّ : تَبَعٌ للسَّمْعِ والبَصَر ، فكُلُّ مَا حَلَّ استِماعُهُ ونَظرُهُ ، جَازَ لكَ شَمُّهُ . وقَد رُوِيَ عَنْ عُمَر بن عبد العزيز رضي الله عنه أَنه أُتِيَ بمسْك ، فَأَمْسَكَ عنه أَنْفَهُ . فَقِيلَ لَهُ في ذَلِكَ ؟ فَقالَ : وَهَلْ يُنْتَفَعُ مِنهُ إلاَّ بِرَائِحتِهِ [1] ؟ .

وفرْضُ اليدينِ والرجلينِ : أَنْ لاَ تَبْسُطَهمَا إلىَ مَحْظُورٍ ، ولاَ تَقْبِضَهُمَا عَنْ حَقّ . وقَالَ مسروق : مَا خَطَا العَبدُ خَطْوَةً إلاَّ كُتِبَتْ حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً. وكَتَبَتْ ابنَةُ سُلَيمان [2] إلى عَبْدَة

---

(١) وقع في الأصلين : (فأمسك عن أنفه) . والظاهرُ أنّ المسْك كان من بيتِ المال حتى تورَّع الخليفة عمر بن عبد العزيز عن شمّه رضي الله عنه .

(٢) هو سليمان بن عبدالملك الخليفة الأموي المُحْسِن ، ولد بدمشق . =

بِنْتِ خَالدِ بن مَعْدَان[١] : (زُورِيني) ، فكَتَبَتْ إليها عَبْدَةُ : (أَمَّا بعدُ ، فإنَّ أَبِي رحِمَهُ اللهُ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَسِيرَ مَسِيراً ليسَ هُوَ فيهِ ضَامِناً على الله ، أَوْ يَأْكُلَ طَعَاماً إِذَا سُئِلَ عنهُ يوم القيامة لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ فيهِ مَخْرَج ، وقَدْ كَرِهْتُ مِنْ ذَلِكَ مَا كَرِهَ أَبِي . والسَّلاَمُ عليكِ) .

فانْ قالَ قائل : ما السَّبِيلُ إلى العمَلِ بذلكَ[٢] ؟ قِيلَ : لزُومُ مِنهاجِ الأَئمةِ المتقين ، والنظرُ في آدابِ المسترشدين لمَعرفةِ الخَطْوِ[٣] ، والتيقُّظُ بالمحَاسبة[٤] ،

= وتوفي فيها سنة ٩٩ رحمه الله تعالى، ولم أقف على ترجمة ابنته ، فذكرتُ هذه الكلمة عنه للتعريف بها إجمالاً .

(١) هو أحد التابعين رواةِ الحديث الثقات ، كان أحَدَ العُبَّاد ، وأصلُه من اليمن ، وأقام بحمص من بلاد الشام ، وكان شجاعاً غازياً كثير التسبيح والعبادة ، توفي سنة ١٠٣ رحمه الله تعالى ، وعرَّفتُ به لأني لم أقف على ترجمة ابنته ، وفي ذلك بعضُ تعريف لها .

(٢) جاء في النسخة المغربية : (ما السبيلُ إلى العِلم بذلك) .

(٣) جاء في النسخة المغربية : (لمعرفة الخطر) .

(٤) وإنما يَنْهضُ بهذا التيقُّظ الموفَّقون المراقبون شَرْعَ الله في أنفسهم في المَنْشَط والمَكْرَه والسرَّاء والضَرَّاء ، وإليك نماذج من سيرة أولئك الموفَّقين تُدرِكُ منها معنى (التيقُّظ بالمحاسبة)، ولا يغِبْ عن بالك كما =

. . . .

= سبق قريباً في ص ١٢٢ خبرُ إمساك الخليفة عمر بن عبد العزيز بأنفه عن مسك أُتي به إلى بيت المال ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : وهل يُنتَفَعُ منه إلا برائحته ؟ وهذا من أعلى درجات التيقظ بالمحاسبة .

١ ــ روى الحافظ أبو نُعَيم في « الحلية » ٥ : ٣٢٦ والإمام أحمد في « كتاب الزهد » ص ٣٠٠ ــ ٣٠١ في ترجمة عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد رحمه الله تعالى : « أنَّ عُمَرَ بن عبد العزيز رأى رجلاً يُشير بشماله ، فقال : يا هذا إذا تكلّمتَ فلا تُشِرْ بشمالك ، أشِر بيمينك ، فقال الرجل : ما رأيتُ كاليوم ، إنَّ رجلاً دفَنَ أعزَّ الناسِ إليه ــ وهو ابنُه عبدُ الملك ــ ، ثم إنه يهمُّه يميني مِن شِمالي ! فقال عمر : إذا استأثَرَ اللهُ بشيء فالْهُ عنه ــ أي اترُكْه وأعرِضْ عنه ولا تتعرَّضْ له ــ ، فقال له الرجل : جزاك الله عن الإسلام خيراً . فقال له عمر بن عبد العزيز : لا ، بل جزَى اللهُ الإسلامَ عني خيرا .

٢ ــ قال الشيخ تاج الدين ابن السُّبْكي في « طبقات الشافعية الكبرى » ٥ : ١٠٩ في ترجمة الحافظ زكيّ الدين عبد العظيم المُنْذِري الإمام الورع الزاهد الصالح صاحب كتاب « الترغيب والترهيب » : « سمعتُ أبي يحكي عن الحافظ الدمياطي أن الشيخ المنذري خَرَجَ من الحمّام مرَّةً وقد أخَذ منه حَرُّها ، فما أمكَنَهُ المشيُ ! فاستَلقَى على الطريق إلى جانب حانوت ! فقال له الحافظ الدمياطي : يا سيدي أنا أُقعدُك على مسطبة الحانوت ، وكان الحانوت مغلقاً ، فقال له الشيخ المنذري وهو في تلك الشدَّة : بغير إذن صاحبه كيف يكون ؟! وما رضي » .

٣ ــ قال الشيخ مرتضى الزبيدي في شرح « الإحياء » ٧ : ٥٦٦ في مبحث جواز غِيبة الفاسق : «إنَّ ذِكرَ الفاسِق بما فيه ليَحذره الناسُ : مشروطٌ =

. . . .

= بقصد الاحتساب وإرادةِ النصيحة دفعاً للاغترار به، فمن ذكَرَ أحَداً من هذا الصنف ، تَشَفِّياً لغَيْظه ، أو انتقاماً لنفسه ، أو لنحوِ ذلك من الحظوظ النفسانية فهو آثم ، صَرَّح بذلك تاج الدين ابن السبكي عن والده تقي الدين السبكي ، قال تاج الدين : كنتُ جالساً بدهليز دارنا فأقبل كلب ، فقلتُ : اخْسَأ كلبَ بنَ كلب ، فزجرَني الوالدُ من داخل البيت ، فقلت : أليس هو كلب بن كلب ؟ قال : شَرْطُ الجواز عَدَمُ قَصْدِ التحقير ، فقلت : هذه فائدة » .

٤ ــ حكى العلامة ابن عابدين رحمه الله تعالى في حاشيته « رد المحتار على الدر المختار » : أن الإمام أبا يوسف تلميذَ الإمام أبي حنيفة وقاضيَ القُضاةِ في زمن هارون الرشيد ، كان قد تقاضَى عنده الخليفةُ هارون الرشيد ونصرانيٌّ في خصومة وقعَتْ بينهما . فقضى أبو يوسف للنصراني على الخليفة . ولما أدركَتْه الوفاةُ قال : اللهم إنك تعلمُ أني وَليتُ هذا الأمر ، فلم أمِلْ إلى أحَدِ الخصمين حتى في القَلْب ، إلا في خصومةِ نصراني مع الرشيد لم أسَوِّ بينهما ــ أي في ميل القلب ــ وقضيتُ للنصراني على الرشيد ، وبكى !. انتهى من محاضرة الأستاذ عارف النكدي « القضاء في الإسلام » ص ٢٥ .

٥ ــ ذكر القاضي ابن أبي يَعلَى الحنبلي في « طبقات الحنابلة » ٢ : ١٧٧ ، في ترجمة (ابن حامد الورَّاق : عبد الله بن الحسن بن حامد البغدادي) : أنه كان ينسخ الكتب بيده ويقتاتُ من أجرته ، فسُمِّي (ابن حامد الورَّاق) ، وكان كثير الحج ، فعُوتب في كثرة سَفَرِه وحَجِّه مع كِبَرِ سِنّه ، فقال : لعل الدرهم الزيف يَخرُجُ مع الدراهم الجيِّدة .

قال : « وخرج إلى الحج في سنة ٤٠٢ ، فناله في بعضِ طريقه عطش شديد، فجاءه إنسان من الحاجّ بقليلِ ماء، وهو مستَنِدٌ إلى حَجَرٍ وقد =

. . . .

= أشرف على التلف، فأومأ ابنُ حامد إلى الجائي له بالماء: من أين هو؟ وأيّ شيء وجهُه؟ فقال له الجائي بالماء: أهذا وقتُ هذا السؤال؟! فأومأ: أن نعم، هذا وقتُه، عند لقاء الله عز وجل أحتاجُ أن أدري ما وجهُه. وتوفي في طريقه راجعاً من مكة سنة ٤٠٣ رحمه الله تعالى».

فانظر ــ رعاك الله ــ إلى مَدَى يقظة هؤلاء الأئمة في محاسبتهم لأنفسهم.

فالخليفة عمر بن عبد العزيز لم يَشغله حُزنُه الذي ملأ عليه يومَه ــ إذ دَفَنَ فيه أعزَّ الناس إليه ولَدَه وفلذة كبده ــ أن يُعلِّمَ الرجل ما أخطأ فيه، فما سَمح لنفسه أن يسكت على مخالفة تقعُ من أحد أفراد الرعيّة. وهي الإشارةُ باليد اليُسرى، فأرشَدَ الرجلَ ــ وهو مغمورٌ في ذلك الحُزْنِ العميق ــ إلى أنّ سُنّةَ الإسلام الإشارةُ باليد اليُمنى.

ولمّا مدَحَه الرجل وأشار إلى فضله على الإسلام، ردَّه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك، ونبّهه إلى أن الفضل للإسلام وحده. إذ هو الذي علّمنا الآداب والأخلاق وهو الذي يصنع في نفوس أبنائه الأعاجيب من الأعمال والمناقب.

والحافظ المنذري أرهقه حرُّ الحمّام حتى لم يستطع المشي. فاستلقى في الطريقِ من شدَّةِ ضعفِه وانهيارِ قواهُ! فيقول له صاحبُهُ: أنا أُقعدُك على مسطبة الحانوت، والحانوت مغلق لا يتضرَّر بجلوسه أحد لو جلس، فيقول الشيخ وهو أشدُّ ما يكون تَعَباً ورَهقاً: بغير إذن صاحبه كيف يكون؟! وما رضي أن يجلس بل رأى أن الاستلقاء في الطريق أحبُّ إليه من القعود على مسطبة الحانوت، وهو شيخُ مشايخِ عصره مقاماً وعلماً.

أما تقي الدين السبكي فقد رأى أن ابنه أخطأ حين زَجَرَ كلباً بلهجة المُتنَقِّص المُحتَقِر. فأعلمَهُ أنَّ ذلك لا يسوغُ ولو مَعَ الحيوان والكلب.

والعَمَلُ بالإنْصَافِ ، والتحرُّزُ بِكَفِّ الأَذَى ، وبَذْلُ الفَضْلِ بِتَرْكِ المِنَّةِ ، وحُسْنُ السَّمْتِ بغيرِ حَسَدٍ ، والقناعةُ بِحُبِّ الخُمُولِ ، وطُولُ الصَّمْتِ رغبةً في السلامة(١) ، والتواضُعُ لِلْخَلْقِ بِلا وَحْشَةٍ ، والأُنْسُ بالذكْرِ في الخَلْوَة ، وتَفَرُّغُ القَلْبِ للْخِدمةِ ، واجْتِماعُ الهمِّ بالمُرَاقبةِ ، وطَلَبُ النجَاةِ في طَريقِ الاستقامةِ .

= وأما القاضي أبو يوسف رحمه الله تعالى فقد رأى أنَّ مجرَّد مَيْلِه القلبي وتمنِّيه أن يكون الحقُّ في جانب إمام المسلمين الخليفة الرشيد لا في جانب النصراني : زَلَّةٌ يَخشى عقوبتَها من الله تعالى ، فتجسَّم له ذلك الميلُ القلبي ذنباً ارتكبه فبكى وهو يُودِّع الحياة !

وأما الفقيه ابن حامد الحنبلي رحمه الله تعالى فرأى — وهو في النَّفَسِ الأخير — أنَّ الموت عطشاً أحبُّ إليه من أن يَدخل جوفَه ماءٌ لا يَدري من أين جاء به حامِلُه ؟ لأنه يريد أن يَلقى الله تعالى وهو نقيٌّ الظاهر والباطن مما قد يُسألُ عنه .

ولقد صدَقَ القائلُ :

هُمُ الرجالُ وعَيْبٌ أن يقالَ لمن لم يتصف بمعاني وَصْفِهم : رَجُلُ !

(١) وإذا كنتَ في مجلس وطال ، فشعرتَ بفراغه من الخير فقُمْ عنه لسلامتك ، ولا تُطل جلوسَك فيه ، فقد قال الأعمش أحدُ الأئمة التابعين رحمه الله تعالى : إنه كان يقال : إذا طال المجلسُ كان للشيطان فيه مَطمع . رواه الإمام أحمد في كتاب « العِلَل » ١ : ٣٩٢ .

قالَ اللهُ عزَّ وجَلَّ : ﴿ إنَّ الذينَ قَالُوا رَبُّنا اللهُ ثُمَّ استقامُو فَلا خوفٌ عليهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) . وقالَ سُفيان بن عبد الله الثقفي : يا رَسُول الله حَدِّثني بأَمْرٍ أعتصِمُ بهِ ، قالَ : « قُلْ آمَنْتُ بِالله ، ثُمَّ اسْتَقِمْ » (٢) . وَقَالَ عُمَر بنُ الخطَّاب رضي الله عنهُ : (استقاموا) : لله بطاعته ، ولم يَرُوغوا رَوَغَانَ الثَّعَالب . وقَالَ أبو العالية الرِّياحِيّ : (استقاموا) : أَخْلَصُوا لله الدِّينَ والدَّعْوَةَ وَالعَمَلَ . وَأَصْلُ الاسْتقامة في ثَلاثَةٍ : اتِّباعُ الكتابِ ، والسُّنةِ ، ولُزُومُ الجماعة (٣).

---

(١) من سورة الأحقاف : ١٣ .

(٢) أخرجه مسلم في « صحيحه » . ولفظه : « قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك . قال : قل ... » . وفي رواية : « لا أسأل عنه أحداً بعدك » . قال الإمام النووي في شرح « صحيح مسلم » ٢ : ٩ : « قال القاضي عياض رحمه الله : هذا من جوامع كلمه ﷺ وهو مطابق لقوله تعالى : ﴿ إنَّ الذين قالوا : ربُّنا الله ثم استقاموا ﴾ أي وحّدُوا الله وآمنوا به ، ثم استقاموا فلم يحيدوا عن التوحيد ، والتزموا طاعته سبحانه وتعالى إلى أن تُوفّوا على ذلك » .

(٣) قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في « إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان » ١ : ٦٩ « وما أحسن ما قال أبو شامة في كتاب « الحوادث والبِدَع » : حيث جاء الأمرُ بلزوم الجماعة ، فالمرادُ به لزومُ الحقّ واتّباعُه ، وإن كان =

. . . .

= المتمسِّكُ به قليلا والمخالِفُ له كثيراً. لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابِه . ولا نظَرَ إلى كثْرة أهل البدع .

قال عمرو بن ميمون الأَوْدِي : صحبتُ معاذاً باليَمن ، فما فارقته حتى واريته في التراب بالشام ، ثم صحبتُ بعده أفقهَ الناس : عبدَ الله بن مسعود رضي الله عنه ، فسمعته يقول : عليكم بالجماعة فانّ يد الله على الجماعة . ثم سمعته يوماً من الأيام وهو يقول : سيلي عليكم وُلاةٌ يؤخرون الصلاة عن مواقيتها ، فصلوا الصلاة لميقاتها ، فهي الفريضة ، وصلُّوا معهم فانها لكم نافلة .

قال : قلت يا أصحاب محمد ، ما أدري ما تُحدِّثونا ؟ قال : وما ذاك ؟ قلت : تأمرني بالجماعة وتحضني عليها ، ثم تقول : صَلِّ الصلاة وحدك ، وهي الفريضة ، وصلِّ مع الجماعة وهي نافلة ؟

قال : يا عمرو بن ميمون قد كنتُ أظنُّك من أفقهِ أهلِ هذه القرية ، تدري ما الجماعة ، قلت : لا ، قال : الجماعةُ ما وافق الحقَّ وإن كنتَ وحدَك .

وفي لفظ آخر : فضَرَبَ على فخذي وقال : ويحك ! إنَّ جمهور الناس فارقوا الجماعة ، وإن الجماعة ما وافق طاعةَ الله عز وجل .

وقال نُعَيم بن حَمّاد : إذا فَسَدت الجماعةُ فعليك بما كانت عليه الجماعةُ قبل أن تَفسُد وإن كنت وحدك ، فانك أنت الجماعة حينئذ . ذكره البيهقي وغيره » .

وقال ابنُ القيم أيضاً مثلَه في «إعلام الموقعين» ٣ : ٤٠٩ ، ثم زاد عقبه =

واعْلَمْ أَنَّ أَنْجَى طَرِيقٍ للعبد : العمَلُ بالْعلم ، والتحرُّزُ بالخوفِ ، والغِنى بالله عَزَّ وجَلَّ . فَاشْتَغِلْ بإِصْلاحِ حَالِكَ ، وافْتَقِرْ إلى رَبِّكَ ، وتَنَزَّهْ عَنِ الشُّبهات ، وَأَقْلِلْ حَوائِجَكَ إلى الناس(١) ، وأَحِبَّ لهُم مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ، واكْرَهْ لهُم مِثْلَ ذَلِكَ ، ولا تَكْشِفَنَّ سِتْراً .

ولا تُحَدِّثَنَّ نفسَك بخطيئةٍ ، ولا تُصِرَّنَّ علَى صَغيرة ، وافزَعْ إلى الله عند كلّ فاقة ، وافْتَقِرْ إلَيهِ في كلِّ حَال ،

= ما ملخّصُه : « وقد جعَلَ بعضُ الناس السُّنّةَ بدعة ، والمعروفَ منكراً ، لقلة أهلِه وتفرُّدِهم في الأعصار والأمصار ، وقالوا : من شَذَّ شَذَّ في النار . وما عرفوا أن الشاذَّ منَ خالف الحق ، فان كان الناس كلُّهم إلا واحداً خالفوا الحق فهم الشاذون ، وذلك الواحدُ هو الجماعة .

وقد شذّ الناس في زمان الإمام أحمد بن حنبل إلا نفراً يسيراً ، فكان ذلك النفر هم الجماعة ، وكان القضاة والمفتون والخليفة وأتباعهم هم الشاذين ، وكان الإمام أحمد وحده هو الجماعة . ولما لم تتحمل هذا عقولُ الناس قالوا للخليفة : يا أمير المؤمنين أتكون أنت وقضاتُك وولاتك والفقهاء والمفتون كلُّهم على الباطل ، وأحمد وحدَه هو على الحقّ؟ فلم يتسع عِلمُه لذلك ! فأخذَهُ بالسياط والعقوبة بعد الحبس الطويل ! » ثم ظهر الحقّ وأهلُه ، وبطَلَ ما كانوا يَدّعون كما تقدّم تعليقاً في ص ٩١ـ٩٣ .

(١) وقد قيل : عِزُّ الرجل استغناؤه عن الناس .

وتوكَّلْ عليه في كلّ أمر(١). واعتزِلِ الهَوَى ، ولا تَقْنَعْ مِنْ نَفْسِكَ بالتربُّصِ ، وأَخْمِلْ ذِكرَكَ ، وأَدِمْ للهِ شُكْرَكَ ، وأَكْثِرْ مِنَ الاستغفارِ ، واعْتَبِرْ بالإفكارِ (٢) .

وعليكَ بالتأنّي عندَ مَوَارِدِ العَجَلَة ، وَحُسْنِ الأَدَبِ في المُخَالَطَةِ (٣). ولا تَغْضَبْ لِنفسِكَ علَى الناس ، واغضَبْ للهِ عَلَى نَفسِكَ ولا تُكَافِئَنَّ أَحَداً بإِسَاءَةٍ ، واحذَرْ المِدْحة

(١) ومن حقيقة التوكل : إثباتُ الأسباب والمسبَّبات ، ومَنْ نَفَاها فتوكُّلُه مَزْحٌ ولَعِب . وهذا عكسُ ما يَظهر في بادىء الرأي من أنَّ إثبات الأسباب يَقدَحُ في التوكل ، ولكن الأمر بخلافه ، فانَّ نُفَاة الأسباب لا يستقيمُ لهم توكُّلٌ البتة ، فانَّ التوكُّلَ أقوى الأسباب في حصول المتوكّل به ، فالتوكُّل كالدُّعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعُوِّ به . أفاده العلامة الفيروز آبادي في « بصائر ذوي التمييز » ٢ : ٣١٨ .

ومصداقُ هذا قولُه صلى الله عليه وسلم للأعرابي حين سأله : يا رسول الله أأُرسلُ ناقتي وأتوكل ؟ قال : « اعقِلْها وتوكل » . رواه الترمذي في « سننه » وقال : حديث غريب .

(٢) أي تدبَّرْ ما تفكّرُ فيه واعتبِر ، ولا تجعل تفكيرك فيما لا ثمرة منه .

(٣) أي في مخالطة الناس . قال رُوَيْم بن أحمد البغدادي لابنه : يا بُنيَّ اجعَلْ عملك مِلْحاً ، وأدَبَك دقيقاً . أي استكثر من الأدب حتى تكون نسبته في سلوكك من حيث الكثرة ، كنسبة الدقيق إلى الملح الذي يوضع فيه . وكثيرٌ من الأدب مع قليل من العمل الصالح ، خيرٌ من كثير من العمل مع قلة الأدب . ذكره الإمام القرافي في كتابه « الفروق » ٣ : ٩٦ .

لِلْجاهِلِ بنفسِهِ ، ولا تَقْبَلْهَا لنفسِكَ مِنْ أحدٍ . وأقلِلْ الضَّحِكَ وَجَانِبِ المزاحَ [١] .

واكتُمِ الأوجاعَ ، وأظهِرِ التَّعفُّفَ ، واستَبْطِنِ [٢] الثقة ، واستَشْعِرِ اليأسَ وحُسْنَ الفَقْرِ ، واصبِرْ عَلَى مَا أَصابَكَ ، وارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ ، وكُنْ مِنْ وَعْدِ اللهِ عَلَى يقينٍ وَمِنْ آثَارِكَ في وَجَل . ولا تتكَلَّفَنَّ مَا قدْ كُفِيتَهُ ، ولا تُضِيعَنَّ مَا وُكِّلْتَ بَطَلبِهِ ، وافتَقِرْ إلى اللهِ في كلِّ عَطَائِهِ ، وارْغَبْ في النجَاةِ مِنهُ .

وَاعْفُ عمَّنْ ظَلَمَكَ ، وأعطِ مَنْ حَرَمَكَ ، وَصِلْ في الله مَنْ قَطَعَكَ [٣] وآثِرْ في الله مَنْ أَحبَّكَ ، وابذُلْ نَفْسَكَ ومَالَكَ لإِخْوَانكَ [٤] ، وَارْعَ حقُوقَ الموْلَى في دِينِكَ ، ولاَ يَعْظُمْكَ

---

(١) وكان التابعي الجليل الحسن البصري رضي الله عنه يقول : الحُزْنُ في الدنيا تلقيحُ العمل الصالح ، وضَحِكُ المؤمن غفلةٌ من قلبه ، وكثرةُ الضحك تميت القلب » . كما في « الحلية » لأبي نعيم ٢ : ١٣٣ و ١٥٢ .

(٢) في النسخة المغربية : (واستوطن) .

(٣) في كتاب « العِلَل » للإمام أحمد ١ : ٩٧ عن رسول الله ﷺ « أهْدِ لمن لا يُهدِي لك ، وعُدْ من لا يعودك » .

(٤) قيل للتابعي الجليل محمد بن المنكدر رحمه الله تعالى: أيُّ العملِ =

كَبيرٌ مِنَ المعروف تَفعَلُه ، ولا تَحْقِرَنَّ صغيراً مِنَ المنكر تفعَلُهُ .

واحْذَرْ التزيُّنَ بالعلمِ ، كَمَا تَحْذَرُ العُجْبَ بالعَمَلِ ، وَلاَ تَعْتَقِدنَّ باطِناً مِنَ الأَدَبِ يَنْقُضُهُ عليكَ ظَاهِرٌ مِنَ العِلْم ، وأَطع اللهَ في معصيةِ الناس ، وَلا تُطِعِ الناسَ في معصيةِ اللهِ تعالَى ، ولا تَدَّخِرَنَّ مِنْ جُهْدِك عنِ اللهِ شَيئاً ، ولا تَرْضَ مِنْ نَفسِكَ للهِ عَمَلاً ، وَقُمْ بينَ يديهِ في صَلاتِكَ جُمْلَةً ،[1]

= أحبُّ إليك؟ قال : إدخالُ السرور على المؤمن، قيل له : فأيَّ شيء، تشتهي ؟ قال : الإفضال على الإخوان . رواه الإمام أحمد في كتاب « العِلَل » ١ : ٣٣ .

(١) أي قم لله في صلاتك بكليتك وجميعك : قلباً ونَفْساً وعقلاً ، مع إتقان هيئتها وآدابها ، فذلك هو المعنى المقصود من تكرار أمر الله تعالى في كتابه الكريم بلفظ ﴿أقيموا الصلاة﴾، ولم يأتِ هذا الأمرُ — ولا مرةً واحدة — بلفظ (صَلُّوا) .

و (إقامةُ الصلاة) معناها : أداؤها كاملةَ الأركانِ والشروط الظاهرةِ والباطنة .

ولإقامة الصلاة (بهذا المعنى) ثمراتٌ وأيُّ ثمرات فيّ سعادةِ الأمةِ وسعادة أفرادها .

فمن شروط إثمار : (إقامتِها) أن تكون مستوفية حقّها ظاهراً وباطناً ، صورةً ومعنى . =

. . . .

= ففي الظاهر : الاطمئنانُ والخشوعُ في ركوعها وسجودها . والتأمُّلُ والتفهمُ من المصلي فيما يقرأ ويقول من ذكر وأدعية .

وفي الباطن استشعارُهُ خشيةَ الله ، وهو واقف بين يديه فيها : فلا يصرفه عنها شاغلٌ مّا مهما كان عظيماً .

ولمنزلة (هذه الصلاة) كانت أوّلَ شيء يطلبُه خليلُ الرحمن سيدُنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، من ربه لنفسه ولذريته فيقول :﴿ رَبِّ اجعلني مُقيمَ الصلاة ومِن ذُرِّيَّتي ﴾ .

ومن أجل هذه المنزلة (لهذه الصلاة أيضا) طلَبَ اللهُ سبحانه من سيدنا محمد خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم : أن يأمر أهلَه بالصلاة ، ويصبر على مشاقِّها فقال : ﴿ وأمُرْ أهلَكَ بالصلاة واصطبِرْ عليها لا نَسألُكَ رِزقاً نحن نَرزُقُكَ والعاقبة للتقوى ﴾ .

ومن ثمرات (هذه الصلاة) حين تؤدَّى على الوجه الذي طلبه الله سبحانه من (إقامتها) أنها تكُفُّ صاحبَها عن كل فُحْش ، وتُقصيه عن كل منكر ، كما جاء ذلك في قوله سبحانه :﴿ وأقم الصلاةَ إنَّ الصلاة تَنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ .

ومن ثمرات (هذه الصلاة) أن يتعوَّد المؤمنُ على الاستهانةِ بالشدائد ، وتحمُّلِها بقلب مطمئن وعزيمة صُلْبة ، يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبرِ والصلاةِ إن الله مع الصابرين ﴾ .

ومن ثمرات (هذه الصلاة) أنها تمحو الخطايا والسيئات ، وأيُّ واحد — سوى من عصمهم الله — ليس له خطايا وسيئات ؟! فكلُّنا في حاجة شديدة إلى هذه العبادة المطهِّرة ، قال تعالى :﴿ وأقم الصلاة طَرَفَيِ النهار وزُلَفاً من الليل إنَّ الحسناتِ يُذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ . =

وَأَدِّ زَكَاةَ ما افْتَرَضَ اللهُ عليكَ بالنشاطِ والرغبةِ ،
وَاحفَظْ صَوْمَكَ مِنَ الكذبِ والغِيبةِ .

وَارْعَ حَقَّ الجارِ والمِسكينِ والقريبِ(١) ، وأَدِّبْ أَهْلَكَ.
وَارْفُقْ بما مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، وكُنْ قَوَّاماً بالنَّشَاطِ كَما أَمَرَكَ ،
وإِذَا حُرِّكْتَ لخَيرٍ فَتَعَجَّلْهُ ، وما اشْتَبَهَ عليكَ فَدَعْهُ(٢).

= ومن ثمرات (هذه الصلاة) أنها تَضَعُ – بين صاحبها وبين التذبذب في دائرة الجَزَع والبُخْل – سَدَّاً منيعاً ، قال تعالى : ﴿ إنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً . إذا مسَّه الشرُّ جَزُوعاً . وإذا مَسَّه الخيرُ مَنُوعاً . إلا المصلين . الذين هم على صلاتِهم دائمون ...﴾ .

وبعْدَ هذا إذا رأينا رجلاً يصلي ولا تكسبُه صلاتُه ثمرةً من هذه الثمرات الثمينة ، تَحَتَّمَ أن نجزم أن صلاته ليست هي الصلاة التي أمرَ الله بها عبادَه ، بل تكون أشبه بصلاة من قال الله فيهم سبحانه : ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسَالَى يراءون الناس ولا يَذْكُرون الله إلا قليلا ﴾ . وقانا الله شَرَّ ذلك بمنّه وكرمه .

(١) واحرصْ أن تكون الجار الصالح المحبوب الذي قال فيه الشاعر :

إني لأحسُدُ جارَكم لجِوارِكم ... طُوبَى لمن أمسَى لدارِكَ جارا

يا ليت جارَك باعني مِن داره ... شبراً فأعطيه بشبرٍ دارا

(٢) وكان التابعي الجليل محمد بن سيرين رضي الله عنه إذا عرض له أمرانِ في دينه أخَذَ بأوثقهما . وحَدَّث أنه اشترى طعاماً – أي قمحاً للتجارة – بأربعين ألف درهم ، فأخبِرَ عن أصل الطعام بشيء فكرهه ، فتركه أو تصدَّق به. قال تلميذه هشام بن حسّان: ترك محمد بن سيرين =

وٱلزَمِ الرَّحْمَةَ لِلْمؤمنين ، وقُلِ الحقَّ حيثُما كُنْتَ .

ولا تُكْثِرِ الأَيمانَ وإنْ كُنتَ صَادِقاً(١) ، واحْذَرِ التوسُّعَ في المَنطِقِ وإنْ كُنتَ بَليغاً ، وإيَّاكَ والتكلُّفَ في الدِّينِ وَإنْ كُنتَ عَالماً . وَقَدِّمِ العِلْمَ قَبْلَ كلّ مقالٍ(٢) .

= أربعين ألفاً في شيء ما ترون به اليوم بأساً . كما في «تاريخ الاسلام» للحافظ الذهبي ٤ : ١٩٤ — ١٩٥ . وقد سبق في ترجمة المؤلِّف المحاسبي ص٢٧ — ٢٨ أنه ترك سبعين ألفَ درهم لشبهة قامت له في معتقَدِ أبيه .

(١) فقد قيل : علامةُ الكاذب جُودُه بيمينه من غيرِ مستحلِفٍ له . بل إن استطعت أن لا تحلف فلا تحلف ، فقد روى البخاري في « التاريخ » والحاكم في « المستدرك » ٤ : ٣٠٣ بسند فيه ضعف « عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحَلِفُ حِنْثٌ أو نَدَم » .

وذلك أن الحالف إما يخالِفُ يمينَه فيحنث ويأثم لكذب اليمين ، أو يندَمُ على منعه نفسَه مما كان له فعلُه وعملُه . ثم في قوله : واللهِ لا فعلتُ ، أو : واللهِ لأفعلَنّ نوعُ تألٍّ على الله تعالى ، فربما أكذبه الله بحِنْث ، أو عذَّب قلبَه بندَم ، فحقٌّ المسلم أن يَتحاشى من الحلف ما استطاع ، وإن بدَرَ منه الحلِفُ سهواً فليُتْبِعه بالاستثناء بمشيئة الله تعالى فيقول : إن شاء الله تعالى . فذلك أحفظُ لدينه وأسلمُ ليمينه ، والله الهادي لمن استهداه .

(٢) أي ينبغي أن تعلم حُكمَ ما تقوله أو تعمله قبلَ صدوره منك . قال الشيخ ابن القيم في «إعلام الموقعين» ٢ : ١٦٠—١٦١ وهو يتعرَّضُ لتفسير قوله تعالى ﴿إياك نعبد وإياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم﴾. قال رحمه الله تعالى :=

. . . .

= « والعبدُ إذا عزَمَ على فعلِ أمرٍ فعليه أن يَعلم أوّلاً هل هو طاعة لله أم لا ؟

١ — فان لم يكن طاعة فلا يفعله إلا أن يكون مباحاً يستعين به على الطاعة ، وحينئذ يصير طاعة .

٢ — فاذا بان له أنه طاعة فلا يُقدِمُ عليه حتى يَنظُرَ هل هو مُعانٌ عليه أم لا ؟ فان لم يكن مُعاناً عليه فلا يُقدِمُ عليه فيُذِلَّ نَفْسَه . وإن كان مُعاناً عليه بقي عليه نَظرٌ آخر .

٣ — وهو أن يأتيه من بابِه . فان أتاه من غير بابه أضاعه ، أو فرَّط فيه ، أو أفسد منه شيئاً .

فهذه الأمور الثلاثة — الطاعة والإعانة والهداية — أصلُ سعادةِ العبد وفَلاحِه . وهو معنى قول العبد لربه : ﴿إياك نعبد . وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم﴾.

فأسعدُ الخلق أهلُ العبادةِ ، والاستعانةِ ، والهداية إلى المطلوب . وأشقاهم من عَدِمَ الأمور الثلاثة .

ومنهم : من يكون له نصيبٌ من ﴿ إياك نعبد ﴾، ونصيبُه من ﴿إياك نستعين﴾ معدومٌ أو ضعيف . فهذا مخذولٌ مَهين محزون .

ومنهم : من يكون نصيبُه من ﴿إياك نستعين﴾ قوياً . ونصيبُه من ﴿إياك نعبد﴾ ضعيفاً أو مفقودا ، فهذا له نفوذٌ وتسلُّطٌ وقوَّة ، ولكن لا عاقبة له ، بل عاقبتُه أسوأُ عاقبة !

ومنهم : من يكون له نصيبٌ من ﴿إياك نعبد وإياك نستعين ﴾، ولكن نصيبُه من الهداية إلى المقصود ضعيف جداً ، كحال كثيرٍ من العُبّاد والزُّهّاد =

وَٱلزَمِ الإشفاقَ بعدَ الاجتهادِ ، وَدَارِ الناسَ ما سَلِمَ لكَ الدِّينُ ، وٱحذَرِ المُدَاهَنَةَ أَصلاً (١) .

= الذين قلَّ علمُهم بحقائق ما بَعَثَ الله به رسولَه صلى الله عليه وسلم من الهُدى ودين الحق » . انتهى .

قال عبد الفتاح : هذا — والله — دستور عظيم ، عليه أنوار مشكاة النبوة . يَحتاجُ إليه كلُّ عاملٍ لصلاح نفسه ، أو عاملٍ لصلاح الأمّة . فاحفظه حفظا ، معنى ولفظاً ، فانه ينفعك أيما نفع بإذن الله .

ومن جميل ما جاء عن السلف في تقديم العلم على العمل : ما حكاه القاضي عياض في « ترتيب المدارك » ٣ : ٨٩ في ترجمة الإمام (البُهلُول بن راشد القيرواني المالكي) صاحب الإمام مالك ، المتوفى سنة ١٨٣ رحمه الله تعالى ، وهو من كبار العُبّاد والزهاد وأهل الورع ، قال فيها :

« خرج بُهلول يوماً على أصحابه ، وقد غطّى خِنصَرَه بيده . وكان أهلُه قد سألوه حاجة ، فرَبَط في خنصره خيطاً ليذكرها ، ثم قال : خِفتُ أن أكون ابتدعتُ ، فغطّى إصبعَه لئلا يراه أحد فيقتدي به . ثم وجّه بعضَ أصحابه — وأسرَّ إليه الأمر — يَسألُ ابنَ فرُّوخ صاحبَه عن ذلك . فجاءه فأخبره عنه : أن عبد الله بن عمر كان يفعل ذلك ، فنحّى بهلول كفّه عن خنصره وقال : الحمد لله الذي لم يجعلني ممن ابتدع بدعة في الإسلام » .

فانظر — رحمك الله — كيف توقف هذا الإمام الجليل عن إظهار الرَّتيمة — ربط الخيط بالإصبع للتذكر — حتى يعلم حكمها من الشرع ، خشية أن يقع في البدعة والمخالفة رحمه الله تعالى .

(١) قال الحافظُ ابن حجر في « فتح الباري » ١٠ : ٤٢٨ ما خلاصته : الفَرْقُ بين المداراة والمداهنة أنَّ المداراة هي خَفْضُ الجَناح للناس ، والرفقُ =

. . . .

=بالجاهل في التعليم، وبالفاسقِ في النهي عن فعله ، وتَرْكُ الإغلاظِ عليهحيث لا يُظهِر ما هو فيه ، والإنكارُ عليه بلطفِ القول والفِعل ، ولا سيما إذا احتيج إلى تألُّفِه . وهي من أخلاق المؤمنين ومندوبٌ إليها .

والمداهنةُ — وهي مأخوذة من الدِّهان ، وهو الذي يَظهَر على الشيء ويَستُرُ باطنَه — مُعاشَرةُ الفاسقِ وإظهارُ الرضا بما هو فيه من غير إنكارٍ عليه ، وهي محرَّمة منهيٌّ عنها . انتهى .

وقيل في الفرق بين المداراة والمداهنة أيضا : إنَّ المداراة هي بذلُ الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو صلاحِهما جميعا . والمداهنة هي بذلُ الدين لصلاح الدنيا .

وقال الإمام ابن القيم في الفرق بين المدارة والمداهنة في كتاب « الرُّوح » ص ٢٨١ . ونقَلَه الحافظ البقاعي في مختصره « سِرّ الرُّوح » ص ٢٣ ولخصه بقوله : « والفرق بين المدارة والمداهنة : أن المداراة : التلطفُ بالإنسان لتستخرج منه الحق ، أو تَرُدَّه عن الباطل . والمداهنةُ : التلطفُ به لتقره على باطله ، وتتركه على هواه ، فالمداراةُ لأهل الإيمان ، والمداهنة لأهل النفاق .

مثالُ ذلك رجل به قَرْحة فجاءه الطبيب الرفيق فتعرَّف حالها ، ثم أخذَ في تليينها حتى إذا نَضِجَتْ بَطَّها برفق وسهولة . فأخرج ما فيها ، ثم وضع عليها من الدواء ما يمنع الفساد ويقطع المادة . ثم تابع عليها المراهم المُنْبِتَة للحم ، ثم ذَرَّ عليها ما يُنشِّفُ الرطوبة ، ثم شدَّ عليها الرباط . ولم يزل حتى صلحت ، فهذا المداري .

وأما المُداهِن فقال لصاحبها : لا بأس عليك منها ، وهذه لا شيء ، فاستُرْها عن العيون بخرقة ثم الْهُ عنها . وهذا لِما رأى مِن جزَعه من بطّها . فلم تزل مادَّتُها تقوى وتستحكم ، حتى زادت مَوادُّها وعظُمَ فسادُها ! » . انتهى .

=

وَخَالِقِ الناسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ . ولا تَسْتَحِيَنَّ أَنْ تَقولَ فيما لا تعلم : اللهُ أَعلم(١).

ولا تَنْشُرْ حَدِيثَكَ عِندَ مَنْ لاَ يُرِيدُهُ ، ولاَ تبذُلْ دِينَكَ عِندَ مَنْ يُبَغِّضُهُ إليكَ . وَلاَ تَتَعَرَّضْ مِنَ البَلاءِ مَا لا طَاقَةَ لَكَ به ، وأَكْرِمْ نفسَكَ عَمَّنْ يُهِينُها ، ونَزِّهْ هِمَّتَكَ عَنْ دَنَاءَةِ الأَخلاقِ ، ولا تُوَاخِ إلا أَمِيناً ، ولا تُبدِ أَسْرارَكَ لكلِّ الناس ، ولا تُجَاوِزْ بالمرءِ حَالَهُ ، ولا تُخَاطِبْهُ مِنَ العِلْمِ بما لا يَحْتَمِلُهُ عَقْلُهُ ، ولا تَدْخُلْ في أَمْرٍ لَمْ تُدْعَ إليهِ .

وَوَقِّرْ مَجَالِسَ العُلَماء ، واعرِفْ قَدْرَ الحُكَماء(٢) ،

وقد قال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : إنَّ الرجل ليَخرُجُ من بيته ومعه دِينُه ، فيَلقى الرجلَ له إليه حاجة ، فيقول : إنك لذَيْتَ إنك لذيت : يُثني عليه ، وعَسى أن لا يَحلى – أي لا يَحظى – من حاجته بشيء ، فيرجعُ فيُسخِطُ الله عليه ، فيرَجعُ وما معه من دِينه شيء ! رواه الإمام أحمد في « العِلَل » ١ : ٢٦٨ .

(١) تقدم تعليقاً في ص ٤٩–٥٠ كلمةٌ حول هذا الأدب ، فعُدْ إليها .

(٢) ما أجمله من أدب ، وما أنفعه لمن طَلَب ؟ . وقد لزِمَ الإمامُ أحمد بن حنبل رضي الله عنه شيخَه (هُشَيم بن بشير الواسطي) خمسَ سنين ، قال : وما سألتُه عن شيء هيبةً له إلا مرَّتين . كما في كتاب « العِلَل » للإمام أحمد ١ : ١٤٥ .

=

. . . .

= وجاء في « الجامع الصغير » للسيوطي عن النبي صلى الله عليه وسلم قولُه : « تَعلَّموا العلم ، وتَعلَّموا للعلم السكينة والوقار ، وتَواضَعوا لمن تَعلَّمون منه » رواه عن أبي هريرة : الطبراني في « الأوسط » وابن عدي في « الكامل » بإسناد ضعيف .

قال العلامة المناوي في « فيض القدير » ٣ : ٢٥٣ في شرح قوله صلى الله عليه وسلم : (تواضعوا لمن تَعلَّمون منه) : « فان العلم لا يُنال إلا بالتواضع وإلقاء السمع . وتواضُعُ الطالب لشيخه رِفْعة ، وذُلُّهُ له عِزّ ، وخضوعُه له فخْر . وأخَذَ الحَبْرُ — أي العالمُ الإمامُ — عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما مع جلالتِه وقرابتِه للمصطفى صلى الله عليه وسلم بركابِ زيد بن ثابت ، وقال : هكذا أُمِرنا أن نفعل بعلمائنا ، فقبَّلَ زيدٌ يَدَ ابن عباس وقال : هكذا أُمِرنا أن نفعل بآل بيت نبينا .

وقال السليمي : ما كان إنسان يجترىء على ابن المسيِّب ليَسأله حتى يَستأذنه كما يُستأذَنُ الأمير . وقال الشافعي : كنتُ أتصفَّحُ الورَقَ بين يدَيْ مالك برِفْق لئلا يَسمع وَقْعَها . وقال الربيع — تلميذ الإمام الشافعي — : والله ما اجترأتُ أن أشرب الماءَ والشافعيُّ ينظر » . انتهى .

وفي « مناقب الإمام أبي حنيفة » للموفَّق الخُوارزمي ٢ : ٧ « رُوي عن أبي حنيفة أنه قال : ما مَدَدتُ رجلي نحوَ دارِ أستاذي حَمّاد إجلالاً له ، وكان بين داري وداره سَبْعُ سِكك . وما صَلّيتُ صلاةً منذ مات حمّاد إلا استَغفرتُ له مع والدَيّ ، وإني لأستغفرُ لمن تعلّمتُ منه أو علّمني علماً . وقال أبو يوسف — تلميذُ الإمام أبي حنيفة — : إني لأدعو لأبي حنيفة قَبْلَ أبويّ . ولقد سمعت أبا حنيفة يقول : إني لأدعو لحمّاد مَعَ أبويّ » . انتهى .

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه : ما بِتُّ منذ ثلاثين سنة إلا =

وَلا تَدَعِ المُكافأةَ والصَّنائعَ (١) ، وأَعْرِضْ عَنِ الجُهَّالِ ، وَاحْلُمْ عَنِ السُّفَهاءِ ، وَشَاوِرْ في أَمْرِكَ الذينَ يَخْشَوْنَ اللهَ .

وانصُرْ أَخاكَ مظلوماً ، وَرُدَّهُ إلى الحقّ إنْ كَانَ ظَالماً ، وَابذُلْ لَهُ حَقَّهُ منكَ ، ولا تُطَالِبْهُ في حَقِّكَ مِنهُ ، ويَسِّرْ

= وأنا أدعو للشافعي وأستغفر له. قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلتُ لأبي: أيَّ رجلٍ كان الشافعي ، فاني سمعتُك تُكثر من الدعاء له ؟ فقال : يا بُنَيَّ : كان الشافعيُّ كالشمس للدنيا ، وكالعافية للناس ، فانظر ، هل لهذين مِن خَلَف؟ أو عنهما مِن عِوَض ؟. كما في «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي ٢ : ٦٢ و ٦٦ .

اللهم اغفر لمشايخنا ولمن علّمنا وارحمهم ، وأكرمهم برضوانك العظيم ، في مقعد الصدق عندك يا أرحم الراحمين .

(١) الصنائع : جمعُ صنيعة ، وهي النعمة واليدُ الحسنةُ تُقدَّمُ لك من غيرك ، فلا تَدَعْ المكافأةَ عليها ومقابلةَ الصنيعة بالصنيعة . قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صَنَع إليكم معروفاً فكافئوه ، فان لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له ، حتى تروا أنكم قد كافأتموه » رواه عن ابن عمر : النسائي ٥ : ٨٢ وأبو داود واللفظ له .

ومن المكافأة للصنيعة أن تدعُوَ لمن تعلّمتَ منه ، أو أفادك فائدة ، كما رأيتَه في التعليقة السابقة من دُعاء أبي حنيفة لشيخه حمّاد ، ودُعاء أبي يوسف لشيخه أبي حنيفة ، ودُعاء أحمد لشيخه الشافعي رضي الله عنهم . وقد جاء عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال : الحرُّ من راعَى ودادَ لحظة ، أو انتمَى لمن أفاده لفظة . كما في « شرح الباجوري على السنوسية » .

عَلَى الغَرِيم [1] ، وارْفُقْ بالأَرْمَلَةِ واليتيم ، وأكرِمْ الصابرين من الفقراء ، وَارْحَمْ أَهْلَ البَلاءِ مِنَ الأَغنياء ، ولا تحْسُدَنَّ أَحَداً عَلَى نِعْمَة .

ولا تَذْكُرْ أحداً بِغيبةٍ ، وَسُدّ عَلَى نفسِكَ بَابَ سُوءِ الظَّنِّ بِخَوْفِ المسألةِ [2] ، وافتَحْ بَابَ حُسْنِ الظنّ بِسَعَةِ التأْوِيلِ ، وأَغْلِقْ بَابَ الطَمَع بالإِياس ، واستَفْتِحْ بَابَ الغِنَى بالقناعةِ ، ونَزِّهْ ذِكْرَ الله عنْ إِضَافةِ المَكَارِهِ [3] .

---

(١) أي المَدين .

(٢) أي بخوفك من أن تُسأل بين يدَيْ الله تعالى عن سوء ظنك بغيرك .

(٣) وقد كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في افتتاح الصلاة : « لَبَّيْكَ وسَعْدَيْك . والخيرُ كلُّه في يديك . والشرُّ ليس إليك » . كما رواه أبو داود في « سننه » ١ : ٢٠١ في (باب ما يَستفتِحُ به الصلاةَ من الدعاء .

قال ابن الأثير في « النهاية » في شرح قوله صلى الله عليه وسلم « والخيرُ كلُّه بيديك . والشرُّ ليس إليك » : أي أنَّ الشرَّ لا يُتقرَّبُ به إليك ولا يُبتَغَى به وجهُك ، أو أنَّ الشرَّ لا يَصعَدُ إليك ، وإنما يَصعَدُ إليك الطيِّبُ من القول والعمل .

وهذا الكلامُ إرشادٌ إلى استعمال الأدب في الثناء على الله ، وأنْ تُضافَ =

وحصِّلِ الأَوقاتَ ، واعرِفْ مَا يَذْهَبُ بهِ لَيلُكَ ونَهارُكَ[١] ،

=إليه سبحانه مَحاسِنُ الأشياء دُونَ مَساويها. وليس المقصودُ نفيَ شيء عن قُدرته تعالى وإثباتَه لها ، فان هذا الأدب في الدعاء مندوب إليه . يُقال : يا ربَّ السماء والأرض . ولا يُقالُ : يا ربَّ الكِلابِ والخنازير وإن كان هو ربَّها » وربُّ كلِّ شيءٍ سبحانه .

(١) أي اكتسِب الأوقات ولا تُضيِّعْها فارغةً من غير أن تملأها باستفادة أو إفادة ، وخاصةً اذا كنتَ طالبَ علم . فالوقت هو رأس مالك . ولقد كان مؤرِّخُ بغداد ومحدِّثُها الخطيبُ البغدادي يمشي وفي يده جُزءٌ يُطالِعُه ، كسباً للوقت حتى في أثناء المشي . كما في ترجمته في « تذكرة الحفاظ » للذهبي ٣ : ١١٤١ .

وجاء في سيرة الإمام الشيخ أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي ، المولود سنة ٤٣١ ، والمتوفى سنة ٥١٣ ، وهو أحد الأعلام في الإسلام : أنه كان يقول : إني لا يَحِلُّ لي أن أُضيع ساعةً من عمري ، حتى إذا تعطّلَ لساني عن مذاكرة ومناظرة ، وبصري عن مطالعة ، أعملتُ فكري في حال راحتي ، وأنا منطرِح ، فلا أنهضُ إلا وقد خطر لي ما أسطره . وإني لأجدُ من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشدَّ مما كنت أجدُه وأنا ابن عشرين سنة .

وأنا أُقصِّرُ بغاية جهدي أوقاتَ أكلي ، حتى أختارُ سفَّ الكعك وتحسِّيَه بالماء على الخبز ، لأجل ما بينهما من تفاوُتِ المَضْغ ، توفُّراً على مطالعة ، أو تسطيرِ فائدة لم أدركها فيه . وإنَّ أجلَّ تحصيلٍ عند العقلاء بإجماع العلماء هو الوقت ، فهو غنيمة تُنتَهزُ فيها الفُرَص ، فالتكاليف كثيرة .

قال تلميذُه ابنُ الجوزي : كان الإمام ابن عقيل دائمَ الاشتغال بالعلم ، وكان له الخاطرُ العاطر ، والبحثُ عن الغوامض والدقائق ، وجعَلَ كتابه المسمّى بـ « الفنون » مَناطاً لخواطره وواقعاته .

. . . .

= قال الحافظ ابن رجب : وللإمام ابن عقيل تصانيف كثيرة في أنواع العلوم ، نحو العشرين تصنيفا ، وأكبرُ تصانيفه كتابُ « الفنون » ، وهو كتاب كبير جداً ، فيه فوائد كثيرة جليلة ، في الوعظ ، والتفسير ، والفقه ، وأصول الفقه ، وأصول الدين ، والنحو ، واللغة ، والشعر ، والتاريخ ، والحكايات . وفيه مناظراتُه ومجالساتُه التي وقعَتْ له ، وخواطرُه ونتائجُ فكره ، قيّدها فيه .

قال الحافظ الذهبي : لم يُصنَّف في الدنيا أكبرُ من هذا الكتاب . حدّثني من رأى منه المجلّدَ الفلانيَّ بعد الأربعِ مئة . قال ابن رجب : وقال بعضهم : هو ثمانُ مِئة مجلّدة .

قال ابن الجوزي : ولما أدركتِ الوفاةُ الإمامَ ابنَ عقيل واحتُضِر بكى النساء ! فقال : قد وقّعْتُ عن الله خمسين سنة — يعني أنه كان يُوقِّعُ الفتاوي التي يُبيِّنُ فيها أحكام الله في الوقائع والحوادث التي تقع للناس ، فكان يُوقِّعُ فيها نيابةً عن الله تعالى — فدَعُوني أتَهنّأ بلقائه . ولم يُخلِّف سوى كتبه وثيابِ بدنه ، وكانت بمقدارِ كَفَنه وأداءِ دَيْنه . رحمه الله تعالى وجزاه عن العلم والدين والإسلام خيراً .

وكان الفقيه عبدالله بن المبارك العُكْبَري تفقّه على ابن عقيل ، فأشار عليه شافعٌ الحنبلي بشراء كتب ابن عقيل ، فباع ملكاً له واشترى بثمنه كتاب «الفنون» وكتاب « الفصول » ، ووقَفَهما على المسلمين . انتهى ملخصاً من « ذيل طبقات الحنابلة » للحافظ ابن رجب ١ : ١٤٢ — ١٦٢ و ١٨٥ .

فانظر يا أخي — رعاك الله وإياي — كيف يُثمِرُ إعمالُ الخاطر ، وحفظُ الوقت ، ودأبُ النفس في الخير والعلم ، إنه ليُثمر ثمراتٍ لا تكاد تُصدَّق وإنها لَصِدق ، يُثمِرُ (ثمانَ مِئة مجلّدة) للإمام ابن عقيلٍ الحنبلي ، فضلاً عن باقي مؤلفاته التي هي نحو العشرين مؤلفاً ، وبعضُها في عشر مجلّدات. =

. . . .

= وماأصدقَ وأجملَ قولَ الإمام بهاء الدين ابن النحاس الحلبي النحوي المتوفى سنة ٦٩٨ رحمه الله تعالى إذ يقول :

اليومَ شيءٌ وغداً مِثلُهُ   من نُخَبِ العِلْمِ التي تُلتَقَطْ
يُحصِّلُ المرءُ بها حِكمةً   وإنما السَّيلُ اجتماعُ النُّقَط

وسامحني أيها القارىء فقد أطلتُ عليك في هذه التعليقة ، ولكن أرجو أن ينفعك الله بها لتَعْرِفَ قيمة الوقت ، فانه أرخصُ ما يكون عند الجهال ، وأغلى ما يكون عند العلماء والعقلاء ، فهو قِوامُ علمهم وعِمادُ حياتهم . وإذا كنتَ عرفتَ حالَ الإمام أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي في محافظته على وقتِه ، وحِرصِه على الانتفاع به في كل نَفَسٍ من أنفاسه ، حتى إنه كان يختارُ سَفَّ الكعك وتحسِّيَهُ بالماء على مَضْغ الخبز ، لأجل ما بينهما من التفاوت في الوقت ، ليتوفّر على مطالعة ، أو تسطيرِ فائدة ، أو القيامِ بعبادة .

فإليك حالَ الشيخ الإمام ابن الجوزي ، الذي اقتدى به في سيرته حتى كاد أن يكون إياه ، لتَشهدَه كيف كان يَعرفُ شَرَفَ الوقت وقيمتَه ، وكيف كان يَكسِبُ الوقت إذا زاره ضيوف أو نزَلَ به ثُقَلاء بطّالون . قال رحمه الله تعالى في كتابه « صيد الخاطر » ١ : ٤٦ و ٢٠١ — ٢٠٢ و٢ : ٣١٨ — ٣١٩ :

« ينبغي للإنسان أن يَعرِف شَرَفَ زمانه ، وقَدْرَ وقتِه ، فلا يُضيِّعَ منه لحظةً في غير قُربة ، ويُقدِّمُ الأفضلَ فالأفضل من القول والعمل . ولتكنْ نيتُه في الخير قائمةً من غير فتور ، بما لا يَعجِزُ عنه البدن من العمل ، كما جاء في الحديث : « نيّةُ المؤمن خيرٌ من عمله » . وقد كان جماعةٌ من السلف يُبادرون اللّحظات ، فنُقِلَ عن عامر بن عَبْد قيس — أحد التابعين العُبَّاد الزهاد — أنَّ رجلاً قال له : (كلِّمني) ، فقال له عامر : أمْسِك الشمسَ .

وقد رأيتُ عمومَ الخلائق يَدفعون الزمانَ دفعاً عجيباً ! إن طال الليلُ =

. . . .

= فبحديثٍ لا ينفع ، أو بقراءةِ كتاب فيه غَزَلٌ وسَمَر ،وإن طال النهار فبالنوم ، وهم في أطراف النهار على دجلة أو في الأسواق — وكان ابنُ الجوزي يعيش في بغداد — فشبّهتُهم بالمتحدِّثين في سفينةٍ وهي تَجري بهم ، وما عندهم خبر ! ورأيتُ النادرين قد فَهِمُوا معنى الوجود ، فهم في تعبئةِ الزاد والتأهُّب للرحيل ، فاللهَ اللهَ في مواسم العمر ، والبدارَ البدارَ قبل الفوات !

وأعوذ بالله من صُحبة البطّالين ! لقد رأيتُ خَلْقاً كثيراً يَجرُون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة ، ويُسمُّون ذلك التردُّدَ خدمة ، ويُطيلون الجلوس ، ويُجرون فيه أحاديثَ الناس وما لا يَعني ، ويتخلّلُه غيبة . وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس ، وربما طلَبَه المَزُور ، وتشوَّقَ إليه ، واستَوحش من الوحدة ، وخصوصاً في أيام التهاني والأعياد ، فتراهم يمشي بعضُهم إلى بعض ، ولا يقتصرون على الهناء والسلام ، بل يَمزجون ذلك بما ذكرتُه من تضييع الزمان !

فلما رأيتُ أنَّ الزمان أشرفُ شيء ، والواجبُ انتهابُه بفعل الخير ، كَرِهتُ ذلك ، وبقيتُ معهم بين أمرين : إن أنكرتُ عليهم وقعَتْ وحشَةٌ لموضعِ قَطْعِ المألوف ، وإن تَقبّلتُه منهم ضاع الزمان ! فصِرتُ أُدافعُ اللقاءَ جُهدي ، فاذا غُلِبتُ قصّرتُ في الكلام لأتعجّل الفراق . ثم أعددتُ أعمالاً لا تَمنع من المحادثة ، لأوقاتِ لقائهم ، لئلا يمضي الزمان فارغاً ، فجعلتُ من الاستعدادِ للقائهم قَطْعَ الكاغد — أي قَصَّ الوَرَق — وبَرْيَ الأقلام ، وحَزْمَ الدفاتر ، فانَّ هذه الأشياء لا بُدَّ منها ، ولا تَحتاجُ إلى فكر وحضور قلب ، فأرصدتُها لأوقات زيارتهم ، لئلا يَضيع شيء من وقتي .

ولقد شاهدتُ خَلْقاً كثيراً لا يعرفون معنى الحياة ، فمنهم من أغناه الله عن التكسب بكثرةِ مالِه ، فهو يَقعُدُ في السوق أكثرَ النهار يَنظُرُ إلى الناس ، =

وجَدِّدْ في كلّ وقت توبة ، واجعَلْ عُمُرَكَ ثلاثَ ساعَات . ساعةً للْعِلْمِ ، وساعةً للعَمَلِ ، وساعةً لحُقوقِ نفسِكَ وما يَلْزَمُكَ . واعتَبِرْ بمَنْ مَضى ، وتفكَّرْ في مُنْصَرَفِ الفريقَيْنِ بين يدي الله تعالى : فريقٍ في الجنَّة بِرِضَاهُ ، وفريقٍ في السَّعيرِ بسَخَطِهِ ، واعرِفْ قُرْبَ اللهِ مِنكَ ، وأَكْرِمِ الحَفَظَة الكَاتِبِين(١) .

= وكم تَمُرُّ به من آفة ومنكر . ومنهم من يخلو بلَعِب الشِّطْرَنج ، ومنهم من يَقطعُ الزمان بحكاية الحوادث عن السلاطين والغَلاءِ والرُّخْص إلى غير ذلك ، فعلمتُ أن الله تعالى لم يُطْلِع على شرَف العمر ومعرفة قدر أوقات العافية إلا من وفّقَه وألهمه اغتنامَ ذلك ، ﴿وما يُلَقّاها إلا ذو حظ عظيم﴾ . نسألُ الله عز وجل أن يُعرِّفَنا شرَفَ أوقاتِ العُمر ، وأن يُوفّقَنا لاغتنامه » آمين .

(١) قلت : نعم وما أحقّهم بالإكرام ، فإذا كان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قد أوصَى بالجار من الناس حتى قال : « ما زال جبريل يُوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيُورِّثُه » . وهذا في الجار من الناس الذي بينك وبينه جدار وأحجار ، فكيف بالجار الكريم : المَلَكِ المستقرِّ على كتفيك ، يراك في كل تصرف تتصرفه لك أو عليك ، فرعايةُ جوارِه أحق ، وإكرامُ قُرْبِه أسبَقُ وألصق .

وما أحسنَ ما قاله الشيخ ابن أبي جَمْرة الأندلسي رحمه الله تعالى في كتابه « بهجة النفوس وتحلّيها بمعرفة مالَها وما عليها » ٤ : ١٦٥ وهو يشرح حديث « ما زال جبريل يُوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيُورِّثُه » قال :

« تنبيه : إذا كنتَ يُؤكَّدُ عليك في حقّ جارِ بيتك ، وبينه وبينك جدار ، =

وتناوَلْ نِعَمَ اللهِ بالفَهْم ، ورُدَّهَا إِلَيهِ بحُسْن الثناءِ والشُّكرِ(١).

= وتُمنَعُ أن يصل إليه منك أذيّة ، وتُؤمَرُ بحفظه وإيصال الخير إليه ، فكيف بمراقبة المَلَكَيْنِ الحافظَين ، اللّذَينِ ليس بينك وبينهما جدار ولا حائل ؟ وأنت تؤذيهما مع مُرور الساعات ! بدوام التفريط وإيقاع المخالفات ؟!

انظر بعقلك : هل يَصحُّ لك مع ذلك حقيقةُ الإيمان ؟ أم كيف حالُك يا مسكين ؟! لأنه قد جاء أن الحفظة الكرام يُسَرُّون بحسنات العبد أكثرَ مما يُسَرُّ العبدُ بها عند رؤية ثوابها ، وأنهما يَحزنان ويغتمَّان من سيئات العبد ومعصيته أكثرَ مما يَحزن العبد إذا رأى جزاءه عليها .

فإساءَتُك لهما : بخطيئتك ، وأنت لا تستحي ولا تنزجر ! فانتبهْ يا بَطّال قبل رفع الحجاب ، وغَلّق الباب ، إذا كنتَ نفسَك لا تَحفظُها ، وجيرانُك منك لا يَسلمون ، فالهربَ منك ثم الهربَ ثم الهَرَب ! » .

(١) وما أحسن موقفَ التابعي الجليل (عُبَيدِ بنِ عُمَير المكي) قاصِّ أهل مكة ، المتوفى سنة ٦٨ من الهجرة رحمه الله تعالى ، وقد اشتَهر بمتانةِ دينه وصلاحه ، وكان فصيحاً بليغاً يَجلسُ الصحابيُّ عبدُ الله بنُ عُمَرَ في حلقته ، ويبكي متأثراً بكلامه وصلاحه . فقد جاءته امرأة جميلة معجَبَة بجمالها ، تريد أن تَفتنه عن دينه وصلاحه ، فأخرجها من أن تكون فاتنة من الفاتنات إلى أن تكون عابدة من العابدات ، وردَّها إلى الله بالفهم لنعمه وحسنِ الشكر له سبحانه .

قال العِجْلي في كتابه « الثقات » : « حدثني أبي عبدُ الله قال : كانت امرأةٌ جميلة بمكة ، وكان لها زوج ، فنظرَتْ يوماً إلى وجهها في المرآة فقالت لزوجها : أترى أحداً يَرى هذا الوجه ولا يُفتَنُ به ؟! قال : نعم ، قالت : من ؟ قال : عُبيدَ بن عُمَير ، قالت : فأذَنْ لي فيه فلأفتِنَنّه ! قال : قد أذِنتُ لكِ .

. . . .

فأتَتْه فاستفتَتْه ، فخلا معها في ناحيةٍ من المسجد الحرام ، قال : فأسفرَتْ عن مثل فَلْقَةِ القمر ! فقال لها : يا أمَةَ الله اتقي الله ، قالت : إني قد فُتِنتُ بك فانظر في أمري ! قال : إني سائلُكِ عن شيء فان أنتِ صدقتِ نظرتُ في أمركِ ، قالت : لا تسألْني عن شيء إلا صدَقتُك .

قال : أخبريني لو أن ملَكَ الموت أتاكِ ليقبض روحَكِ أكان يَسرُّكِ أني قضيتُ لكِ هذه الحاجة ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدَقتِ . قال : فلو أن الناس أُعطوا كتبهم ولا تدرين أتأخذين كتابَكِ بيمينك أم بشِمالكِ ؟ أكان يَسرُّكِ أني قضيتُ لكِ هذه الحاجة ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صَدقتِ .

قال : فلو أردتِ الممرَّ على الصراط ولا تدرين أتَنْجين أم لا تنجين ! أكان يَسرُّكِ أني قضيتُ لكِ هذه الحاجة ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صَدقتِ . قال : فلو جِيءَ بالموازين وجيء بك لا تَدرين تَخِفّينَ أم تثقُلين ! أكان يَسرُّكِ أني قضيتُ لكِ هذه الحاجة ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صَدقتِ . قال : فلو وقَفْتِ بين يدي الله للمُسائلة أكان يَسرُّكِ أني قَضيتُ لكِ هذه الحاجة؟ قالت : اللهم لا ، قال : صَدقتِ .

قال : اتقي الله يا أمَةَ الله ، فقد أنعَمَ الله عليكِ وأحسَنَ إليكِ . قال : فرجعَتْ إلى زوجها قال : ما صنَعْتِ ؟ قالت : أنتَ بَطّال ونحن بطّالون ! فأقبلَتْ على الصلاة والصوم والعبادة ، فكان زوجُها يقول : ما لي ولعُبَيد بن عُمَير أفسَدَ عليَّ امرأتي !! كنتُ كلَّ ليلة عروساً فصيَّرها راهبة ! » . انتهى .

ولقد صدَقَ من قال :

ما الكيما قلبُ الحجارةِ فِضّةً   بل أن تُزيلَ الظُلمةَ الأنوارُ

واحذَرْ مِنِ اتِّهامِ النَّفْسِ برُؤيةِ المقامات(١) ، وتسفُّه الحقِّ بغَمْطِ الناسِ فإنه سُمٌّ قاتلٌ (٢) ، واعتزِلْ خوفَ السُّقُوطِ مِنْ أَعْيُنِ الناسِ لخوف مَقْتِهِمْ (٣) ،وَخَوْفَ الفقر: بقرب الأجل . وَأَخفِ أَثَرَكَ ما استَطَعْتَ (٤) .

---

(١) لعل معناه : إذا أرَتْك نفسُك أنَّ لك مقاماً عند الله تعالى ، فاتّهمها واحذَرْ أن تَغتَرَّ بما تُريك ، أو بما يقوله الناسُ فيك ، فليس ذلك من شأن العارفين بالله تعالى ، الخائفين من علاّمِ الغيوب .

جاء في « ترتيب المدارك » للقاضي عياض ٣ : ٨٩ في ترجمة الإمام (البُهْلُول بن راشد القيرواني المالكي) أحدِ أصحاب الإمام مالك ، المتوفى سنة ١٨١ ، وهو أحَدُ العُبّاد الزهاد الورعين :

« قال بعضُ تلامذة البُهلول : دُفِعَ إلى البهلول كتابٌ ففَضّه فاذا فيه : من امرأة من سمرقندِ خراسان ، مَجَنَتْ مُجوناً لم يَمجُنه أحَدٌ إلا هي ، ثم أنابَتْ إلى الله ، وسألَتْ عن العُبّادِ في أرض الله تعالى ، فوُصِفَ لها أربعةٌ أحدُهم بُهلول بإفريقية ، فكتبَتْ له تقول : سألتُك بالله يا بُهلول إلا دَعوتَ اللهَ أن يُديمَ لي ما فتَحَ لي فيه . قال : فسقَطَ الكتابُ من يده وخَرَّ على وجهه ، وجعَلَ يبكي حتى لَصِقَ الكتابُ بطينِ دُموعه ، ثم قال : يا بُهلول ! مِن سمرقندِ خراسان ؟! الويلُ لك من الله إن لم يَستُر عليك ! » . فزادَتْه رؤيةُ مقامه خوفاً وخشيةً من الله تعالى فما أعرفَه وأعقلَه ؟!

(٢) في النسخة المغربية : (وتسفُّه الحقَّ بعَتْب الناس فانه سَهْم قاتل) .

(٣) وقع في الأصلين (لخوف مقته) ، فأثبتها كما ترى .

(٤) أي أخفِ أعمالَك الصالحة ما استطعت . لتكون أوفرَ إخلاصاً منك ، وأوفى قبولاً من الله تعالى .

وابْذُل الجهدَ عِندَ المَشُورَة ، وأَحِبَّ في اللهِ بعَزْمٍ ، وَاقْطَعْ في اللهِ بِحَزْمٍ (١). ولا تُخَالِلْ إلاَّ تَقِياًّ عَالِماً(٢) ، ولا تُخَالِطْ إلاَّ عَاقِلاً بصِيراً . وكُنْ مُقتدياً بمَنْ قَبْلَكَ مِنَ الأَئمَّة ، ومُعَلِّماً لمَنْ بَعْدَكَ مِنَ الأُمَّة . إماماً للْمُتَّقِينَ ، كَهْفاً للْمُسْتَرْشِدِينَ .

ولا تُظْهِرَنَّ إلىَ أَحدٍ شكوى ، ولا تَأْكُلْ بِدِينِكَ الدُّنيا(٣) ،

---

(١) الحزم تعجُّلُ المرء فعلَ ما يتخشّى فواته ، والعَزْمُ القوّةُ وتوجُّه الإرادة لفعل الشيء .

جاء في « الموطأ » للإمام مالك بشرح الزُّرقاني في (باب الأمر بالوتر) ١ : ٢٣١ بسنده إلى سعيد بن المسيّب قال : « كان أبو بكر الصديق إذا أراد أن يأتي فراشه أوتر ، وكان عمر بن الخطاب يُوتِرُ آخرَ الليل » . قال الزرقاني : « رُوي أنه ذُكِر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فِعلُ العُمَرين ، فقال : حَذِرَ هذا — أي أبو بكر — ، وقَوِي هذا — يعني عمر — . وجاء أنه صلى الله عليه وسلم قال : لأبي بكر : أخذتَ بالحزم ، وقال لعمر : أخذتَ بالقوَّة — أي بالعزم — » .

(٢) قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تُصاحِبْ إلا مؤمناً ، ولا يأكُلْ طعامَك إلا تقي ». رواه عن أبي سعيد الخدري أبو داود ٤ : ٢٥٩ ، والترمذي ٩ : ٢٤٢ وقال : حديث حسن .

(٣) جاء في « ترتيب المدارك » للقاضي عياض رحمه الله تعالى في ترجمة الإمام (البهلول بن راشد القيرواني المالكي) أحد أصحاب الإمام مالك رحمهما =

وخُذْ بحَظِّكَ منَ العُزْلَة ، ولا تَأْخُذَنَّ إلا حلالاً(١) ، وجَانِب الإسراف ، واقنَعْ مِن الدُّنيا بالكَفَافِ .

= الله تعالى ٣ : ٩٨ « قال بعضهم: دَفَع بُهلول إلى بعض أصحابه دينارين ليشتري له بهما زيتاً يَستعذِبُه له ، فذُكِرَ للرجل أن عند نصراني زيتاً أعذَبَ ما يوجد ، فانطلق إليه الرجلُ بالدينارين ، فأخبَرَ النصرانيَّ أنه يريد زيتاً عذباً للبهلول .

فقال النصراني : نحن نتقرَّبُ إلى الله بالبُهلول كما تتقربون أنتم به إليه ، وأعطاه بالدينارين من ذلك الزيت : ما يُعطَى بأربعة دنانير من دَنِيِّ الزيت . ثم أقبَل إلى بهلول فأخبره الخبر ، فقال له بهلول : قضيتَ حاجةً فاقضِ لي أخرى ، رُدَّ عليَّ الدينارين ، فقال : ولم ؟ قال : ذكرتُ قولَ الله تعالى : ﴿لا تجدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخِر ، يُوَادُّونَ من حادَّ اللهَ ورَسُولَه﴾. فخشيتُ أن آكل زيتَ النصراني ، فأجد له في قلبي مَودَّة ، فأكون ممن حادَّ الله ورسوله على عَرَضٍ من الدنيا يسير ! » . فللّه درُّه ما أحرصَه على دينه ؟

(١) سُئل الإمام أحمد بن حنبل : بم تلينُ القلوب ؟ قال : بأكل الحلال . كما في « طبقات الحنابلة » لابن أبي يعلى ١ : ٢١٩ . وقال سَهْل بن عبد الله التُسْتَري : من أحَبَّ أن يُكاشَفَ بآيات الصدِّيقين فلا يأكل إلا الحلال ، ولا يَعمل إلا في سُنّة . وقال عبد الله بن المبارك : رَدُّ درهم من شبهة أحبُّ إلي من أن أتصدّق بمئة ألف درهم . وكان نساءُ السلف يوصين أزواجَهن إذا خرجوا للسعي والكسب فيَقُلْنَ لهم : اتقوا الله فينا ولا تطعمونا الحرام ، فانا نصبر على الجوع ولا نصبرُ على الحرام . وفي لفظ آخر : فانا نصبر على الجوع ولا نصبرُ على النار .

واطلُبِ الأَدَبَ في بَسَاتينِ العِلْم(١) ، وَالأُنْسَ في مَوَاطِنِ الخَلْوة ، والحياءَ في شِعابِ النَّفْسِ ، والاعتبارَ في أَوْدِيَةِ التفكر (٢) ، والحِكْمَةَ في رِيَاضِ الخَوْفِ . واَعرِفْ دَوَامَ إحسانِ اللهِ إلَيكَ مَع مُخَالَفَتِكَ لأَمْرِهِ ، وحِلْمَهُ عنك مع إعْرَاضِكَ عنْ ذِكرهِ ، وسَتْرَهُ عليكَ مع قِلَّةِ حيائِكَ منه ، وغِنَاهُ عنكَ مع فَقرِكَ إلَيهِ .

أَينَ عالمٌ بربِّهِ ؟ أَينَ خَائِفٌ مِنْ ذَنْبِهِ ؟ أَينَ مَسْرُورٌ بِقُرْبهِ ؟ أَينَ مَشغولٌ بذِكرِهِ ؟ أَينَ مُشْفِقٌ مِنْ بُعْدِهِ ؟ هُو ذا مغفورٌ لَهُ يا مَغرور !! أَلَمْ يَرَكَ الجليلُ قد هَتَكْتَ السُّتُورَ ؟!

واعْلَمْ يا أَخي أَنَّ الذنوبَ تُورِثُ الغَفْلَةَ (٣) ، والغَفْلَةَ

---

(١) وبُستانُ تلك البساتين : القرآن . قال محمد بن واسع : « القرآن بُستانُ العارفين ، فأينما حلُّوا منه حلُّوا في نُزْهة » . من « الحلية » لأبي نعيم ٢ : ٣٤٧ .

(٢) في الأصل : (الفكر) . والمثبت من النسخة المغربية .

(٣) قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : إني لأحسَبُ أنَّ الرجل يَنسى العلم قد علِمَه بالذنب يعمله . من « جامع بيان العلم وفضله » لابن عبد البر ١ : ١٩٦ .

تُورِثُ القَسْوَةَ ، والقسوةَ تُورِثُ البُعْدَ مِنَ الله ، والبُعْدَ مِنَ الله يُورِثُ النَّار ! وَإنما يَتفكَّرُ في هَذهِ : الأَحياءُ ، وأَمَّا الأَمواتُ فقد أماتوا أَنفسَهم بِحُبِّ الدنيا (١) .

= وجاء في « طبقات الحنفية » لعلي القاري ٢ : ٤٨٧ : « كان الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى ورضي عنه : إذا أشكَلَتْ عليه مسألة قال لأصحابه : ما هذا إلا لذنب أحدثتُه ! وكان يَستغفر ، وربما قام وصلّى ، فتنكشفُ له المسألة . ويقولُ : رجوتُ أني تِيبَ عليَّ . فبلَغَ ذلك الفُضَيلَ بن عياض ، فبكى بكاء شديداً ثم قال : ذلك لقلّةِ ذنبه . فأما غيره فلا يَنتبه لهذا » .

وجاء في « تهذيب التهذيب » للحافظ ابن حجر ، في ترجمة (وكيع بن الجراح الكوفي) ١١ : ١٢٩ وهو أحَدُ الأئمة الأعلام الحُفَّاظ ، وقد كان الناسُ يحفظون تكلُّفاً ، ويَحفظُ هو طبعاً . « قال علي بن خَشْرَم : رأيتُ وكيعاً وما رأيتُ بيده كتاباً قط ، إنما هو يحفظ ، فسألتُه عن دواءِ الحفظ ؟ فقال : تَرْكُ المعاصي . ما جرَّبتُ مثلَه للحفظ » .

(١) أشار المؤلفُ هنا إلى بعضِ آثار الذنوب ، وقد استوفى الشيخ ابنُ القيم في كتابه « الفوائد » وكتابه « الجواب الكافي » بيانَ أضرار الذنوب والمعاصي استيفاء جامعاً . وقابَلَ بين آثارِ فعلِ الذنوب وآثارِ تركِها مقابلةً صادقةً دقيقة ، تَدْفَعُ بكل ذي لُبٍّ وعَقلٍ إلى تركِ الذنوب والبُعْدِ عن أسبابها ، وإلى التحلي بالطاعات وما يَبْعَثُ عليها . وها أنا ذا ناقلٌ لك كلامَه – على طوله – لنَفاسته واستيفائه وصِدقِ واقعه . فراعِهِ سَمعَك ، ووجِّه له قلبَك ، وأعمِلْ له عقلَك ، واللهُ يتولى الصالحين .

قال رحمه الله تعالى في كتابه « الفوائد » ص ٤١ و ٩٧ و ١٣٩ و ١٥٠ – ١٥١ : « الذُّنوبُ جراحات ، ورُبَّ جُرْحٍ وَقَعَ في مَقْتَل ! ! وما ضُرِبَ =

. . . .

=عبدٌ بعقوبةٍ أعظمَ من قَسْوَةِ القلبِ والبُعْدِ عن الله . وأبعَدُ القلوب من الله القلبُ القاسي ! وإذا قَسَا القلبُ قَحَطَت العينُ ، وقسوةُ القلب من أربعة أشياءَ إذا جاوَزَتْ قَدْرَ الحاجة : الأكل ، والنوم ، والكلام ، والمخالطة .

واعلم أن الصَّبْر عن الشهوة أسهَلُ من الصبر على ما تُوجبه الشهوة ، فان الشهوة : إما أن توجب ألماً وعقوبة ، وإما أن تقطع لذةً أكملَ منها ، وإما أن تُضيع وقتاً إضاعتُهُ حسرة وندامة ، وإما أن تَثلِمَ عِرْضاً توفيرُهُ أنفعُ للعبد من ثَلمه ، وإما أن تُذهِبَ مالاً بقاؤه خيرٌ من ذهابه . وإما أن تَضَعَ قَدْراً وجاهاً قِيامُهُ خيرٌ مِن وضعِه ، وإما أن تَسْلُبَ نعمةً بقاؤها ألذُّ وأطيبُ من قضاء الشهوة .

وإما أن تُطَرِّقَ لوَضِيع إليك طريقاً لم يكن يجدُها قبل ذلك ، وإما أن تجلب همّاً وغمّاً وحُزناً وخوفاً لا يُقاربُ لذة الشهوة ، وإما أن تُنسيَ عِلماً ذِكرُهُ ألذُّ من نَيْلِ الشهوة ، وإما أن تُشْمِتَ عدوّاً وتُحزِنَ وليّاً ، وإما أن تَقْطع الطريق على نعمة مقبلة ، وإما أن تُحدِث عيباً يَبْقَى صِفَةً لا تزول ، فان الأعمال تُورث الصّفاتِ والأخلاق .

فسبحان الله رب العالمين : لو لم يكن في تَرْكِ الذُّنوب والمعاصي إلا إقامةُ المروءة ، وصونُ العِرض ، وحِفظُ الجاه ، وصِيانةُ المال الذي جَعَله الله قِواماً لمصالح الدنيا والآخرة ، ومحبّةُ الخلق ، وجوازُ القول بينهم ، وصلاحُ المعاش ، وراحةُ البدن ، وقوّةُ القلب ، وطِيبُ النّفْس ، ونعيمُ القلب ، وانشراحُ الصدر ، والأمْنُ من مخاوف الفُسّاق والفُجّار ، وقِلّةُ الهَمّ والغمّ والحُزن ، وعِزُّ النّفْس عن احتمال الذُّلّ ، وصَونُ نُور القلب أن تُطفِئَه ظلمةُ المعصية .

. . . .

= وحصولُ المَخْرَجِ لمتّقي الذنوب مما ضاق على الفُسّاق والفُجّار ، وتيسيرُ الرزق عليه من حيث لا يحتسب ، وتيسيرُ ما عَسُرَ على أرباب الفسوق والمعاصي ، وتسهيلُ الطاعات عليه ، وتيسيرُ العلم ، والثناءُ الحسَنُ في الناس ، وكثرةُ الدعاء له ، والحلاوَةُ التي يكتسبها وجهُهُ ، والمهابَةُ التي تُلقَى له في قلوب الناس ، وانتصارُهم وحَميّتُهم له إذا أُوذِي وظُلِم ، وذَبُّهم عن عِرْضه إذا اغتابه مغتاب .

وسُرعَةُ إجابةِ دُعائه ، وزَوَالُ الوحشةِ التي بينه وبين الله ، وقُرْبُ الملائكة منه ، وبُعدُ شياطين الإنس والجنّ منه ، وتَنَافُسُ الناس على خدمتِه وقضاءِ حوائجه ، وخِطبَتُهم لمودّتِه وصُحبتِه ، وعدَمُ خوفِه من الموت بل يَفرحُ به لقدومه على ربّه ولقائه له ومصيرِه إليه ، وصِغَرُ الدنيا في قلبه ، وكِبَرُ الآخرة عنده ، وحِرصُهُ على المُلْكِ الكبيرِ والفوزِ العظيم فيها .

وذَوْقُ حلاوةِ الطاعة ، ووَجْدُ حلاوةِ الإيمان ، ودُعاءُ حَمَلَة العرش ومَن حولَه من الملائكة ، وفَرَحُ الكاتبين به ، ودُعاؤهم له كلّ وقت ، والزيادةُ في عَقلِه وفَهمِه وإيمانِه ومعرفتِه ، وحصولُ محبّة الله له ، وإقبالُه عليه ، وفَرَحُه بتوبته : لكفَى باعثاً له على تركِ الذنوب والمعاصي ، وهكذا يجازيه الله بفَرَحٍ وسُرورٍ لا نسبةَ له إلى فَرَحِه وسُروره بالمعصيةَ بوجهٍ من الوجوه .

فهذه بعضُ آثارِ تَرْكِ المعاصي في الدنيا ، فاذا مات تلقّتْهُ الملائكةُ بالبُشرى من ربّه بالجنة ، وبأنه لا خوفٌ عليه ولا حُزن ، ويَنتقِلُ من سِجْنِ الدنيا وضيقها إلى روضةٍ من رياض الجنّة يَنْعَمُ فيها إلى يوم القيامة ، فاذا كان يوم القيامة كان الناسُ في الحَرّ والعَرَق وهو في ظِلّ =

. . . .

= العرش ، فاذا انصرفوا من بين يدي الله : أخذ الله به ذاتَ اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين ، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » . انتهى كلام ابن القيم في كتابه « الفوائد » في بيان آثار تركِ الذنوب .

وقد عدَّدَ رحمه الله تعالى في كتابه النافع العُجاب « الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي » آثارَ فعل الذنوب والمعاصي على فاعلها . واستوفاها أثراً أثراً بالشرح والبيانِ والدليل والتوجيه ، في أكثر من مئة صفحة من ص ٥٢ — ١٦٦ . وأنا أنقل لك جملةً من عناوينِ آثارها ، قال رحمه الله تعالى : « وللمعاصي من الآثار القبيحةِ المذمومةِ المُضِرَّةِ بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة : ما لا يعلمه إلا الله .

منها : حِرمانُ العلم والرزق . وحصولُ الوحشة بين العاصي وبين الله . وبينه وبين الخلق ، وتعسيرُ أموره . وظلمةُ القلب والوجه والقبر ، ووَهْنُ القلب والبدن . وحِرمانُ الطاعة . ومَحْقُ العمر ، وأنها تَزرَعُ أمثالها . ويُولِّدُ بعضُها بعضاً ، وتُضعِفُ إرادةَ القلب وإنابتَه إلى الله ، ويزول بها عن القلب استقباحُ الذنوب !

وهي سببٌ لهوانِ العبد على الله . وتُلحِقُ ضررَه غيرَه من الآدميين والحيوانات ، وتُورثُ الذل ، وتُفسِدُ العقل . ويُطبَعُ على قلب صاحبها . وتُدخلُه تحت لعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتَحرِمُه الدخولَ في أدعيته صلى الله عليه وسلم وأدعيةِ الملائكة لمن امتثل أمر الله واتَّبعَ كتاب الله وسنة رسوله .

وهي سبب لعقوبات البرزخ المتنوِّعة . وتُحدِثُ في الأرض أنواعاً من الفساد في المياه والهواء والزروع والثمار والمساكن . وتُذهب الحياء والغَيْرةَ وتعظيم الرب ، وتستدعي نسيانَ الله للعبد ، وهناك الهلاك ! وتُخرِجُ العبدَ ...

. . . .

= من دائرة الإحسان، وتحرمه ثوابَ المحسنين، وتُزيل النِّعَم، وتُحِل النِّقَم، وتُوجب خوف صاحبها ورُعبَه، ويصير القلب مريضاً أو ميتاً بعد أن كان حياً صحيحاً. وتُعمي البصيرة!

ولا يزال العاصي في أسْر الشيطان. وأسْرِ النفس الأمّارةِ بالسوء وسِجْنِ الشهوات، وتُسقِطُ منه الجاه والمنزلة. وتَسلُبه أسماءَ المدح. وتكسبه أسماءَ الذم، وتَمحق بركةَ العلم والعمل والرزق والعمرِ وكلِّ شيء! وتَخُونُ العبد أحوجَ ما يكون إلى نفسه؛ وتُباعِدُ عن العبد وَلِيَّهُ من الملائكة، وتُقرِّبُ إليه أعداءَه الشياطين، وتُؤثِّرُ في القلوب الآثارَ القبيحة من الرَّيْن والطَّبْع والخَتْم والنفاق وسوء الأخلاق، وقبولِ الشكوك والشُّبهَ وغيرها من الأمراض القاتلة.

وبالجملة: جميعُ شرورِ الدنيا والآخرة التي على القلوب. والتي على الأبدان. العامّةِ والخاصّةِ. أسبابُها الذنوب والمعاصي!». انتهى.

ومعذرةً من هذه الإطالة، فانها في السعي للنجاة من أكبر داء: (الذنوب) ونحن الضعفاء نُذنِبُ كثيراً. ونَعصي كثيراً. فنحتاج إلى أن نُشْحَن بالموعظة شحناً، لعلّنا نكفُّ عن الذنوب، ونتوبُ إلى علاّم الغيوب. وهذه كلمة نافعة للإمام ابن الجوزي قالها في كتابه «صيد الخاطر»: ١: ١٨٥ و ٢: ٢٧٢ من أطيب الكلمات وأقواها في الدعوة إلى ترك الذنوب. قال رحمه الله تعالى:

«الحَذَرَ الحذرَ من المعاصي، فانها سيئة العواقب. والحذرَ الحذرَ من الذنوب خصوصاً ذنوبَ الخَلَوات، فان المبارزة لله تعالى تُسقِطُ العبدَ من عينه سبحانه.

ولا يَنالُ لذّةَ المعاصي إلا دائمُ الغفلة. فأمّا المؤمنُ اليقظان فانه لا =

واعْلَمْ أنه كَمَا لا يُغْني ضَوْءُ النهارِ : الأَعمَى ، كذلك لا يُضِيءُ بنور العلم إلا أَهْلُ التُّقَى . وكما أَنَّ الميِّتَ لا ينفعه الدَّوَاء ، كَذلكَ لا يُفِيدُ الأَدَبُ في أَهْلِ الدَّعوى . وكما لا يُنْبِتُ الوَابِلُ الصَّفا (١) ، كذلكَ لا تُثْمِرُ الحِكْمَةُ بِقَلبِ مُحِبِّ الدُّنيا(٢) ، وَمَنْ أَلِفَ هَواهُ قَلَّ أَدَبُهُ ، وَمَنْ

= يَلتَذُّ بها ، لأنه عند التذاذه يَقِفُ بإزائه عِلْمُه بتحريمها ، وحَذَرُه من عقوبتها ، فان قَوِيَتْ معرفتهُ رأى بعَيْن عِلْمه قُرْبَ الناهي — وهو الله — فيتنغّص عيشُه في حال التذاذه ، فانْ غلَبَهُ سُكْرُ الهوى كان القلبُ مُتَنغِّصاً بهذه المراقبات ، وإن كان الطَّبْعُ في شهوته فما هي إلا لحظة ، ثم خِزْيٌ دائم ، ونَدَمٌ ملازم ، وبُكاءٌ متواصل ، وأسَفٌ على ما كان ، مع طول الزمان ، حتى إنه لو تيقَّنَ العفوَ وقَفَ بازائه حَذَرُ العِتاب .

فأفٍّ للذنوب ! ما أقبح آثارَها ؟ وأسوأ أخبارَها ؟ ولا كانت شهوة ! لا تُنال إلا بمقدار قُوَّة الغفلة ! » . انتهى بتصرف يسير .

ورحم الله أخانا الأستاذ المجاهد الداعية الكبير الشيخ مصطفى السباعي إذ يقول في كتابه « هكذا علّمتني الحياة » ص ٣٢ « إذا هَمَّتْ نفسُك بالمعصية فذكِّرها بالله ، فاذا لم تَرجَع فذكِّرها بأخلاق الرجال ، فاذا لم ترجع فذكِّرها بالفضيحة إذا عَلِمَ بها الناس ، فاذا لم تَرجع فاعلم أنك تلك الساعةَ انقلَبْتَ إلى حيوان ! » . انتهى . فيا مُقلِّبَ القلوبِ والأبصار ثَبِّتْ قلوبنا على دينِك .

(١) الوابل : المطر الشديد ، والصفا جمع صفاة ، وهي : الحَجَرُ الصَّلْدُ الضَّخْم الذي لا يُنْبِت .

(٢) قال مالك بن دينار للحسن البصري رضي الله عنه : ما عقوبة العالم =

خَالَفَ دَلالَةَ عِلْمِهِ كَثُرَ جَهْلُهُ ، وَمَنْ لَمْ ينفَعْهُ دَوَاءُهُ كَيفَ يُدَاوِي غَيرَهُ ؟!

وَاعْلَمْ أَنَّ أَروَحَ الناس أبداناً أَهْلُ الزُّهد في الدنيا [1] . وأَتْعَبَ النَّاسِ قُلوباً وأَكثَرَهُمْ شُغلاً أَهْلُ الاهتمام بالدنيا . وأَعْوَنُ الأَخْلاقِ عَلَى الزُّهدِ قِصَرُ الأَمَلِ [2] . وأَقْرَبُ حَالات أهلِ المعرفة : ذِكْرُ القيام للهِ عَزَّ وَجَلَّ . قالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ : ﴿ إنَّ اللهَ كَانَ عليكم رقيبا ﴾ [3] .

وَاعْلَمْ أَنه لا طَرِيق أَقربُ مِنَ الصِّدق ، ولا دَلِيلَ

= إذا أحبَّ الدنيا ؟ قال : موتُ القلب فاذا أحبَّ الدنيا طلَبها بعمل الآخرة ، فعند ذلك تَرْحَلُ عنه بركاتُ العلم ، ويبقى عليه رَسْمُه ! من « البداية والنهاية » لابن كثير ٩ : ٢٦٨ .

(١) أي أكثرُ الناس راحةً لأبدانهم : أهل الزهد ... قال رجل لمحمد بن واسع : أوصني ، قال : أوصيك أن تكون ملِكاً في الدنيا والآخرة ، قال : كيف هذا ؟ قال : ازهد في الدنيا . من « تاريخ الإسلام » للذهبي ٥ : ١٥٩

(٢) وجاء في « نهج البلاغة » ٤ : ١٩٩ منسوباً إلى سيدنا علي رضي الله عنه : « الزهدُ كلُّه بين كلمتين من القرآن : قال الله سبحانه : ﴿ لكيلا تأسَوْا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ . ومن لم يأسَ ـ أي يحزن ـ على الماضي ، ولم يفرح بالآتي فقد أخذَ الزهدَ بطرفيه » .

(٣) من سورة النساء : ١ .

أَنْجحُ منَ العلم ، ولا زَادَ أَبْلَغُ مِنَ التَّقوى(١) ، وَمَا رأيتُ أَنفَى لِلْوسواس مِنْ تَرْكِ الفُضُولِ ، وَلا أَنْوَرَ لِلْقَلْبِ مِنْ سَلاَمَةِ الصَّدْرِ . ووجَدتُ كَرامَةَ المُؤْمِنِ تقواهُ ، وحِلْمَهُ صَبْرَهُ ، وعَقْلَهُ تجمّلُهُ ، ومَوَدَّتَه تجاوُزَه وعَفْوَه(٢) ، وَشَرفَه

(١) نَعَمْ . كيف وقد قال تعالى : ﴿ وتَزَوَّدُوا فانَّ خيرَ الزاد التقوى واتقونِ يا أُولي الألباب ﴾. وقد أخبر سبحانه أنَّ أمرَه بالتقوى قائم مستمر في كل شريعة فقال سبحانه :﴿ ولقد وَصّينا الذين أوتُوا الكتابَ مِن قبلِكم وإيّاكم أنِ اتقوا الله ﴾.

قال العلامة الفيروز آبادي في « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز » ٢ : ١١٦ عقبَ هذه الآية : « يُفهَمُ منها أنه لو كانت في العالَمِ خَصْلَةٌ هي أصلحَ للعبد ، وأجمعَ للخير ، وأعظمَ للأجر ، وأجَلَّ في العبودية ، وأعظمَ في القَدْر ، وأولى في الحال ، وأنْجحَ في المآلِ من هذه الخَصْلة لكان الله سبحانه أمرَ بها عبادَه ، وأوصى خَوَاصَّه بذلك ، لكمالِ حكمتِه ورحمته .

فلمّا أوصى بهذه الخَصْلَةِ الواحدة جميعَ الأوَّلين والآخرين من عباده واقتَصَر عليها : عَلِمنا أنها الغاية التي لا مُتجاوَزَ عنها ، ولا مُقتَصَرَ دُونَها . وأنه عزَّ وجَلَّ قد جَمَعَ كلَّ مَحْضِ نُصْحٍ ودلالةٍ وإرشادٍ وسُنَّةٍ وتأديبٍ وتعليمٍ وتهذيبٍ في هذه الوصيّة الواحدة . وقولُه تعالى : ﴿ إنما يتقبَّلُ الله من المتقين﴾ يُشعِرُ بأنَّ الأمرَ كلّه راجع إلى التقوى » .

(٢) قال محمد بن واسع : « إنَّ ذليل الدنيا خير من ذليل الآخرة » . من « تاريخ الإسلام » للذهبي ٥ : ١٦١ .

تَوَاضُعَهُ وَرِفْقَهُ .

واعْلَمْ أَنَّ مَحَبَّةَ الغِنَى – مع ٱخْتيارِ الله لِعبدِهِ الفقر – تَسَخُّطٌ ، وَمَحَبَّةَ الفقر – مع اخْتيارِ الله لعبدِهِ الغِنَى – جَوْرٌ ، وكلُّ ذلكَ هَرَبٌ مِنَ الشُّكرِ لِقِلَّةِ المعرفة ، وتَضْييع للأَوقاتِ مِنْ قِصَرِ العِلْمِ (١).

وذلكَ أَنَّ إيمانَ الغَنِيِّ لا يُصْلِحُهُ الفقرُ ، وَإِيمانَ الفقير لا يُصْلِحُهُ الغِنَى . كما جَاءَ في الخبر أَنَّ الله تعالى يَقُول : « إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لا يُصْلِحُ إِيمانَهُ إلا الفقرُ ، ولو أَغنيتُهُ لأَفسَدَهُ ذَلكَ ، وإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لا يُصْلِحُ إِيمانَهُ إِلا الغِنَى ، ولوْ أَفقرتُهُ لأَفسدَهُ ذَلكَ » (٢) .

---

(١) وقع في الأصلين : (وتضييعُ الأوقات من قِصَر العلم) . وهو تحريف عما أثبته .

(٢) هذا جزء من حديث قدسي ضعيف ، رواه أنس بن مالك عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تبارك وتعالى قال : « من أهان لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة ... » . رواه أبو يعلى والبزّار والطبراني وابن أبي الدنيا في « كتاب الأولياء » ص ١٠٠ من « مجموعة رسائل ابن أبي الدنيا » . والحكيمُ الترمذي وابنُ مردويه وأبو نعيم والبيهقي في « الأسماء والصفات » ص ١٢١ وابنُ عساكر ، كما في « فتح الباري » للحافظ ابن حجر ١١ : ٢٩٣ و « الإتحافات السنية في الأحاديث القدسية » للعلامة محمد المدني ص ٣٥ — ٣٦ . =

وكذلِكَ في الصِّحَّة والسَّقَمِ ، فَمَنْ عَرَفَ اللهَ لَمْ يَتَّهِمْهُ[١] ، وَمَنْ فَهِمَ عَنِ اللهِ رضِيَ بِقَضَائِهِ . ولو لَمْ يَكُنْ لأَهلِ العِلْمِ إلا هَذِهِ الآيَةُ لَكَفَتْهم : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لهُمُ الخِيَرَةُ ﴾[٢] .

واحْذَرْ أَخْلاَقَ الجَاهِلِين ، ومُجَالَسةَ المُذْنِبِين[٣] ،

= قال الحافظ ابن حجر : « في سنده ضعف ». وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في « جامع العلوم والحكم » ص ٣١٤ : « في سنده : الحسَنُ بن يحيى الخُشَني عن صدقة بن عبد الله الدمشقي ، وهما ضعيفان ، عن هشام الكناني عن أنس . وهشام لا يُعرف . وسُئل ابنُ مَعين عن هشامٍ هذا من هو ؟ فقال : لا أحَد . يعني : لا يُعتَبَرُ به » .

(١) كيف يَتّهمه وقد أخبر سبحانه عن نفسه بقوله : ﴿وأنّ الله قد أحاط بكلّ شيءٍ عِلماً﴾.

والإحاطةُ بالشيء عِلماً هي أن يَعلم وجودَه ، وجنسَه ، وكيفيتَه ، وقَدْرَه ، وغرضَه المقصودَ به ، وبإيجاده ، وما يكون هو منه ، وحاجتَه ، وما يُصلحُه ، وما يُفسده ، وما ينتهي إليه . وليس ذلك إلا لله تعالى وحدَه . فمن دَرَى هذا في جناب الله تعالى حقّ الدّراية لم يتّهمه في تصرّفاته سبحانه ﴿ إنه هو العليمُ الحكيم ﴾ ﴿ ألا يَعلمُ من خلَق وهو اللطيفُ الخبير ﴾ .

(٢) من سورة القَصَص : ٦٨ .

(٣) قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : جالسوا التوّابين فإنهم أرقّ أفئدة . من « روضة العقلاء » لابن حبّان ص ١٨ .

ودَعَاوى الْمُعْجَبِينَ (١) ، ورجَاءَ المُغْتَرِّينَ ، وَيَأْسَ القَانِطِينَ. وكُنْ بالحقِّ عَامِلاً ، وباللهِ واثِقاً ، وبالمعروف آمِراً ، وعنِ المُنْكَرِ نَاهِياً(٢). فإنَّ مَنْ صَدَقَ الله نَصَحَهُ ، ومَنْ تَزَيَّنَ لغيرِهِ فَضَحَهُ ، ومَنْ تَوَكَّل عَليهِ كَفَاهُ ، ومَنْ وَثِقَ بغيرِهِ مَقَتَهُ ، ومَنْ خَافَهُ أَمَّنَهُ ، ومَنْ شَكَرَهُ زَادَهُ ، وَمَنْ أَطَاعَهُ أَكْرَمَهُ ، ومَنْ آثَرَهُ أَحَبَّهُ .

---

(١) جاء في الأصلين : (ودواعي المعجبين) . وهو تحريف .

(٢) روى البخاري في « صحيحه » في كتاب المناقب ، في (باب قصة البَيْعة والاتفاقِ على عثمان) ٧ : ٥٢ — ٥٣ عن عَمْرو بن ميمون أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لمّا طعَنَه أبو لؤلؤة المجوسي ، وعرفوا أنه ميت ، قال : « فدخلنا عليه ، وجاء الناس يُثنون عليه ، وجاء رجل شاب فقال : أبشِر يا أمير المؤمنين ببُشرَى الله لك ...

فلما أدبر الشابُّ إذا إزارُه يَمَسُّ الأرض ، قال عمر : رُدُّوا عليَّ الغلام ، قال : يا ابن أخي ارفَعْ ثوبَك ، فانه أنقى لثوبك ، وأتقى لربك » انتهى .

فانظر يا رعاك الله إلى عمر رضي الله عنه ، وهو في النَّزْع يجود بنَفْسه : لم يَمنعه ما كان فيه من غَمَرات الموتِ والآلام أن يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وينصح ذلك الشابَّ بالأنقى والأتقى . رضي الله عن عمر ، ورزقنا الاقتداءَ بسيرته .

واحْذَرْ أَنْ تدِينَ للهِ بالعقلِ (١) ، وتَعْملَ بالهوى ، وتَتْرُكَ الحقَّ ، وتَبُوءَ بالباطلِ ، وتَتَمَنَّى المغفرةَ وأَنْتَ ناسٍ للتوبة .

واعْلَمْ أَنَّهُ لا يُرضَى مِنَ العِلْمِ والعَمَلِ إلا ما ثَبَتَ باليقينِ أَصلهُ ، وَعَلا بالصدقِ فَرْعُهُ ، وأَثْمَرَ بالوَرَعِ نَبَاتُهُ ، وقامَ بالإشفاقِ بُرهَانُهُ ، وَحُجِبَ بالخشية أستَارُهُ ، فَلاَ تَرْضَ مِنْ نفسِكَ بالتَّوانِي ، فإنَّهُ لا عُذْرَ لأَحَدٍ في التفريطِ ، ولا لأَحَدٍ عَنِ اللهِ غِنَى .

واعْلَمْ أَنَّ مِنْ سَعادةِ المَرْءِ : حُسْنَ النية فِيمَا عِند الله تَعَالَى (٢) ، والتوفيقَ لِمَحَابِّهِ . ومَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيراً وَهَبَ

---

(١) الظاهر أن معناه : أن تقوم بطاعته تعالى وعبادته على سبيل المحاسبة والمقابلة . أو المعنى : احذر أن يكون إيمانُك بالله تعالى وتديُّنك له (عقلانياً) : لا يتعدَّى إلا إلى تنفيذ ما قبله عقلُك من أوامره ونواهيه ، فالعقلُ تَبَعٌ للشرع الصحيح — لا عكسُه — في كل ما أمَرَ أو نهى عنه ، عقلتَه أو لم تعقله ، في حين أن ما صَحَّ عن الشرع لا يخالف العقل السليم الحصيف ، ولكن قد يَدِقُّ عنه .

(٢) سبق تعليقاً في ص ٤٥—٤٦ ما يرتبط بهذا المعنى فانظره .

لَهُ العقلَ ، وحبَّبَ إليهِ العِلمَ(١) ،

---

(١) واعلم أن الاشتغال بالنافلة من العلم أفضلُ من الاشتغال بالنافلة من العبادة . وعلى ذلك الأئمة الأربعة وغيرهم من أساطين الإسلام ، رَوى الحافظ ابن عبد البر في « الانتقاء » ص ٨٤ بسنده إلى الربيع بن سليمان المُرادي تلميذ الإمام الشافعي قال : « سمعتُ الشافعي يقول : طلبُ العلم أفضلُ من الصلاة النافلة » .

وقال الإمام الكشميري في « فيض الباري على صحيح البخاري » في شرح (كتاب العلم) ١ : ١٦٢ « لا تُنكِرْ فضلَ العلم ، فان مالكاً وأبا حنيفة رحمهما الله تعالى ذهبا إلى أن الاشتغال بالعلم خيرٌ من الاشتغال بالنوافل ؛ وعن أحمد روايتان : إحداهما في فَضْل العلم . والأخرى في فضل الجهاد ، كما ذكره ابن تيمية رحمه الله تعالى في « منهاج السنة » . انتهى .

وجاء في « طبقات الحنابلة » للقاضي ابن أبي يَعْلَى ١ : ١٩٩ في ترجمة الإمام أبي زُرْعة الرازي أحدِ أئمة الحديث ، ومن شيوخ الإمام أحمد ، وفي « مناقب الإمام أحمد » لابن الجوزي ص ٢٨٩ : « قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : لما قدِمَ أبو زرعة — بغداد — نزَلَ عند أبي ، فكان كثيرَ المذاكرة له ، فسمعتُ أبي يوماً يقول : ما صَلّيتُ اليومَ غيرَ الفرض ، استأثرتُ بمذاكرة أبي زُرعة على نوافلي » .

ومن لطيف ما وقع لبعض الأئمة أنه انصرف عن نافلة التعليم إلى نافلة العبادة ، فوقعَتْ لأحد محبِّيه رؤيا منامية دعَت ذلك الإمامَ أن يرجع عن الانقطاع للتعبد إلى نشر العلم وإذاعته .

جاء في « ترتيب المدارك » للقاضي عياض ، ٣ : ٢٣٤ — ٢٣٥ و ٢٤٠ و ٣٦١ في ترجمة الإمام المحدِّث الفقيه العابد الزاهد (عبد الله بن وهب القرشي المصري) صاحب الإمام مالكٍ والليثِ والثوريِّ وغيرِهم ، المتوفى سنة =

. . . .

= ١٩٧ رحمه الله تعالى ،

جاء فيه أنَّ سُحنون قال : « كان ابنُ وهب قد قسَمَ دهرَه أثلاثاً ، ثُلُث في الرباط ، وثُلُث يعلم الناس بمصر ، وثُلُث بالحج ، وذَكَر أنه حَجَّ ستاً وثلاثين حجة .

قال ابن أخيه : كنتُ معه بالإسكندرية مُرابطاً ، فاجتمع الناسُ عليه يسألونه نَشْرَ العلم ، فقال لي : هذا بلَدُ عبادة ، وقلما أمهِّدُ لنفسي فيه مع شُغل الناس ، فترَك الجلوسَ لهم في الأوقات التي كان يَجلِس ، وأقبل على العبادة والحِراسة .

فبَعْدَ يومين أتاه إنسان فأخبره أنه رأى نفسَه في مسجد عظيمٍ نحو المسجد الحرام ، والنبي صلى الله عليه وسلم فيه ، وأبو بكر عن يمينه ، وعمر عن شماله ، وأنت بين يديه ، وفي المسجد قناديل تَزهَرُ أحسَنَ شيء وأشدَّها ضياءً ، إذ خفَتَ منها قنديلٌ فانطفأ ، فقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم يا عبد الله أوقده فأوقدته ، ثم آخَرُ كذلك ، ثم أقمتَ أياماً فرأيتَ القناديلَ كلّها همّتْ أن تطفأ ، فقال أبو بكر : يا رسول الله أترى هذه القناديل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : هذا عمَلُ عبد الله، يريد يُطفئها !

فبكى ابنُ وهب ، فقال له الرجل : جئتُ لأبشِّرَك ، ولو علمتُ أنه يَغُمُّك لم آتِك . فقال : خير ، هذه رؤيا وُعِظتُ بها ، ظننتُ أن العبادة أفضلُ من نشر العلم ، فترَك كثيراً من عَمَلِهِ للعلم ، وحبَسَ نفسَه لهم يقرأون عليه ويسألونه .

قال ابنُ وهب : كنتُ بين يدي مالك أكتب ، فأقيمت الصلاة — وفي لفظ آخر : فأذَّن المؤذِّن — ، وبين يديه كتبٌ منشورة ، فبادرتُ إلى جمعها ، فقال لي مالك : على رِسْلِك ، فليس ما تقوم إليه بأفضلَ مما أنت =

وحَبَاهُ بالإشفاقِ[١] ، واستعْمَلَهُ بالرِّفقِ ، وأَغْنَاهُ بالقنَاعةِ ،

= فيه إذا صحّت فيه النيّة .

قال الإمام يحيى الليثي عالم الأندلس وتلميذ الإمام مالك : من جاءه الموت وهو يطلب العلم ، لم يكن بينه وبين الأنبياء في الجنة إلا درجة » .

(١) أي منحه وأعطاه الإشفاق ، وهو الخوف من الله تعالى . وقد كانت صِفَةُ الإشفاق من الله تعالى حِلْيةَ السلف الصالح رضوان الله عليهم . « قال رجل لمحمد بن واسع أحدِ العلماء الصالحين ، والعُبّاد المحدّثين ، والغُزاةِ المرابطين : إني أحبك في الله تعالى . فقال له محمد بن واسع : أَحبّك الله الذي أحببتني له ، اللهم إني أعوذ بك أن أُحَبَّ فيك وأنت لي مُبْغِض » . من « الحلية » لأبي نعيم ٢ : ٣٤٩ .

ولتعرف شيئاً عن هذا المشفِق (محمد بن واسع) أنقلُ لك كلمات يسيرة من سيرته إلى جانب ما تقدم من كلماته تعليقاً في ص ١٦١ و١٦٢ وما يأتي في ص ١٧٧ . قال الذهبي في « تاريخ الإسلام » ٥ : ١٥٩ – ١٦١ .

« قال جعفر بن سليمان : كنت إذا وجدتُ في قلبي قسوةً غدوتُ فنظرتُ إلى وجه محمد بن واسع ، كان كأنه ثَكْلَى ! قال الأصمعي : لمّا صَافَّ قتيبةُ بن مُسْلم التُّركَ وهالَهُ أمرُهم ، سأل عن محمد بن واسع ؟ فقيل : هو ذاك في الميمنة يُبَصْبِصُ – أي يُحرِّكُ – بإصبعه نحوَ السماء ، قال : تلك الإصبعُ أحبُّ إليَّ من مئة ألفِ سيفٍ شهير . – أي مشهور مسلول – وشابٌّ طَرير – أي حسن الهيئة – .

ولما توفي رحمه الله تعالى سنة ١٢٣ قال سليمان بن بلال التيمي أحَدُ العلماء المحدّثين الكبار : ما أحَدٌ أحبُّ إليَّ أن ألقى الله تعالى بمثل صحيفته إلا محمد بن واسع » .

جَسَدٌ لُفِّفَ في أكفانِهِ   رحمةُ الله عــلى ذاك الجَسَد

وبَصَّرَهُ عَيْبَهُ .

واعْلَمْ ـ رحمك الله ـ أَنَّ الصدق والإخلاص : أَصلُ كلِّ حَالٍ ، فمن الصّدقِ يَتَشَعَّبُ الصَّبرُ والقنَاعَةُ والزُّهدُ والرضَا والأُنْسُ . وعن الإخلاص يَتَشَعَّبُ اليقينُ والخوف والمحبَّةُ والإجلالُ والحياءُ والتعظِيمُ .

ولكلِّ مؤمنٍ في هَذِهِ المقامَاتِ مَوْطِنٌ يُعْرَفُ بهِ حَالُهُ ، فيقالُ له : خَائِفٌ، وفيهِ الرجاء ؛ و: راجٍ ،وفيهِ الخوف ؛ و: صَابِرٌ ، وفيهِ الرِّضا ؛ و:مُحِبٌّ ، وفِيهِ الحَياءُ . وقُوَّةُ كلِّ حَالٍ وضعفُهُ : بِحَسَبِ إيمانِ العبدِ ومعرفتِهِ .

ولكلِّ أَصلٍ مِنْ هَذِهِ الأَحوال ثَلاَثُ عَلاَمَاتٍ يُعرَفُ بِها الحالُ :

فالصِّدْقُ في ثَلاثَة أَشياءَ لا تَتِمُّ إلاَّ بهِ : صِدقُ القلبِ بالإيمانِ تحقيقاً ، وصِدقُ النيَّةِ في الأَعْمَالِ ، وصِدقَ اللفظِ في الكلامِ .

والصَّبرُ في ثَلاثَة أَشياءَ لا تَتِمُّ إلاَّ بهِ : الصَّبرُ عَنْ مَحَارِمِ الله ، والصَّبْرُ عَلَى اتِّبَاعِ أَمْرِ الله ، والصَّبْرُ عِنْدَ المَصَائِبِ احتِسَاباً للهِ .

والقناعةُ في ثَلاَثة أَشياءَ : قِلَّةُ الغِذَاءِ بعدَ وجودِهِ ، وَصِيَانَةُ الفقرِ عندَ العَدَم وقِلَّةِ الأَسبَابِ (١) ، والسُّكُونُ إلى أَوْقَاتِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ مع حُلُولِ الفاقَة .

ولِلْقَنَاعَةِ أَوَّلٌ وَآخِرٌ ، فَأَوَّلُهَا : تَرْكُ الفُضُولِ مع وُجُودِ الاتِّسَاع ، وَآخِرُهَا وُجُودُ الغِنَى مع فَقْدِ الأَسبَابِ ، ومِنْ هَاهُنَا قَالَ بعضهُمْ : القَنَاعَةُ أَعْلَى مِنَ الرِّضَا . وإنَّما أَرَادَ قنَاعَةَ التَّمَام ، لأَنَّ الرَّاضِي لا يَتَعَرَّضُ في المَنْعِ والعَطَاءِ ، والقانِعَ غَنِيٌّ بِرَبِّهِ ، لا يُحِبُّ الزِّيادَةَ معهُ مِنْ حَظٍّ هُوَ لَهُ إلا مِنْهُ لَهُ .

والزُّهْدُ في ثَلاثَةِ أَشيَاءَ – لا يُسَمَّى زاهِداً إلا بِهَا – : خَلْعُ الأَيدِي مِنَ الأَمْلاَكِ ، وَنَزَاهَةُ النَّفْسِ عَنِ الحَلاَلِ ، والسَّهْوُ عَنِ الدُّنْيا بِكَثْرَةِ الأَوْقَاتِ (٢) .

ويكونُ الرَّجُلُ مُتَزَهِّداً بِثَلاثَةٍ أُخَر : حِمْيَةُ النَّفْسِ عندَ

---

(١) أي إبداءُ الغِنَى والرضا عند الفِقْدان وقلّةِ الرزق .

(٢) وقال الإمام عبد الله بن المبارك في تعريف الزاهد : « هو الذي إن أصاب الدنيا لم يفرح ، وإن فاتَتْه لم يَحزن . كما في ترجمته في « ترتيب المدارك » ٣ : ٤٠ للقاضي عياض .

تَرامي الإِرادات ، والهَرَبُ مِنْ مَوَاطِنِ الغِنَى ، وأَخْذُ المَعْلُومِ عند الحاجة .

والأُنْسُ في ثَلاَثةِ أشياء : أُنْسٌ بالعِلمِ والذكرِ في الخلوةِ ، وأُنْسٌ باليقينِ والمعرفةِ مع الخلوةِ ، وأُنْسٌ باللهِ عَزَّ وجلَّ في كلِّ حَالٍ (١) .

والرِّضَا : نِظَامُ المحبَّةِ . ونَفْسُ التوكُّلِ : رُوحُ اليقين . وقَد ذُكِرَ عنْ أَيوب السِّخْتِيانِيّ وَالفُضَيْلِ بن عِيَاض رحْمَةُ اللهِ عليهما أَنَّهُمَا كَانَا يَقُولان : الرِّضَا : التوكل .

فَهذِهِ شُعَبُ الصِّدْقِ المأْخُوذَةُ بأَوصافِ العلمِ . وكَانَ سُفْيانُ الثوري رَحِمَهُ اللهَ يقول : إذا كَمَلَ صِدْقُ الصَّادِق لَمْ يَمْلِكْ مَا في يَدَيْهِ .

وأَما شُعَبُ الإِخلاصِ فلا يُسَمَّى المُخْلِص مُخْلِصاً حَتَّى يُفْرِدَ اللهَ عَزَّ وجَلَّ مِنَ الأَشبَاهِ والأَنْدَادِ ، والصاحِبَةِ

---

(١) وسبق تعليقاً ص١٠٣ كلماتٌ من سيرة الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى تتصل بهذا المعنى ، فعُدْ إليها .

والأولادِ (١)

---

(١) إليك هذه الوقائع الثلاث تَشْهَدُ فيها حقيقةَ الإخلاص ، وتزدادُ بها خيراً وفهماً لإفراد الله تعالى بالعمل والعبادة :

١ ـ قال الإمام ابنُ جرير الطبري في تاريخه : « تاريخ الأمم والملوك ». في حوادث سنة ١٦ من الهجرة ٤ : ١٧٦ : « لما هبط المسلمون المدائن ، وجمعوا الأقباض ـ الغنائم ـ أقبَلَ رجلٌ بحُقّ معه ـ وعاءٌ كبير مملوء من الجوهر والتُّحَف ـ فدفعه إلى صاحب الأقباض ، فقالَ والذين معه : ما رأينا مثلَ هذا قط ! ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه ، فقالوا : هل أخذتَ منه شيئاً ؟ فقال : أما واللهِ لولا اللهُ ما أتيتكم به ، فعرفوا أنّ للرجل شأناً فقالوا : من أنتَ ؟ فقال : لا واللهِ لا أخبركم لتَحمدوني ، ولا غيرَكم ليُقرّظوني ، ولكني أحمَدُ الله وأرضى بثوابه .

فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه ؟ فاذا هو عامرُ بن عَبْد قيس » . القيسي الحضرمي أحدُ عُبَّاد التابعين الزهَّاد ، وهو أوَّلُ من عُرِفَ منهم بالنُّسُك بالبصرة . رضي الله عنه .

٢ ـ وقال ابنُ قتيبة في كتابه « عيون الأخبار » ١ : ١٧٢ : « حاصَر مَسْلَمَةُ بن عبد الملك حِصْنا ، وكان في ذلك الحِصن نَقْب ـ أي ثقب في الحائط ـ فنَدَب الناسَ إلى دخوله ، فما دخله أحد ! فجاء رجلٌ من عُرْض الجيش ـ أي من عامّته غيرُ معروف ـ فدخَلَه ففتَح الله عليهم الحِصْن ، فنادى مَسْلَمَةُ : أين صاحِبُ النَّقْب ؟ فما جاءه أحد ، فنادى : إني قد أمَرْتُ الآذِنَ بإدخاله ساعةَ يأتي ، فعَزَمْتُ عليه إلا جاء .

فجاء رجل إلى الآذن فقال : استأذِنْ لي على الأمير ، فقال له : أنت صاحبُ النَّقْب ؟ قال : أنا أخبركم عنه ، فأتى الآذنُ إلى مَسْلمَة فأخبره عنه ، فأذِنَ له ، فقال الرجل لِمَسْلَمَة : إنَّ صاحب النَّقْب =

. . . .

= يأخُذُ عليكم ثلاثاً : ألا تُسوِّدوا اسمَهُ ــ أي ألا تكتبوه ــ في صحيفةٍ إلى الخليفة ، ولا تأمروا له بشيء ، ولا تسألوه ممن هو ؟ ــ أي من أي قبيلةٍ هو ــ قال مَسْلمَةُ : فذاك له . قال الرجل : أنا هو .

فكان مَسْلمَةُ بعد هذه الحادثة لا يُصلّي صلاةً إلا قال : اللّهمّ اجعلني مع صاحبِ النَّقْبِ » .

(٣) « وحكى الصُّولي قال : حدّثنا العلاء ، قال : حدّثني يعقوب بن جعفر بن سليمان قال : غزوتُ مع المعتصم عَمُّورِيّة ، فاحتاج الناسُ إلى الماء ، فمَدّ لهم المعتصمُ حِياضاً من أدُم ــ أي جلود ــ عشرةَ أميال ، وساق منها الماءَ إلى سُوْرِ عَمُّورية . ويقال : كان في خيله ثمانون ألفَ أبلق وثمانون ألفَ أدهم .

وكان رجل من الرُّوم يقوم كلّ يوم على السُّوْر ، ويَشتمُ النبيّ صلى الله عليه وسلم بالعَرَبيّة باسمه ونَسَبه ! فاشتدّ ذلك على المسلمين ، ولم يكن يصل إليه النُّشّاب ، قال يعقوب : وكنتُ أرمي رمياً جيداً ، فاعتمدتُه بنُشّابة فأصبتُ نَحْرَه ، فهَوَى وكبّر المسلمون ، وسُرَّ المعتصم وقال : عليّ بالذي رماه ، فأُدخلتُ عليه فقال : من أنت ؟ فانتسبتُ ، فقال : الحمد لله الذي جعَلَ ثوابَ هذا السهم لرجلٍ من أهلي ــ يعني من بني العباس .

ثم قال : بِعْنِي هذا الثوابَ ، فقلت : يا أمير المؤمنين ليس الثوابُ مما يباعُ ، فقال : إني أُرَغِّبُك ، فأعطاني مئة ألف درهم ، فقلت : ما أبيع ثوابي ، فبلّغَها إلى خمس مئة ألف درهم ، فقلت : لا أبيعُ ثوابي بالدنيا وما فيها ، ولكن قد جعلتُ لك ــ أي وهبتُ لك ــ نصفَ ثوابه ــ أي ثوابِ هذا السهم ــ واللهُ يَشهدُ عليّ بذلك ، قال : جزاك الله خيراً قد رضيتُ .

ثم قال : فأين تعلّمتَ الرمي؟ قلت : بالبصرة في داري ، فقال : بِعْنِيها ،

ثمَّ إرَادَتُهُ اللهَ بإقَامَةِ التوحيدِ ، وجَمْعُ الهَمِّ لَهُ وبهِ في النَّفْلِ والفَرْضِ .

وصِحَّةُ اليقينِ في ثَلاثةِ أشياء : سكونُ القَلبِ إلى الثقةِ بالله ، والانقيادُ لأَمرِ الله ، والإشفاقُ والوَجَلُ مِنْ سَابِقِ العِلْمِ .

ولليقين أَوَّلٌ وآخِرٌ ، فَأَوَّلُهُ : الطُّمَأْنينَةُ ، وآخِرُهُ : إفرادُ الله بالكفاية . لقولِهِ جَلَّ وَعَزَّ : ﴿ يا أَيُّها النبيُّ حَسْبُكَ اللهُ ومَنْ اتَّبعَكَ مِنَ المُؤمِنينَ ﴾ (١) . والحَسْبُ هُوَ : الكافي ، والمُكْتفِي هُوَ : العَبْدُ الرَّاضِي بما قَضَى .

وإنَّما قلنا : آخِرُ اليقين مِنْ وجودِ أوصافِ العبدِ في مقام الإيمان لا في آخِرِ اليقين مِنَ العِلْمِ ، ولَنْ يَبْلُغَ ذَلِكَ

فقلت : وهي وقفٌ على من يتعلّم الرمي . فوصلني بمئة ألف درهم » (١) .

فلله درُّ ذلك المَلِك الذي يتجهد كلَّ جهده لشراء ثواب هذا السهم، ولله درُّ ذلك الرامي الذي لا يبيع ثوابَ سهمه بالدنيا وما فيها .

أقِلُّوا عليهم ـ لا أبا لأبيكم ـ من اللَّوم أو سُدُّوا المكانَ الذي سَدُّوا

(١) من سورة الأنفال : ٦٤ .

---

١ ـ انتهى نقلاً من «رسالة في الصيد والرماية والخيل» مخطوطة في مكتبة الحرم المكي بمكة المكرمة، برقم ٣٤ في فهرس الأدب ، لإبراهيم بن ولي الحنفي السباهي بغزة والمفتي بها ، فرغ من تأليفها سنة ٩٥٩ رحمه الله تعالى .

أَحدٌ مِنْ خَلْقِ الله ، كَمَا قَالَ رسولُ الله ﷺ : « لَنْ يَبلُغَ أَحدٌ مِنَ الله كُنْهاً » . قَالوا : يا رسول الله إنَّا بَلَغَنَا أَنَّ عِيسَى ابنَ مَرْيَم عَليهِ السَّلاَم كَانَ يَمشِي عَلَى المَاءِ ؟ قَالَ : « لَو ازدادَ يَقيناً وخَوفاً لمَشَى في الهوَاءِ » (١) .

ولا يكونُ الخَوفُ إلا بعد اليقين ، وَهَلْ رأَيتَ خَائِفاً لِمَا لَمْ يَسْتَيقِنْهُ ؟ .

---

(١) هذا حديث موضوع ، وإسناده إلى رسول الله ﷺ باطل . وقد وَقعَ ذكره كذلك في « الإحياء » ١٢ : ٩٤ ! وقال الحافظ العراقي في « تخريجه » : « المعروفُ أنه مِن قولِ بكر بن عبد الله المزني ، رواه ابنُ أبي الدنيا في « كتاب اليقين » قال : فَقَدَ الحواريُّونَ نَبِيَّهم ، فقيل لهم : توجّه نحو البحر ، فانطلقوا يطلبونه فلما انتهوا إلى البحر ، إذا هو قد أقبل يمشي على الماء ، فذكر حديثاً فيه أنَّ عيسى قال : لو أن لابن آدم من اليقين قدرَ شعرةٍ مَشَى على الماء » . انتهى .

ورواه الإمام أحمد في « كتاب الزهد » ص ٥٦ — ٥٧ قال : « حدثنا بهز ، حدثنا أبو هلال ، حدثنا بكر بن عبد الله قال : فَقَدَ الحواريون نبيهم عليه السلام، فخرجوا يطلبونه فوجدوه يمشي على الماء ، فقال بعضهم : يا نَبِيَّ الله أنمشي إليك ؟ قال : نعم . قال : فوضع رجلَه ثم ذهب يضع الأخرى فانغمس ! فقال : هاتِ يدك يا قصيرَ الإيمان ، لو أن لابن آدم مثقال حبة أو ذرة من اليقين إذاً لمشى على الماء » . انتهى .

قلتُ : وهذا من الأخبار الإسرائيلية التي لم نؤمر بتصديقها ولا بتكذيبها وتجوزُ حكايتُها للعبرةِ والموعظة بها .

والخوفُ في ثلاثةِ أشياء : خَوْفُ الإيمان ، وعلامَتُهُ مُفارَقَةُ المعاصِي والذنوب(١) ، وهو خَوفُ المُريدين . وخَوْفُ السَّلَف ، وعَلامَتُهُ الخشيةُ والإشفاقُ والوَرَعُ ، وهو خَوْفُ العلماء . وخَوْفُ الفَوْت ، وعَلامَتُهُ بَذْلُ الجهد في طَلَبِ مَرْضَاةِ اللهِ بوجود الهَيْبَةِ والإجلالِ للهِ عَزَّ وجلَّ ، وهو خَوْفُ الصِّدِّيقين .

ومقامٌ رابعٌ في الخوْفِ خَصَّ اللهُ بهِ الملائكةَ والأنبياءَ عليهم السلام ، وهو خَوْفُ الإعْظَامِ ، لأَنَّهمْ آمِنُونَ في أنفسِهِمْ بأَمَانِ اللهِ لهمْ ، فَخَوْفُهم تَعَبُّدُهُمْ للهِ إجلالاً وإعْظَاماً .

والمحبَّةُ في ثلاثةِ أشياء ـ لا يُسَمَّى مُحِبّاً للهِ عَزَّ وجلَّ إلا بها ـ مَحَبَّةُ المؤمنين في اللهِ عَزَّ وجلَّ(٢) ، وعلامَةُ ذلكَ :

---

(١) أي مفارقة الذنوب الحسية والمعنوية ، قال محمد بن واسع : « لو كان للذنوب ريح ما قدرتم أن تدنوا مني ، من نَتْن ريحي ! » . من « الحلية » لأبي نعيم ٢ : ٣٤٩ . وتقدم تعليقاً شرحُ آثار الذنوب في ص١٥٥ فعد إليه .

(٢) ومن أجمل ما تُفسَّرُ به المحبّةُ في الله عزَّ وجلّ : قولُ التابعي الجليل مسروق بن الأجدع رحمه الله تعالى ، وقد قال له رجل : إني لأُحبُّك في الله ، قال مسروق : إنك أحببتَ الله تعالى ، فأحببتَ من أحبَّ الله تعالى . كما في كتاب « العِلَل » للإمام أحمد ١ : ٧٣ .

كَفُّ الأَذَى عَنْهُمْ ، وجَلْبُ المَنْفَعَةِ إلَيهِمْ .

ومَحبّةُ الرسولِ ﷺ للهِ عَزَّوجَلَّ[١] ،وعَلامَةُ ذلكَ اتِّباعُ سُنَّتِهِ[٢] ،

(١) أي أن تُحبَّ الرسولَ ﷺ لأمر الله بمحبّته .

(٢) واتّباعُ السنة له صُوَرٌ كثيرة . ومنها : أن تَبذُلَ من نَفْسِكَ أو من مالِكَ ، لتُحرِزَ اتّباعَ سُنّةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو تحمّلتَ فيما تَبْذُلُه من نفسك تعباً ونصَباً ، أو تحمّلت فيما تبذله من ذات يدك : مالاً كثيراً ونَشَباً ، فأنت غانمٌ بتحصيل السنة أضعافَ ما تبذله في سبيلها ولا ريب .

وإليك هذا الخبر لتشهد صُورةً من صُوَر البذل التّي لعلها لا تخطر بالبال ، من أجل تحصيلِ سنةٍ مندوبةٍ دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

جاء في « المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية » للحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى ١ : ٣٧٦ « قال عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حُسين : إنّ عثمان بن عفان رضي الله عنه ابتاع حائطاً — أي اشترى بُستاناً — من رجل ، فساوَمَه حتى قام على الثمن — أي حتى تمّ الاتفاقُ على الثمن — ، ثم قال عثمان للبائع : أعطني يدَك ، وكانوا لا يَستوجِبون إلا بصفقة — أي لا يُثبِتون البيعَ إلا بصفق يد البائع على يد المشتري — .

فلما رأى البائعُ — يَدَ عثمان رضي الله عنه — ، قال : واللهِ لا أبيعُه حتى تزيدَني عشرةَ آلاف درهم . فالتفت عثمانُ إلى عبد الرحمن بن عوف فقال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله يُدخِلُ الجنة رجلاً كان سَمْحاً : بائعاً ، ومبتاعاً ، وقاضياً ، ومقتضياً .

— ثم قال عثمان للرجل البائع — : دُونَكَ — أي خُذْ — هذه العشرةَ الآلاف ، لأستَوجِبَ هذه الكلمة التي سمعتُها من النبي صلى الله عليه وسلم » . رضي الله عن عثمان ومن تَبِعَه إلى يوم الدين .

قالَ اللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ قُلْ إنْ كنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُم اللهُ ﴾(١) .

وَمَحَبَّةُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في إيثَارِ الطاعةِ عَلَى المَعْصِيَةِ ، وَيُقَالُ :ذِكْرُ النِّعْمَةِ يُورِثُ المَحبَّةَ(٢) .

---

(١) من سورة آل عمران : ٣١ .

(٢) قال العلامة الفيروز آبادي رحمه الله تعالى في « بصائر ذوي التمييز » ٢ : ٤٢١ — ٤٢٢ : « والأسبابُ الجالبة لمحبّة الله تعالى عشرة :

الأول : قراءةُ القرآن بالتدبُّرِ والتفهُّمِ لمعانيه والتفطُّنِ لمرادِ الله منه .

الثاني : التقرُّبُ إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض ، فإنها تُوصِّلُ إلى درجة المحبوبيّة بعد المحبّة .

الثالث : دوامُ ذكره سبحانه على كل حالٍ باللسانِ والقلبِ والعملِ والحالِ ، فنصيبُ المحبّ من المحبّة على قدرِ نصيبِه من هذا الذِكر .

الرابع : إيثارُ مَحابِّه سبحانه على مَحابِّك عند غَلَبَاتِ الهوى .

الخامس : مطالعةُ القلب لأسمائِه سبحانه وصفاتِه ، ومشاهدتُها ، وتقلُّبُه في رياض هذه المعرفة ومباديها ، فمن عَرَفَ اللهَ بأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه : أحبّهُ لا مَحالة .

السادس : مشاهدةُ بِرِّه وإحسانِه ونِعَمه الظاهرة والباطنة .

السابع : وهو مِن أعجبِها : انكسارُ القلب بكليّتِه بين يديه .

الثامن : الخلوةُ به سبحانه وقتَ النُّزولِ الإلهي — أي وقتَ التجلّي الإلهي وهو في الأسحار قبلَ الفجر — لمناجاتِه وتلاوةِ كلامِه والوقوفِ بالقالبِ والقلبِ بين يديه ، ثم خَتْمِ ذلك بالاستغفار والتوبة . =

وللْمَحَبَّةِ أَوَّلٌ وآخِرٌ ، فأَوَّلُهَا : محَبَّةُ اللهِ بالأَيادِي وَالمِنَنِ (١) ، قالَ ابنُ مسْعُود رضِي اللهُ عنهُ : جُبِلَتِ القُلوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إليها .

وأَعْلاَهَا المَحبَّةُ لوجُوبِ حقِّ اللهِ عَزَّ وجلَّ ، قالَ علي بنُ الفُضَيل رحمةُ اللهِ عليهِ : إنَّما يُحَبُّ اللهُ عَزَّ وجلَّ لأَنه هُوَ الله .

وقالَ رجُلٌ لطَاووس : أَوصِنِي . قالَ : أُوصِيكَ أَنْ تُحِبَّ اللهَ حُبّاً حَتَّى لا يكون شَيءٌ أَحَبَّ إليكَ مِنْهُ ، وخَفْهُ خَوفاً حَتَّى لا يكون شَيءٌ أَخْوَفَ إليكَ مِنْهُ ، وارْجُ اللهَ رَجاءً يَحُولُ بينَكَ وبَينَ ذَلكَ الخوف ، وارْضَ للْناسِ مَا تَرْضَى لِنَفْسِكَ ، قُمْ فَقَدْ جَمَعْتُ لَكَ التوراةَ والإنْجِيلَ والزَّبُورَ وَالفُرْقَانَ .

والإجلالُ والتعظِيمُ مِنَ الحياءِ بِمَنزِلَةِ الرأس مِنَ الجَسَدِ ،

= التاسع : مجالسةُ المحبِّينَ الصّادقين والتقاطُ أطايب ثمرات كلامهم ، وأن لا يتكلّمَ — أي المحبُّ — إلا إذا ترجّحت مصلحةُ الكلام ، وعَلِمَ أنّ فيه مَزيداً لحالِه .

العاشر : مُباعَدَةُ كلِّ سبب يحول بين القلب وبين الله عزَّ وجلَّ . فمِن هذه الأسباب وصَلَ المحبّون إلى مَنازل المحبّة » .

(١) الأيادي : النِّعَم .

الذي لا غِنَى لأَحَدِهمَا عَنْ صَاحِبه ، وإِذَا استَحْيَا العَبْدُ مِنْ ربِّهِ أَجَلَّهُ . وأَفضلُ الحيَاءِ المراقبةُ للهِ عزَّ وجلَّ(١) .

والمُرَاقَبَةُ في ثلاثةِ أَشياء : مُرَاقَبةُ اللهِ في طَاعتِهِ بالعملِ ، ومُرَاقَبَةُ اللهِ في مَعْصِيتهِ بالتَّركِ ، ومُراقبَةُ اللهِ في الهَمّ والخواطِرِ(٢) ، لِقَوْلِ النبي ﷺ : « آعبُدِ الله كأَنَّكَ تَرَاهُ ، فإنْ لَمْ تكُنْ تَرَاهُ فإنهُ يَرَاكَ » (٣) .

ومُراقَبَةُ القَلْبِ للهِ عزّ وجلَّ أَشدُّ تَعَباً عَلَى البدن مِنْ مُكابَدَةِ قِيامِ الليلِ ، وصِيامِ النهارِ ، وإنفَاقِ المَالِ في سَبِيلِ اللهِ .

---

(١) قال سفيان الثوري : كانوا يقولون : ما رَفَعَ قيسُ بن مُسْلِم رأسَه إلى السماء منذ كذا وكذا ، تعظيماً لله عزَّ وجل . رواه الإمام أحمد في « العلَل » ١ : ٣٤٠ . وفيه أيضاً ١ : ٢١٤ أنَّ التابعي الجليل (سعيد بن المسيَّب) قال : « ما أذَّن المؤذِّنُ منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد » . انتهى .

قلت : هذا في غاية المراقبة ، إذ من الحق على المملوك أن يكون بين يدَيْ مالكه قبل أن يدعوه ، لا أن يدعوه فيحضر .

(٢) وتقدم تعليقاً ص ٤٦ ـ ٤٨ كلامٌ نفيس للغاية في الخواطر للشيخ ابن القيم ، فعُد إليه .

(٣) سبق تخريجه تعليقاً في ص ١٠٦ .

وقدْ ذُكِرَ عَنْ عَلي بن أَبي طَالب رضي اللهُ عَنْهُ أَنهُ كَانَ يَقُولُ : إنَّ لله في أَرْضِهِ آنِيَةً ، وإنَّ مِنْ آنِيَتهِ فيها القُلُوبَ ، فَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا إلاَّ مَا صُفِّي وَصَلُبَ وَرَقَّ (١).

وَمَعْنَى ذَلِكَ : أَنْ يُصَفِّي (٢) القَلْبَ لله عَزَّ وجَلَّ بِاتِّباع أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَمُشَاهَدَةِ الصِّدْقِ والإِشْفَاق ، وصَفَّاهُ لِرَسُولِ الله ﷺ بِقبول مَا أَتَى بِهِ قولاً وَعَمَلاً ونيَّةً . وَصَفَّاهُ لِلْمُؤمِنين بِكَفِّ الأَذَى وَإِيصَالِ النفعِ .

وأَمَّا مَعْنَى قَولِهِ : « وصَلُبَ » فَمَعْنَاهُ : قَوِيَ في إِقَامَةِ الحدودِ لله تَعَالَى ، والأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ والنَّهيِ عَنِ المُنْكَرِ . وقَوْلِهِ : « وَرَقَّ » فالرِّقَّةُ عَلَى وجْهَين : رِقَّةٌ بِالبُكاءِ ،

---

(١) رواه الإمام أحمد في « كتاب الزهد » ص ٣٨٤ من كلام خالد بن مَعدان بنحو هذا اللفظ . وجاء نحوُه من حديث أبي عِنَبة الخولاني مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنَّ لله آنيةً من أهل الأرض ، وآنيةُ ربكم قلوبُ عباده الصالحين ، وأحبـُّها إليه أليـنُها وأرقُّها ». رواه الطبراني ، وفي سنده : بقيّةُ بن الوليد الحمصي ، وهو مدلّس ، لكنه صرَّح بالتحديث ، كما في « المقاصد الحسنة » ص ٣٤٧ للسخاوي ، و « فيض القدير » للمناوي ٢ : ٤٩٦ .

(٢) أي العبدُ .

ورِقَّةٌ بِالرَّأْفَةِ . وبِاللهِ التوفِيق ، وهو حَسْبُنَا ونِعْمَ الوَكِيلُ (١) .

---

(١) جاء في خاتمة الأصلين : « تمّت رسالة المسترشدين بحمد الله وعونه وحسن توفيقه » . وجاء بعد هذا صلاة على النبي — عليه الصلاة والسلام — وعلى آله وأصحابه بعبارات متغايرة . وهي لا شك من عمل النساخ . وآخِرُ دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

يقول الفقير إليه تعالى عبد الفتاح بن محمد أبو غدة — تاب الله عليه ، وغفر له ولوالديه — : فرَغتُ من خدمة هذا الكتاب والتعليق عليه للمرة الأولى في ١ / جمادى الأولى سنة ١٣٨٤ بمدينة حلب ، ثم ألحقتُ به زيادات كثيرة في التعليق ، لاحظتُ فيها ما يحتاجه شبابُنا وبناتُنا اليوم ، من توجيه وتعبئة للروح والسلوك في هذا المجتمع الفاسد ، وقانا الله وإياهم كلَّ سوء ووفّقنا إلى الخير والرشاد .

ومن الله تعالى أبتغي كريمَ الأجر ، ومن المنتفعين به أرجو الدعاءَ وحُسنَ الذكر ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلتُ وإليه أُنيب .

وفرغتُ من التعليق عليه للمرة الثانية صباح يوم الاثنين ٥ / من جمادى الأولى سنة ١٣٩١ في مدينة بيروت ، والحمد لله ربّ العالمين .

من أدب الإسلام

بقلم

عبد الفتاح أبو غدة

رأيت أن ألحق في ختام هذه الرسالة النافعة « رسالة المسترشدين » ، كلمةً كنت كتبتها في مناسبة توجيهية ، فأوردُها هنا رجاءَ النفع بها ، والله سبحانه وليُّ الهدى والرشاد .

إن للإسلام الحنيف آداباً وفضائل كثيرة ، تدخل في كل شأن من شؤون الحياة ، وقد دعا الإسلامُ إليها ، وحَضَّ عليها ، لتكامل الشخصية المؤمنة ، وتحقُّقِ الانسجام بين الناس . ولا ريب أن التحلّيَ بتلك الآداب والفضائل : مما يزيد في جمال سلوك المسلم ، ويُعزِّزُ محاسِنَه ، ويُحبِّبُ شخصيّتَه ، ويُدنيه من القلوب والنفوس .

وهذا أمر من لُباب الشريعة ومقاصدها ، فليس معنى تسميتها (آداباً) أنها على طرف الحياة والسلوك . وقد أوصَى بعضُ السلف ولدَه بقوله : « يا بُنَيَّ اجعل عَمَلَكَ مِلْحاً ، وأدَبَكَ دقيقاً » . يشير إلى أن الإكثار من الأدب في العمل القليل ، خيرٌ من العمل الكثير الخاوي من الأدب .

وإذا رُؤي في بعض هذه الآداب شيء من البساطة أو البداهة ، فلا غرابة في التنبيه إليها ، فانَّ نفراً غيرَ قليل منا ، يقع منه الخطأ في مثل تلك البَدَهِيّات ،

فيتميزُ بذلك من شخصيته المسلمة ، التي ينبغي أن تكون متميزةً بجمالها وكمالها وسماتها ، كما أرشد إلى ذلك قولُ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحسنوا لباسكم ، وأصلحوا رِحالكم ، حتى تكونوا كأنكم شامةٌ في الناس ».

والله الهادي إلى سواء السبيل .

١ ـ إذا دخلتَ دارك أو خرجتَ منها ، فلا تدفع بالباب دفعاً عنيفاً ، أو تدعه ينغلق لذاته بشدة وعنف ، فان هذا مناف للطف الإسلام الذي تتشرف بالانتساب إليه ، بل أغلقه بيدك إغلاقاً رقيقاً ، ولعلك سمعت ما روته عائشة رضي الله عنها من قول رسول الله ﷺ : « إن الرِّفقَ لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا يُنزَعُ من شيء إلا شانه » . رواه مسلم .

٢ ـ إذا دخلتَ بيتك أو خرجت منه ، فسلِّم على من فيه من أهلك من ذكر أو أنثى ، بتحية المسلمين وعنوان الإسلام : (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) ، ولا تَعدِل عن هذه التحية الإسلامية إلى غيرها من (صباح الخير) أو (مرحباً) أو نحوها ، فإنّ عدولك عنها إلى غيرها إماتة لها ، وهي شعار الإسلام وعنوان المسلمين الذي رسمــه لهم رسول الله ﷺ بقوله وفعله : قال أنس رضي الله عنه : قال لي رسول الله ﷺ « يا بُنيَّ إذا دخلتَ على أهلك فسلِّم ، يكونُ بركةً عليك وعلى أهلك » . رواه الترمذي .

وقال قتادة أحد أعلام التابعين الفضلاء : إذا دخلت بيتك فسلِّم على أهلك ، فهم أحقُّ من سلَّمتَ عليهم . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « إذا انتهى أحدُكم إلى المجلس فليسلم ، فاذا أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحقَّ من الآخِرَة » . رواه الترمذي .

٣ ـ إذا دخلت مجلساً فلا تجلس بين جليسين ، ولكن خُذْ ناحيتهما يميناً أو يساراً ، فقد قال رسول الله ﷺ : « لا يُجلَسُ بين رجلين إلا بإذنهما ». رواه أبو داود . وإذا جلست إليهما فلا تُلقِ بسمعك إلى حديثهما ، إلا اذا كان غيرَ سِرّ ولا خاصٍّ بهما ، فانَّ تطلُّعك إلى ذلك عيب في أخلاقك ،

وسيئة ترتكبها ، قال سيدنا رسول الله ﷺ : « من استَمَع إلى حديث قوم وهم له كارهون صُبَّ في أُذنيه الآنُك يومَ القيامة». أي الرَّصاصُ المذاب ، رواه البخاري وغيره .

واعلم أنه لا يسوغ لك أن تُسارَّ جليسَك بحديث إذا كنتم ثلاثة ، فانك بهذا توقع على ثالثكما إيحاشاً وانقطاعاً عنكما ، فتَمرَّ بذهنه الخواطر البعيدة والقريبة ، وهذا غير لائق بالمسلمين ، ولهذا نفى رسول الله ﷺ هذا الخُلُقَ عن المسلمين نفياً فقال : « لا يَتناجَى اثنان بينهما ثالث » . ولم يقل : (لا يَتناجَ) بصيغة النهي ، إيذاناً منه بأنه غير متصور أن يقع هذا الخطأ من المسلم حتى يُنهىَ عنه لأنه خطأ يُدرَك بالفطرة . وهذا الحديث رواه مالك وأبو داود عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه . وقد سُئل ابن عمر فقيل له : فاذا كانوا أربعة ؟ قال : لا يَضرُّك ، أي لا بأسَ حينئذ بالمُسارَّة والمناجاة .

٤ ـ إذا طرقتَ باب أخيك فدُقّه دقاً رفيقاً يُعرِّفه وجودَ طارق بالباب ، ولا تَدُقَّ بعنف كدق الظَّلَمة والزَّبانيَة فترُوِّعَه وتُخِلَّ بالأدب ، جاءت امرأة إلى أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، لتسأله عن شيء من أمور الدين ، ودَقَّتْ عليه البابَ دقاً فيه بعضُ العنف ، فخرج وهو يقول : هذا دَقُّ الشُّرَط ـ جمع شُرْطِي ـ . وقد كان الصحابة يقرعون باب رسول الله ﷺ بالأظافر . رواه البخاري في « الأدب المفرد » أدباً منهم مع رسول الله ﷺ .

وهذا مطلوب فيمن كان جلوسه قريباً من بابه ، وأما من بَعُد عن الباب فيُقرَعُ عليه قرعاً يَسمعه في مكانه من غير عنف ، وسبق ذكر الحديث الشريف : « إنَّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا يُنزَعُ من شيء إلا شأنه » . وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام : « من يُحرَم ِ الرفقَ يُحرم ِ الخيرَ كلّه » . رواه مسلم .

وينبغي أن تَجعلَ بين الدَّقّتين زمناً غير قليل ، ليفرغ المتوضىء من وضوئه في مَهَل ، ولينتهي المصلي من صلاته في مهل ، وليفرغ الآكل من لقمته

في مَهَل . وإذا طرقت ثلاثَ مرات متباعدة ، ووقع في نفسك أنه لو كان غيرَ مشغول عنك لخرج إليك ، فانصرف فقد قال رسول الله ﷺ : « إذا استأذن أحدُكم ثلاثاً فلم يُؤذَن له فلينصرف » . رواه البخاري ومسلم .

ولا تقف عند استئذانك تلقاءَ فتحة الباب ، ولكن خذ يَمنة أو يَسرة ، فقد « كان رسول الله ﷺ إذا أتى بابَ قوم لم يستقبله من تلقاء وجهه ، ولكن من رُكنِه الأيمن أو الأيسر » . رواه أبو داود .

٥ — إذا طرقت باب أحد من إخوانك ، فقيل لك: من هذا ؟ فقل : فلان باسمك الصريح الذي تُعرَف به ، ولا تقل : واحد ، أو أنا ، أو شخص ، فإنَّ هذه الألفاظ لا تفيد السائل مِن خلفِ الباب معرفةً بالشخص الطارق ، ولا يصحُّ لك أن تعتمد على أن صوتك معروف عند من تطرق عليه ، فان الأصوات تلتبس وتشتبه ، وليس كلُّ من في الدار التي تطرق بابها يَعرفُ صوتك وحِسَّك .

وقد كره النبي ﷺ قولَ الطارق : (أنا) ، لأنها لا تفيد شيئاً ، روى البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ فدقَقْتُ الباب ، فقال : « من هذا ؟ فقلت أنا ، فقال النبي ﷺ : أنا أنا ؟! لأنه كَرِهَها » .

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يسمون أنفسَهم إذا قيل لهم : من هذا ؟ روى البخاري ومسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : خرجت ليلة من الليالي ، فاذا رسول الله ﷺ يمشي وحده ، فجعلت أمشي في ظل القمر ، فالتفتَ فرآني ، فقال : « من هذا ؟ فقلت : أبو ذر » . وروى البخاري ومسلم أيضاً عن أم هانىء أختِ سيدنا علي وابنةِ عم النبي صلى الله عليه وسلم رضي الله عنها قالت : أتيتُ النبي ﷺ وهو يغتسل وفاطمة تستره ، فقال : من هذه ؟ فقلت : « أنا أمُّ هانىء » .

٦ — إذا زرت أحد إخوانك دون موعد ، أو على موعد سابق منه ، فاعتذَرَ لك عن قبول زيارتك له ، فاعذُرْه ، فانه أدرى بحالِّ بيته وملابسات

شأنه ، فقد يكون جَدّ لديه من الموانع الخاصة ، أو حصل عنده من الحرج : ما لا يسمح له باستقبالك وقتئذ ، فله أن يعتذر لك دون تحرج . ولذا كان من أدب السلف عند زيارتهم ، أن يقول الزائر للمزور : (لعله بدا لك مانع) ، تمهيداً لبسط العذر من المزور فيما لو اعتذر .

ولأهمية هذا الأدب ، واقتلاع ِ ما قد يعلق ببعض النفوس من جراء الاعتذار ، نَصّ الله تعالى عليه في كتابه الكريم ، فقال في معرض الزيارة والاستئذان والدخول : ﴿ وإن قِيلَ لكُمُ ارجِعوا فارجِعُوا هو أزكى لكم ﴾ .

وفي هذا الأدب القرآني العظيم مندوحة مما يقع فيه بعضهم ، حين يُحرَج بزيارة من لا يرغب بلقائه ، فيُضطَرّ إلى الإخبار بعدم وجوده في البيت ، ويكون هو فيه ، فيقع منه الكذب ، ويتعلّمُ صغارُه منه ذلك أيضاً ،وقد ينجم عن سلوكه هذا الإحنُ في الصدور .

والهَدْيُ القرآني الكريم جنَّبَنا الوقوعَ في ذلك كله ، إذ جعل بوسع المزور أن يتلطف بالاعتذار لأخيه، وطلَبَ من أخيه أن يقبل عذره .

٧ ــ عندما تزور بيت أخيك ــ أو تدخل بيتك ــ كن لطيفاً في مدخلك ومخرجك ، غاضّاً طرفك وصوتك ، واخلع حذاءك في محله ، وصُفّ نعليك أثناء خلعهما ، ولا تدعهما هكذا وهكذا ؟ ولا تَنسَ آدابَ لُبس الحذاء وخلعه : تلبس اليُمنى أولاً ، وتخلع اليسرى أولاً ، قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا انتعل أحدُكم فليبدأ باليمين ، واذا انتَزَع فليبدأ بالشّمال ، ولتكن اليُمنى أوّلَهما تُنْعَل وآخرَهما تُنزَع » . رواه مسلم وغيره .

وقبل الدخول إلى بيت أخيك انظر في نعليك ، فاذا رأيت فيها شيئاً من آثار الطريق فأمِطْه عنهما، وادلكهما في الأرض لينزاح ذلك الشيء منهما ، فإن الإسلام دين النظافة واللطافة .

٨ ــ لا تُنازِعْ أخاك في المكان الذي يُجلسك فيه في منزله ، بل لا تجلس إلا حيث يُجلسك . فلعلك ــ إن جلست كما تريد ــ تجلس إلى مكان فيه

إطلال على عورة من عورات الدار ، أو فيه إحراج لساكنيها . فعليك بامتثال ما يأمرك به مُضيفك ، واقبل ما يكرمك به . دخل خارجة بن زيد على ابن سيرين زائراً له ، فوجده جالساً على الأرض إلى وسادة ، فأراد أن يجلس معه وقال له : قد رضيتُ لنفسي ما رضيتَ لنفسك ، فقال ابنُ سيرين : إني لا أرضى لك في بيتي بما أرضى به لنفسي ، فاجلس حيث تؤمر .

ولا تجلس في مكان صاحب المنزل إلا إذا دعاك إلى الجلوس فيه . فقد قال سيدنا رسول الله ﷺ : « لا يَؤُمَّنَّ الرجلُ الرجلَ في سلطانه — أي منزله ومكانِ سُلْطَتِه — ، ولا يَقْعُدْ في بيته على تَكْرِمَتِهِ إلا بإذنه » . رواه مسلم . والتكرمة : الموضعُ الخاصُّ بجلوس صاحب البيت من فِراش أو سرير أو نحوهما .

٩ — اعرف للكبير قَدْرَه وحَقّه ، فإذا ماشيته فقَدِّمه عليك في الدخول والخروج ، وإذا التقيتَ به فأعطه حقّه من السلام والاحترام ، وإذا اشتركتَ معه في حديث فمكّنه من الكلام قَبْلَك ، واستمع إليه بإصغاء وإجلال ، وإذا كان في الحديث ما يدعو للمناقشة فناقِشْه بأدبٍ وسكينة ولُطف ، وغُضَّ من صوتك في حديثك إليه ، وإذا خاطبته أو ناديته فلا تَنْسَ تكريمَه في الخطاب والنداء .

وإليك بعض الأحاديث التي تدعو لهذا الأدب : جاء أخوان إلى رسول الله ﷺ ليُحدِّثاه بحادثة وقعَتْ لهما . وكان أحدهما أكبرَ من أخيه ، فأراد أن يتكلم الصغير ، فقال له النبي ﷺ : «كَبِّر كَبِّر» . — أي أعط الكبيرَ حقه ، ودَعْ لأخيك الأكبر الكلام — . رواه البخاري ومسلم .

وقال سيدنا رسول الله ﷺ : « ليس مِنّا من لم يُجِلَّ كبيرَنا ، ويَرْحَمْ صغيرَنا ، ويَعْرِفْ لعالِمنا حَقّه » . رواه الإمام أحمد والحاكم .

واستمع إلى سيدنا رسول الله ﷺ يُعلِّمُ الشباب آدابَ الصحبة والاجتماع ، قال الصحابي الجليل مالك بن الحُوَيرث رضي الله عنه : « أتينا رسولَ الله ﷺ

ونحن شَبَبَةٌ متقاربون — أي شباب متقاربون في السن — ، فأقمنا عنده عشرين ليلة ، وكان رسول الله ﷺ رحيماً رفيقاً ، فظنّ أنا قد اشتقنا أهلنا ، فسألنا عن من تركنا من أهلنا ؟ فأخبرناه ، فقال : ارجعوا إلى أهليكم ، فأقيموا فيهم ، وعلّموهم ومُرُوهم ، فاذا حضرت الصلاةُ فليُؤذِّن لكم أحدُكم ، وليؤمّكم أكبرُكم » . رواه البخاري ومسلم .

١٠ — إذا دخلت مكاناً فيه نيام — بالليل أو النهار — فراعِهم ، وتلطّفْ في حركتك وصوْتِك عندهم ، ولا تكن ثقيلا في ضجيجك أو دخولك أو خروجك ، بل كن رقيقاً لطيفا ، فقد سمعتَ قول رسول الله ﷺ : « من يُحرَم الرفقَ يُحرَمِ الخيرَ كلّه » . وقال المقداد بن الأسود رضي الله عنه : « كنا نرفعَ لرسول الله ﷺ نصيبَه من اللّبَن ، فيَجيء من الليل ، فيُسَلِّمُ تسليماً لا يُوقِظُ النائم ، ويُسمع اليقظان » . رواه مسلم والترمذي . وكان صلى الله عليه وسلم إذا قام يتهجد بالليل ، قرأ بصوتٍ يُؤنس اليقظان ، ولا يُوقِظُ الوسنان .

هذه طائفة من آداب الاسلام ، قدّمتها لك بعبارة واضحة مفهومة ، لتعمل بها وتسير عليها ، وخيرُ ميدان للعمل بها هو بيتُك وبيتُ أخيك ، وشخصُك وشخصُ أخيك ، فلا تتساهل في القيام بها فيما بينك وبين إخوانك ، زاعماً أنه لا كلفة بين الأهل والإخوان ، فأحقُّ الناس بالبرِّ واللّطف منك أهلُك وأصحابُك . فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : « يا رسول الله من أحقُّ الناس بحُسن الصُّحبة مني ؟ قال : أُمُّك ثم أُمُّك ثم أُمُّك ، ثم أبوك ، ثم أدناك أدناك » . أي الأقرب فالأقرب . رواه البخاري ومسلم .

فحذارِ أيها الأخ أن تتساهل مع أحقّ الناس بحُسن الصحبة منك ، وتتكايَسَ — أي تتظارف — مع غيرهم ، فانك إن فعلتَ ذلك غَبَنتَ نفسَك ، وظلمتَ الحقَّ الذي عليك ، وجانبتَ هَدْي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاستعن بالله على مرضاته وآدابِ شريعته ، وهو الذي يتولى الصالحين .

المحتوى

١ ـ الآيات القرآنية

٢ ـ الأحاديث

٣ ـ الآثـــار [1]

---

(١) الآثار جمع أثر ، والمراد به هنا ما أثر ونقل عن الصحابي أو التابعي أو غيرهما من سلف هذه الأمة الصالحين رضوان الله عليهم. وأكثر الآثار اكتفيت بذكر طرف منها لطولها ، فتنظر بتمامها في مواضعها.

٤ ـ الأعلام

❊ ❊ ❊

٥ ـ المصادر [1]

١ — آداب المتعلمين لنصير الدين الطوسي ضمن مجموعة رسائل . دار الفتوح دون تاريخ
٢ — الإتحافات السنية في الأحاديث القدسية للمدني . حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥٨ .
٣ — الإتقان في علوم القرآن للسيوطي . الطبعة الثانية ١٣٥٤
٤ — الإحياء في علوم الدين للغزالي . لجنة نشر الثقافة الإسلامية ١٣٥٦
٥ — الانتقاء لابن عبد البر . طبعة حسام الدين القدسي . المعاهد ١٣٥٠
٦ — إرشاد الساري للقسطلاني . البولاقية الخامسة ١٢٩٣
٧ — الأربعون النووية للنووي . مع « الفتح المبين » الآتي ذكره
٨ — الأسماء والصفات للبيهقي . السعادة ١٣٥٨ .
٩ — أصول الدين لأبي منصور البغدادي ، الآستانة ١٣٤٦
١٠ — أعلام النساء لعمر رضا كحالة . الهاشمية بدمشق ١٣٧٩ .
١١ — إعلام الموقعين لابن القيم . السعادة ١٣٧٤
١٢ — إغاثة اللهفان لابن القيم . مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٧
١٣ — أنباء نجباء الأبناء لابن ظفر المغربي . القدم دون تاريخ
١٤ — البداية والنهاية لابن كثير . السعادة ١٣٥١
١٥ — بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي . شركة الإعلانات الشرقية ١٩٦٤ م
١٦ — بهجة النفوس وتحليها لابن أبي جمرة الأندلسي . الصدق الخيرية ١٣٤٨
١٧ — تاريخ الإسلام للذهبي . السعادة ١٣٦٧
١٨ — تاريخ بغداد للخطيب البغدادي . السعادة ١٣٤٩

---

(١) اقتصرت فيها على ما عزوت إليه في التعليق . وما طبع منها بمصر أغفلت ذكر بلده .

١٩ – تاريخ الأمم والملوك للطبري . الحسينية ١٣٢٦ .
٢٠ – تذكرة الحفاظ للذهبي . الطبعة الثالثة حيدر آباد الدكن ١٣٥٧
٢١ – تذهيب التهذيب للذهبي مخطوط .
٢٢ – ترتيب المدارك للقاضي عياض . الرباط بالمغرب ١٣٨٤
٢٣ – الترغيب والترهيب للمنذري . مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٢
٢٤ – تفسير ابن كثير . مصطفى محمد ١٣٥٦
٢٥ – تقريب التهذيب لابن حجر . دار الكتاب ١٣٨٠
٢٦ – تخريج أحاديث الإحياء للعراقي . مع « الإحياء » المتقدم ذكره .
٢٧ – تلخيص المستدرك للذهبي . مع « المستدرك » الآتي ذكره .
٢٨ – تهذيب الأسماء واللغات النووي . الطبعة المنيرية
٢٩ – تهذيب التهذيب لا بن حجر . حيدر آباد الدكن ١٣٢٥ .
٣٠ – التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي . بولاق ١٢٨٦
٣١ – ثقات العجلي . مخطوط .
٣٢ – جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر . المنيرية ١٣٤٦
٣٣ – جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي . مصطفى البابي الحلبي ١٣٦٩
٣٤ – الجامع الصغير للسيوطي . مع « فيض القدير » الآتي ذكره .
٣٥ – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي . دار الكتب المصرية ١٣٥٤
٣٦ – جذوة المقتبس للحميدي . مكتب نشر الثقافة الإسلامية ١٣٧٢
٣٧ – الجواب الكافي لابن القيم . أمين عبد الرحمن ١٣٤٦
٣٨ – الحاوي للفتاوي للسيوطي . السعادة ١٣٧٨
٣٩ – الحلية لأبي نعيم . السعادة ١٣٥١
٤٠ – الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان لابن حجر الهيتمي . الخيرية ١٣٠٤
٤١ – ديوان الأسرار والرموز للشاعر محمد إقبال . دار المعارف ١٩٥٦ م
٤٢ – ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي . السنة المحمدية ١٣٧٢
٤٣ – الرسائل الصغرى لابن عباد النفزي . الكاثولكية في بيروت ١٩٥٧ م
٤٤ – الرسالة القشيرية للقشيري . بولاق ١٢٨٤
٤٥ – رساله في الصيد والرمايه والخيل لإبراهيم الحنفي . مخطوط .
٤٦ – الرفع والتكميل في الجرح والتعديل للكنوي . دار لبنان في بيروت ١٣٨٩
٤٧ – الروح لابن القيم . حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥٧
٤٨ – روضه العقلاء لابن حبان . الخانجي/١٣٢٨
٤٩ – زاد المعاد لابن القيم . السنة المحمدية ١٣٧٠
٥٠ – الزهد للإمام أحمد ، أم القرى بمكة المكرمة ١٣٥٧
٥١ – سباحة الفكر في الجهر بالذكر للكنوي . لكنو ١٣٠٣

٥٢ — سر الروح للبقاعي . السعادة ١٣٢٦
٥٣ — سنن ابن ماجه . عيسى البابي الحلبي ١٣٧٢
٥٤ — سنن أبي داود . مصطفى محمد ١٣٥٤
٥٥ — سنن الترمذي ، المصرية بشرح ابن العربي ١٣٥٠
٥٦ — شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي . مكتبة القدسي ١٣٥٠
٥٧ — شرح الإحياء (إتحاف السادة المتقين) للزبيدي . الميمنية ١٣١١
٥٨ — شرح الأربعين النووية المنسوب للنووي . مصطفى محمد .
٥٩ — شرح الباجوري على السنوسية بحاشية الأنبابي . الاستقامة ١٣٥٢
٦٠ — شرح حديث العلم لابن رجب الحنبلي . السلفية بمكة المكرمة ١٣٤٧
٦١ — شرح الحكم لابن عباد النفزي . الميمنية ١٣٠٤
٦٢ — شرح صحيح مسلم للنووي . المطبعة المصرية ١٣٤٧
٦٣ — شرح الكوكب المنير للفتوحي الحنبلي . السنة المحمدية ١٣٧٢
٦٤ — شرح الموطأ للزرقاني . الكستلية ١٢٧٩
٦٥ — صحيح البخاري مع « فتح الباري » الآتي ذكره .
٦٦ — صيد الخاطر لابن الجوزي . مطابع دار الفكر بدمشق ١٣٨٠
٦٧ — طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى الحنبلي . السنة المحمدية دون تاريخ .
٦٨ — طبقات الحنفية لعلي القاري . حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٣٢
٦٩ — طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي . الحسينية ١٣٢٤
٧٠ — عارضة الأحوذي شرح سنن الترمذي لابن العربي . المطبعة المصرية ١٣٥٠
٧١ — العبر في خبر من غبر للذهبي . الكويت ١٣٨٠
٧٢ — العقل وفضله لابن أبي الدنيا . عزت العطار ١٣٦٥
٧٣ — العلل للإمام أحمد بن حنبل . جامعة أنقرة في تركيا ١٣٨٢
٧٤ — عيون الأخبار لابن قتيبة . دار الكتب المصرية ١٣٤٣
٧٥ — فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر بولاق ١٣٠٠
٧٦ — الفتح المبين بشرح الأربعين لابن حجر الهيتمي . الميمنية ١٣١٧
٧٧ — الفروع لابن مفلح الحنبلي . دار مصر للطباعة ١٣٧٩
٧٨ — الفروق للقرافي . دار إحياء الكتب العربية ١٣٤٦
٧٩ — الفوائد لابن القيم . المنيرية ١٣٤٤
٨٠ — فيض الباري بشرح صحيح البخاري للكشميري . حجازي ١٣٥٧
٨١ — فيض القدير بشرح الجامع الصغير للمناوي . مصطفى محمد ١٣٥٦
٨٢ — قاعدة في الجرح والتعديل للتاج السبكي . دار لبنان في بيروت ١٣٨٨
٨٣ — القاموس المحيط للفيروز آبادي . الحسينية ١٣٣٠
٨٤ — القضاء في الإسلام . محاضرة لعارف النكدي . الترقي بدمشق ١٣٤٠

٨٥ — كتاب الأولياء لابن أبي الدنيا . جمعية النشر والتأليف الأزهرية ١٣٥٤
٨٦ — كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني . مكتبة القدسي ١٣٥١
٨٧ — كشف الغمة عن جميع الأمة للشعراني . الكستلية ١٢٨١
٨٨ — كليلة ودمنة لابن المقفع مطبعة الخازندار ١٩٣٤ م
٨٩ — الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية للمناوي ١٣٥٧
٩٠ — لسان العرب لابن منظور . بولاق ١٣٠٠
٩١ — متن الزبد لابن رسلان الشافعي . ضمن « مجموعة المتون » .
٩٢ — مجمع الزوائد للهيثمي . مكتبة القدسي ١٣٥٢
٩٣ — مجموعة رسائل ابن أبي الدنيا . جمعية النشر والتأليف الأزهرية ١٣٥٤
٩٤ — مجموعة الرسائل الست للكنوي . مطبع دبدبه أحمدي في لكنو بالهند ١٣٠٣
٩٥ — مجموع الفتاوى للشيخ ابن تيمية . مطابع الرياض في الرياض ١٣٨١
٩٦ — مراقي الفلاح للشرنبلالي بحاشية الطحطاوي . بولاق ١٢٦٩
٩٧ — مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين لأبو غدة . دار القلم ببيروت ١٣٩١
٩٨ — المستدرك على الصحيحين للحاكم . حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٣٤
٩٩ — مسند الإمام أحمد بن حنبل . الميمنية ١٣١٣
١٠٠ — مسند الدارمي . المطبع النظامي في كانفور بالهند ١٢٩٣
١٠١ — المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر . العصريه في الكويت ١٣٩٠
١٠٢ — معجم الأدباء لياقوت الحموي . دار المأمون ١٣٥٥
١٠٣ — مناقب الإمام أبي حنيفة للموفق الخوارزمي . حيدر آباد الدكن ١٣٣٢
١٠٤ — مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي السعادة ١٣٤٩
١٠٥ — الموطأ للإمام مالك . عيسى البابي الحلبي دون تاريخ .
١٠٦ — ميزان الاعتدال للذهبي . السعادة ١٣٢٥
١٠٧ — النهاية لابن الأثير في غريب الحديث . العثمانية ١٣١١
١٠٨ — نهج البلاغة للرضي . طبعة بيروت من ثلاثة أجزاء
١٠٩ — هدي الساري إلى فتح الباري لابن حجر . المنيرية ١٣٤٧
١١٠ — هكذا علمتني الحياة لمصطفى السباعي . دمشق ١٣٨٢
١١١ — الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم . المنيرية ١٣٥٧
١١٢ — وفيات الأعيان لابن خلكان . الميمنية ١٣١٠

٦ ـ الأبحاث

الصفحة

صدر عن مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب بتحقيق الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة :

١ ـ الرفع والتكميل في الجرح والتعديل للإمام اللكنوي الطبعة الثالثة مزيدة ومحققة .
٢ ـ الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة في علوم الحديث للإمام اللكنوي أيضاً .
٣ ـ إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبد ليس ببدعة للإمام عبد الحي اللكنوي أيضاً .
٤ ـ رسالة المسترشدين للإمام الحارث بن أسد المحاسبي في الأخلاق والتصوف النقي . نفدت الطبعة الثالثة ، وستصدر الرابعة محققة ومزيدة جداً عما قبلها .
٥ ـ التصريح بما تواتر في نزول المسيح للإمام محمد أنور شاه الكشميري. الطبعة الرابعة
٦ ـ الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام للقرافي .
٧ ـ فتح باب العناية بشرح كتاب النُّقاية في الفقه الحنفي للإمام علي القاري المكي .
٨ ـ المنار المنيف في الصحيح والضعيف للإمام شمس الدين محمد بن قيم الجوزية .
٩ ـ المصنوع في معرفة الحديث الموضوع للإمام علي القاري أيضاً ، الطبعة الثانية .
١٠ ـ فقه أهل العراق وحديثهم للعلامة المحقق الإمام الشيخ محمد زاهد الكوثري .
١١ ـ مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين وكتب الجرح والتعديل بقلم الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة . وهو بحث جديد في بابه يهم كل محدِّث .
١٢ ـ خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ الخزرجي خير كتب الرجال المختصرة بتقدمة واسعة للأستاذ عبد الفتاح أبو غدة . الطبعة الثانية .
١٣ ـ صفحات من صبر العلماء للأستاذ أبو غدة تصدر الطبعة الثالثة مزيدة ومحققة .
١٤ ـ قواعد في علوم الحديث للعلامة المحدث الفقيه ظفر أحمد العثماني التهانوي .
١٥ ـ كلمات في كشف أباطيل وافتراءات بقلم الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة أيضاً .
١٦ ـ قاعدة في الجرح والتعديل وقاعدة في المؤرخين لتاج الدين السبكي الطبعة الثالثة .
١٧ ـ المتكلمون في الرجال للحافظ المؤرخ شمس الدين عبد الرحمن السخاوي .
١٨ ـ ذكرُ من يعتمد قوله في الجرح والتعديل للحافظ المؤرخ الإمام الذهبي .

وسيصدر بعون الله تعالى قريباً بتحقيق الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة :

١ ـ تحفة الأخيار في إحياء سنة سيد الأبرار للإمام محمد عبد الحي اللكنوي أيضاً .
٢ ـ ترتيب ثقات العجلي للإمام تقي الدين السبكي والحافظ نور الدين الهيثمي .
٣ ـ نماذج من رسائل الأئمة وأدبهم العلمي . جمعها وحققها الأستاذ أبو غدة .
٤ ـ الرسول المعلِّم صلى الله عليه وسلم وأساليبه في التعليم للأستاذ أبو غدة أيضاً .
٥ ـ فتح باب العناية بشرح كتاب النُّقاية للإمام علي القاري المكي : الجزء الثاني .

• • •

تطلب هذه الكتب جميعها من البلدان التالية : حلب : مكتبة النهضة ، من دار السلام ، دار الأصمعي. ومن حماة : مكتبة الغزالي. بيروت : الشركة المتحدة للتوزيع ، دار الفكر ، دار الكتاب الجديد . دار النفائس. دمشق : دار القلم ، دار الفكر . بغداد : مكتبة المثنى. الكويت : دار القلم. مكة المكرمة : المكتبة الإمدادية بباب العمرة. المدينة المنورة : المكتبة العلمية. الرياض : مكتبة الحرمين ، مكتبة اللواء. طرابلس الغرب : مكتبة النور ، ومن غيرها من المكتبات.

صدر عن مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب بتحقيق الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة :

١ – الرفع والتكميل في الجرح والتعديل للإمام اللكنوي الطبعة الثالثة مزيدة ومحققة .
٢ – الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة . في علوم الحديث للإمام اللكنوي أيضاً .
٣ – إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبد ليس ببدعة للإمام عبد الحي اللكنوي أيضاً .
٤ – رسالة المسترشدين للإمام الحارث بن أسد المحاسبي في الأخلاق والتصوف النقي . نفذت الطبعة الثالثة ، وستصدر الرابعة محققة ومزيدة جداً عما قبلها .
٥ – التصريح بما تواتر في نزول المسيح للإمام محمد أنور شاه الكشميري . الطبعة الرابعة .
٦ – الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام للقرافي .
٧ – فتح باب العناية بشرح كتاب النُّقاية في الفقة الحنفي للإمام علي المكي .
٨ – المنار المنيف في الصحيح والضعيف للإمام شمس الدين محمد بن قيم الجوزية .
٩ – المصنوع في معرفة الحديث الموضوع للإمام علي القاري أيضاً ، الطبعة الثانية .
١٠ – فقه أهل العراق وحديثهم للعلامة المحقق الإمام الشيخ محمد زاهد الكوثري .
١١ – مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين وكتب الجرح والتعديل بقلم الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة . وهو بحث جديد في بابه يهم كل محدِّث .
١٢ – خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ الخزرجي خير كتب الرجال المختصرة بتقدمة واسعة للأستاذ عبد الفتاح أبو غدة . الطبعة الثانية .
١٣ – صفحات من صبر العلماء للأستاذ عبد الفتاح أبو غدة تصدر الطبعة الثالثة مزيدة ومحققة .
١٤ – قواعد في علوم الحديث للعلامة المحدث الفقية ظفر أحمد العثماني التهانوي .
١٥ – كلمات في كشف أباطيل وافتراءات بقلم الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة أيضاً .
١٦ – قاعدة في الجرح والتعديل وقاعدة في المؤرخين لتاج الدين السبكي الطبعة الثالثة .
١٧ – المتكلمون في الرجال للحافظ المؤرخ شمس الدين عبد الرحمن السخاوي .
١٨ – ذكرُ من يعتمد قوله في الجرح والتعديل للحافظ المؤرخ الإمام الذهبي .

وسيصدر بعون الله تعالى قريباً بتحقيق الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة :

١ – تحفة الأخيار في إحياء سنة سيد الأبرار للإمام محمد عبد الحي اللكنوي أيضاً .
٢ – ترتيب ثقات العجلي للإمام تقي الدين السبكي والحافظ نور الدين الهيثمي .
٣ – نماذج من رسائل الأئمة وأدبهم العلمي . جمعها وحققها الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة .
٤ – الرسول المعلّم ﷺ وأساليبه في التعليم للأستاذ عبد الفتاح أبو غدة أيضاً .
٥ – فتح باب العناية بشرح كتاب النُّقاية للإمام علي القاري المكي : الجزء الثاني .

* * *